العايق

الكتاب : العايق
المؤلف :أميرة عز الدين
تصميم الغلاف : وليد راشد
مراجعة تاريخية ولغوية: وليد راشد
رقم الإيداع : 26984 / 2019
الترقيم الدولي : 978 – 977 – 778 – 194 – 7
الطبعة الأولى : 2020

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02 35860377 - 011 27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

العايق

رواية لـ

أميرة عزالدين

إهداء

«بعد الذل في عيون الخلايق وكلهم ساكتين مقدرش أفضل في الأمان، الغابة دي محتاجة جني ينفد من الحيطان، يطلع من تحت الأرض، يهزك ويهز الخوف جواهم، جايلك أنا..»وكما قرر العايق التصدي للظلم منفردًا؛ أعلن هو أنه لن يستسلم وسيتصدى لمرضه الخبيث، لكنه للأسف خسر آخر معاركه ليترك لنا ميراثا ثمينا من فنه..

إلى روح النجم الراحل/ فاروق الفيشاوي

مقدمة

احتوى التراث العربي منذ زمن على العديد من حكايات الشطار؛ أو ما يسمى بأدب الشطار العربي، بداية من كتابات الجاحظ- رائد الفلكلوريين العرب- وامتدادًا لكل من لحقه في ذلك.

هؤلاء الشطار أوالعياق أوالعيارين؛ ليسوا إلا مجموعة من الصعاليك والحرافيش شبه المعدمين الذين طحنهم الفقر والعوز في غياب القانون، لذلك قرروا التصدي لظلم حكامهم المغيبين وجنودهم ذوي السلطة الغاشمة لينالوا جزءًا من حقهم في العيش ولو بالاحتيال، وهؤلاء المحتالون اشتركوا جميعا في أمرين؛ الأول أنهم ينتمون لطبقة منبوذة اجتماعيًا وأخلاقيًا، والآخر بطولتهم وشجاعتهم خارج إطار القانون؛ حيث أنهم في حالة صراع دائم مع ذلك المجتمع الذي نبذهم، هذا كله على عكس ما ورد عنهم في السير الشعبية التي حولتهم من لصوص ومحتالين إلى ثوار؛ يقدر الجميع شجاعتهم ويتمنون التشبه بأفعالهم البطولية، فهم أصحاب مبادئ نبيلة يحاربون الظلم ويدافعون عن حقوق البسطاء، ومن هنا تبدأ حكايتنا التي تحمل بعض الحقيقة والكثير من الخيال؛ فإن شئتم كل الحقيقة لا تبحثوا عنها هنا..

أميرة

زهـــرة..

توقف عمر لكي يروي ظمأه ببعض الماء لكنه قبل أن يُنزل «القُلة» من فمه فوجئ بالتاجر مسعود ينهال على ظهره بعصاه الخيزران هاتفًا: «تابع عملك أيها الكسول ليس أمامنا النهار بطوله؛ هيا!» نظر عمر نحوه في انكسار والعبرات تتجمع في عينيه دون أن يقوى على الرد، كل ما فعله أنه أومأ برأسه وهو يضع «القُلة» على سطح العربة «الكارّو» ويتناول من زميله الواقف فوقها جوال قمح آخر لكي ينقله إلى داخل الوكالة، لكن فجأة اختل توازنه وسقط وأسقط الجوال أرضًا لينقطع وينفرط منه القمح، صرخ مسعود فيه من جديد:»أيها اللعين! سأقطع رقبتك جزاء ما فعلت!» وازدادت ثورته أكثر حين تجمهر المارة من حوله وكل منهم يحاول الحصول على حفنةٍ من القمح المهدور؛ فاستدار نحو عمر لينهال عليه ضربًا في غلٍ هذه المرة، «يا مسعوووود!» فوجئ مسعود بمن يقبض على يده التي تحمل العصا في قوة وهو يتابع في تهكم: «عيبٌ عليك يا مسعود!» حاول مسعود التملص من صاحب الصوت دون فائدة؛ بينما فر عمر من تحت يديه ليقف إلى جوار «الكارو» كاتمًا دموعه في صمت، «دعني يا حسن؛ ألم تر ما فعل؟!» قالها مسعود مواجهًا حسن الذي ما يزال قابضًا على يده وهو يجيبه في برود:

- إنه خطؤك يا مسعود وليس خطأ الفتى..

- خطئي أنا يا حسن! ألا ترى بضاعتي تنهب أمام عينيك بسبب إهمال ذلك التعس!..

شهق مسعود حين لوى حسن يده ليجعله ممسكًا بعصاه بشكل رأسي؛ ثم خلع قميصه ليعلقه عليها قبل أن يتجه نحو «الكارو» مشيرًا إلى الفتى الآخر بمناولته أحد الأجولة هاتفًا:

- بل إنه خطؤك أنت؛ فأنت رجل طامعٌ وبخيلٌ يا مسعود؛ طامعٌ وبخيلٌ،

ولولا ذلك لكنت استأجرت شابين قويين لينقلا لك غلالك عوضًا عن هذين الفتيين، لكن لأنك طامعٌ وبخيلٌ- كما أخبرتك- آثرت استئجارهما مستغلًا حاجتهما؛ فبكل تأكيد أجرهما أوفر عليك كثيرًا من أجر رجلٍ بالغٍ، أليس كذلك يا مسعود؟!

تلعثم مسعود دون أن ينطق بحرف؛ بينما أخذ الجمع حوله ينفض رويدًا رويدًا وإن ظلوا يراقبون ما يفعله حسن في إعجاب، بعد دقائق معدودةٍ كان حسن يقف أمام الوكالة لاهثًا وهو يكرر سؤاله في صوتٍ جهوري ساخرٍ: «أليس الأمر كذلك يا مسعود؟!» أومأ مسعود مشدوهًا وهو ينقل بصره بين عربة «الكارو»الخالية وزاوية الوكالة التي امتلأت بحمولة القمح كاملة؛ ولم يشعر إلا بحسن يقف في مواجهته مرة أخرى وهو يجذب طرف عباءته الكتانية باهظة الثمن ليجفف بها عرقه، وقبل أن يحتج جذب حسن قميصه من فوق العصا وارتداه دون أن يحول عينيه عن مسعود وهو يغلق أزرار قميصه بيدٍ وبالأخرى يسحب العصا من يده فجأة ليشهق بصوت مسموع وهو يبتعد عما ظنه مرمى العصا ويختفي داخل وكالته، تعالت الضحكات من جبنه وبدأ المارة في التفرق؛ بينما اتجه حسن نحو الفتيين ليسأل الحمّال:

- ما اسمك؟

- عمر يا سيدي، وهذا عامر

وأشار للفتى الآخر بينما كان حسن يرتشف بعض الماء من»القلة» فسألهما هو مرة أخرى: «أنتما لستما مملوكيه، أليس كذلك؟!» هز عمر رأسه وهو يمسح دموعه مجيبًا:»نعم يا سيدي» التفت حسن نحو عامر الذي أجهش بالبكاء فجأة وسأله في دهشةٍ: «لِمَ تبكي الآن وأنت لم ينلك ما نال صاحبك من ضرب وتقريع؟!» فأجابه من بين شهقاته: «لأنني لم أستطع الدفاع عن أخي يا سيدي!» قست ملامح حسن وهو يجول ببصره بحثًا عن مسعود وهو يشير

للفتيين بأن يتبعانه إلى داخل الوكالة؛ ففعلا، شهق مسعود مرة أخرى في فزعٍ حين انهال حسن بالعصا على طاولة البيع التي وقف خلفها وهو يسأله:

- أين أجر الفتيين يا مسعود؟

- لكنهما يا حسن لم....

- أجر الفتيين يا مسعود..

رمقه مسعود في حذرٍ وأسرع يخرج من كيس نقوده بعض القطع الفضية وأعطاها له، أحصاهاحسن قبل أن يعطيها للفتيين ثم عاد ينظر إليه في صمت أندى جبينه وهو يخرج من كيسه الخاص بضع قطعٍ مشابهة ليضعها على طاولة البيع قائلًا: «وهذا ثمن جوال القمح المهدور» وقبل أن تتهلل أسارير مسعود فرحًا فوجئ بحسن يميل نحوه محذرًا بصوتٍ قويٍ سمعه كل من كان في الوكالة من أُجراء وزبائن: «وإياك يا مسعود أن ترفع يدك على أحد بعد اليوم سواءً كان من أُجرائك أو حتى من عبيدك؛ أسمعتني؟!»أومأ له مسعود بالموافقة دون أن ينطق فرفع حسن العصا عاليًا وضرب بها في الهواء عدة مرات قبل أن يكسرها ويلقيها أمامه على الطاولة وسط تهليل عمال الوكالة واختتم حديثه قبل أن يخرج قائلًا: «حاول ألا تهدم ما أسسه أبوك -رحمه الله- على رأسك يا مسعود؛ فقط حاول!»..

حين خرج من الوكالة تبعه الفتيان في حيرةٍ صامتةٍ حتى توقف فجأةً ونظر نحوهما متسائلًا: «ما بالكما تتبعاني، أتريدان شيئًا؟» تلعثم الفتيان بعض الشيء حتى قال عمر سريعًا في حرج: «نريد عملًا يا سيدي، أي عمل» تأملهما حسن لثوانٍ ثم هز رأسه متفهمًا قبل أن يعاود السير وهو يشير لهما مبتسمًا وهو يقول: «حسنًا، اتبعاني»..

كان يتجه نحو أطراف السوق وهما خلفه يتأملان واجهات الدكاكين

الصغيرة التي حلت محل الوكالات الضخمة في أوله؛ لتحتل الدكاكين القديمة المبنية من الطوب الجانب الأيسر من الطريق بينما إلى اليمين بُنيت لاحقًا دكاكين خشبية كأنها صناديق ضخمة ينقصها ضلع، دكاكين لبيع الخضر والفاكهة واللحم والطيور وأخرى لبيع البخور والحُلِيّ المقلدة والأثواب زاهية الألوان ذات الأقمشة متوسطة الجودة عوضًا عن الحرير والمخمل؛ والتي تُقبل عليها نساء العامة..

مرت دقائق اتسعت فيها المسافة بين خطوات حسن والفتيين؛ إذ أبطأا السير للاستمتاع بروائح الفاكهة الطازجة المختلطة بروائح البخور والعطور، «ماذا تفعلان؟!» عاد حسن يسألهما حين أبطأا أكثر- فكادا يفقدان أثره- أمام بائع الخضر والفاكهة، فنظر عمر نحوه معتذرًا وهو يحصي الدراهم التي أعطاها له قبل قليل مجيبًا في خجلٍ: «أردت شراء شيءٍ لأمي يا سيدي» فابتسم حسن وهو يرفع رأسه نحو السماء وعاد ينظر له قائلا: «سأدعك تفعل كل ما تريد؛ أما الآن فعلينا اللحاق بصلاة الجمعة» أومأا بالموافقة وهما يهرولان خلفه، ورغمًا عنه ألقى عامر نظرةً سريعةً نحو شارع سوق السلاح وكأنه يستطيع رؤية ساحة الشُطار البعيدة من خلف الدكاكين الخشبية، في العادة كان ينحرف بخطواته نحو الساحة لمشاهدة ما يقدمه العياقون(*) من ملاعيب مبهجةٍ أو خطرةٍ في بعض الأحيان؛ لكنه لن يتمكن من ذلك الآن مع الأسف، «هيا، فالحاج في انتظارنا» انتبه الفتيان على صوت حسن الذي قالها واندفع إلى داخل الوكالة التي بُنيت على أطراف السوق دون أن يدري أحدٌ سببًا لوجودها هنا في قلب سوق الحرافيش كما كان يسميه العامة والأكابر على حد سواء، قرأ عمر ما خُط فوق مدخل الوكالة بصوتٍ مسموعٍ: «وكالة الحاج عليّ وولده» «جميلٌ جميلٌ؛ إن الفتى يعرف القراءة يا حسن!» وصلهما

الصوت الرخيم المتناغم مع خطوات قوية ودقات دبوس من الأبانوس يتكئ عليه رجلٌ مهيب الطلة في غير حاجةٍ حقيقةً إلا للوجاهة، تباطأ حسن ليسمح له بأن يسبقه إلى خارج الوكالة وهو يقول: «يبدو كذلك يا أبي» تأمله الفتيان في إعجابٍ بردائه الكتاني الأسود وعمامته المزينة بخيوط مذهبة؛ وإن لم تخفِ كثيرًا من خصلات شعره الداكن الذي غزاه الشيب، وقف الرجل في مواجهتهما مبتسمًا فابتسما بدورهما قبل أن يلوح بالدبوس في الهواء وهو يسبقهم إلى المسجد، رفع حسن صوته ليصل إلى كل عمال الوكالة: «أغلقوا الأبواب وهيا إلى الصلاة» بينما مال عامر نحو أخيه وهمس: «إنها ليست عصا يا عمر؛ إنه دبوس كالذي يلعب به العياقين ولكنه من خشب الأبانوس» وأسرعا يلحقان بحسن وأبيه..

«وطالما استرددت ثمن جوالك المهدور ما الذي يغضبك الآن؟!» قالها الطبيب داوود وهو يضحك مرتشفًا قليلًا من العناب-الذي دعاه إليه مسعود في وكالته- فأجابه في غيظٍ:»وتضحك أيضًا؟! تلك ليست المرة الأولى التي يتعرض لي فيها حسن؛ وفي كل مرةٍ يفعلها أمام الأُجراء والصبيان» صمت داوود والجدية ترتسم على ملامحه وبدا كأنما يلوك رشفاتٍ من العناب؛ مما استفز مسعودًا أكثر وجعله يدق بكفه على الطاولة التي أمامه هاتفًا: «لا تصمت هكذا يا داوود!» عادت ملامح داوود تنفرج من جديد وهو ينهي مشروبه بنفس الضحكة وإن حملت نظراته بعضًا من تفكير:

- أنت من يصر على التصادم معه يا مسعود..

- أنا! كيف ذلك؟!

(*) **عياقين أو عُياق**: ويقال لهم أيضا عيارين وشطار؛ وهم مجموعة من الناس تتسم بالقدرة على ممارسة الملاعيب والحيل. لغويًا؛ رجل عائق تعني يعوق الطريق ويقطعه على الناس.

- جميع التجار يديرون شؤونهم كما يحلو لهم دون تدخل من أحدٍ لاعتمادهم على عبيدهم وأتباعهم المخلصين؛ أما أنت فبُخلك يدفعك للتعامل مع الحرافيش بدلًا من أن تشتري لك بعض العبيد الأشداء الذين سيدينون لك بكل الولاء، هؤلاء لن يجرؤوا على أن يلوكوا الأحاديث في شؤونك فيتدخل كل من أراد ويملي عليك ما تفعل بحجة الدفاع عن الفقراء، تمامًا كما يفعل بك حسن ابن العطار يوما بعد الآخر..

- بخلي أنا! تتحدث عن بخلي أنا يا ابن بنت شميعة؟!

وصمت يبتلع تهوره مع تلك النظرة الحادة التي رشقه بها داوود لثوانٍ لم تطل؛ أخذت ملامحه تتحول بعدها من الاحتقان الشديد إلى الهدوء مرة أخرى حتى عاد يبتسم في برودٍ قائلًا: «لم يكن شميعة بخيلاً كما تظنون يا مسعود، شميعة كان طبيبًا ماهرًا يتقاضى أجرًا عن مداواة المرضى؛ لكنه أيضًا كان طوال الوقت أذكى من الحرافيش، لذلك استطاع أن يعينهم على معايشهم وضيق حالهم» ثم تحول صوته إلى همسٍ باردٍ وهو ينظر في عيني مسعود مباشرةً ويكمل:

- ما من أحدٍ لجأ إليه في مسألة ورَدَّهُ ومع ذلك تلقبونه بالمرابي وتسمونه بخيلًا، أليس عارًا عليكم؟!

- عارٌ يا أخي، عارٌ..

أجابه مسعود فورًا وفي ارتباك أخرجه منه داوود نفسه حين عاد صوته إلى نبرته الضاحكة وهو يقول: «الشيء الوحيد الذي فشل شميعة في مواجهته هو ما فشلتم فيه جميعًا» تنفس مسعود بصوتٍ مسموعٍ وقال بنبرة غيظٍ: «ملاعيب العُيّاق» فلاحقه داوود وأكمل: «التي يلجأ حسن إلى بعضها تمامًا كما كان يفعل أبوه» صمتا ومشهد شميعة الطبيب وهو يدور في الحواري

والأزقة صارخًا ومولولًا يسيطر على أفكارهما معًا، كانا وقتها طفلان صغيران يلهوان في شوارع السوق حين فوجئ الناس بشميعة الطبيب وجنود الدرك يسيرون خلفه ويفتشون كل ركنٍ يمرون عليه؛ بينما أخذ هويصرخ من عمق قلبه: «ضاعت أموالك يا شميعة، مالي وحالي وصكوك الدين ضاااعت، حتى المقدم الكلبي لا يقدر على ذلك العايق وشميعة المسكين يدفع الثمن، آهٍ يا نقودي، آآآآه» ترددت الذكرى في مخيلة داوود وهو يتطلع خارج وكالة مسعود كأنه يرى دكان جده العتيق الذي أغلقته أمه بعد وفاته خاصةً وأن أباه إسحاق كان يدير الخان الذي أسماه على اسمه «خان داوود»، وظل الدكان مغلقًا حتى أتم هو دراسة علوم الطب- محققًا لأمه أمنيتها الوحيدة في أن يخلف جده في مهنته- وأعاد فتح الدكان بالإضافة إلى إدارته للخان كذلك، وكان هو يشبه جده في حرصه وذكائه وحتى في كراهيته لملاعيب العياق والشطار أمثال عليّ العطار في سابق عهده،»لماذا يخيل إلي أنك مازلت حاقدًا على المقدم عليّ حتى هذه اللحظة رغم اعتزاله لمنصبه منذ زمن؟!» سأله مسعود لينتزعه من شروده فابتسم بشيءٍ من التشفي وهو يعود إلى شروده من جديد؛ متذكرًا كيف كان عليّ وقتها شابًا نزقًا لا يتعدى كونه أحد العياق المهرة بعض الشيء والذي قرر ذات ليلةٍ تحدي مقدم الدرك صلاح الكلبي بحجة نصرة الفقراء من ظلمه-وبالفعل- ظل يوقع الكلبي في ملعوب تلو الآخر حتى اضطر الوالي إلى الحكم بتفوقه عليه وتنصيبه خلفًا له في مقدمية الشرطة، لكن رغم كل هذا كان علي مايزال ساذجًا متهورًا بصورة مكنت دليلة من التدبير للخلاص منه حين حددت النفيلة(*) التي كان على عليٍّ إحضارها لإثبات جدارته بالمنصب؛ وبالطبع انساق الوالي خلف اقتراحها تمامًا، «لم يعد مقدمًا يا مسعود، أصبح منذ زمن مقدمًا سابقًا» قالها داوود وهو ينهض خارجًا من الوكالة ومسعود

(*) **النفيلة**: عطية أو هدية، وهي هنا شرط لإثبات الجدارة..

يتبعه في إلحاح ويكرر سؤاله: «فلِمَ تحقد عليه إذن؟!»التفت نحوه داوود بنظراتٍ أحد من خنجرٍ ماضٍ وتمتم: «لأنه مازال كما هو، ترك المنصب لم يوقف ملاعيبه أبدًا؛ بل -على العكس- أصبح أكثر مكرًا ودهاءً بمرور الأيام، ولم يكتفِ بهذا بل أخذ يورث فنون العياقة لابنه ولسواه من العياق الذين أحيتهم عودته لصفوفهم من جديد، كلما استتب الأمر بعض الشيء للأمراء والأكابر عاد يُبليهم بالمنغصات ويستنزف أموالهم وهذا لا يرضيهم بالمرة؛ ونحن مصلحتنا في رضاهم يا مسعود، أفهمت الآن؟!» وذهب دون انتظار رد مسعود الذي أومأ برأسه عدة مرات وهو يعود إلى جلسته قائلًا: «صدقت!»..

أما داوود فسار في تمهلٍ شاردٍ نحو دكان جده- التي أغلقها وتوقف عن ممارسة الطب منذ وفاة أمه- بينما عادت الحياة تدب من جديد بين جنبات السوق بعد انقضاء صلاة الجمعة، بعد لحظات جذبته صيحات العياق الآتية من جهة ساحة الشطار ليكتشف أنه يقف أمام وكالة الحاج عليّ مباشرةً، «وبعد أن انتهى السيد حسن من نقل الأجولة تقدم في هدوءٍ شديدٍ نحو مسعود ليتناول قميصه وهو مستمر في توبيخه، وبعدها أخذ منه أجرنا الذي كاد أن يسلبنا إياه ولكن بعد أن دفع له ثمن جوال القمح المهدور» تسللت كلمات عامر الحماسية إلى مسامع داوود وهو واقف مكانه لتسترده من شروده؛ فالتفت نحو الصوت ليشاهد عليًّا وهو يتقدم نحو وكالته - مطيحًا بدبوسه في الهواء بين لحظةٍ وأخرى- بينما يقص عليه عامر ما حدث في الصباح أمام نظرات عمر وحسن التي حملت البسمات الصامتة، «شميعة الطبيب! كيف حالك يا رجل؟!» قالها عليٌ وهو يقف في مواجهة داوود ويضرب الأرض بدبوسه في قوة؛ فابتسم داوود وصفحة وجهه تخفي ما بنفسه تماما وأجابه في برودٍ: «العتب على النظر يا سيد علي.. أنا داوود» تعالى ضحك علي وهو يدخل

إلى وكالته صائحًا لتصل كلماته إلى داوود الواقف خارجًا: «أتظنني خَرِفًا يا ابن إسحاق فلم أعد أميز بينك وبين جدك؟! لا والله، الأمر وما فيه أن شميعة ليس مجرد اسم رجلٍ؛ إنه فصيلٌ من البشر يتفق أفراده في كل شيء مهما تبدلت الأسماء» وعاد يضحك وهو يتجه للجلوس على أريكته التي تتصدر مدخل الوكالة؛ بينما تقدم حسن نحو داوود يصافحه وهو يتصنع الاعتذار قائلا: «عذرًا يا داوود؛ أنت تعرف الحاج عليّ» سحب داوود يده بعد سلامٍ سريعٍ وأومأ برأسه لحسن وانصرف بنفس الملامح الباردة..

كل ذلك جلس عمر يقصه على أمه التي حرثت ساحة الدار جيئةً وذهابًا وهي تدعو لحسن ولأبيه وتشكر الله أن أوقفهما لولديها المسكينين، لم تصدق عينيها حين عاد الفتيان محملين بالطعام واللحم والفاكهة؛ حتى أنها ظنت في بادئ الأمر أن الشيطان قد لعب برأسيهما وامتدت يداهما بسرقة ما أحضراه، ضحك عامر كثيرًا قبل أن يقول: «يا أمي؛ حتى لو غلبنا الشيطان كما ظننت فلسنا من المهارة لنسرق كل ما ترين!» ابتسمت لحظتها في تردد وأمرتهما بأن يقصا عليها ما حدث معهما بالتفصيل وهي تحضر لهما عشاءً من بعض الفاكهة التي أحضروها حتى تعد لهما في الصباح بعض الطعام الحقيقي عوضًا عن حساء النابت و«البتاو» وجبن الحصير الذي ألفوه دون سواه لفترة طويلة؛ لم تستطع معها تذكر متى كانت آخر مرة أكلت فيها حتى الشبع خشية أن يكون أحد الفتيين لازال جائعًا، وإن تذكر كل منهما جيدًا كم مرة اضطرا فيها للتظاهر بالنوم كي تأكل هي دون أن تحمل همهما!..

«توقف أيها المهرج» قالها عمرٌ ضاحكًا بينما كان عامرٌ يتقافز هنا وهناك؛ ملتهمًا قطع الفاكهة التي تناولها له أمه بنهمٍ شديدٍ وهو يقص عليها ما جرى في الصباح مع مسعودٍ تمامًا كما حكى للسيد عليّ، تسمر عامرٌ في مكانه في

جديةٍ مصطنعةٍ وهو يسأله: «وهل كان السيد حسن مهرجًا حين فعل ما فعل بمسعودٍ؟!» وبالطبع لم ينتظر رد أخيه وانطلق يخبر أمه عن كرم السيد حسن الذي أخذهما معه إلى وكالة أبيه حين علم أنهما يبحثان عن عملٍ، هنا تدخل عمرٌ وحكى لها أن السيد عليّ بعدما عادوا من صلاة الجمعة نادى عليهما- هو وعامر- بصوتٍ جادٍ دفعهما إلى الإسراع إليه حيث جلس وبادرهما قائلًا: «بما أنكما تعرفان القراءة والكتابة فسوف تعملان في المخزن مع حسن؛ وهو سوف يعلمكما كيف تقيدان البضائع المشتراة والمباعة وتحسبان المخزون، تعلمتما الحساب في الكُتاب؛ أليس كذلك؟» هزا رأسيهما بالموافقة فتابع: «هذا أمرٌ جيدٌ، لكن لي شرطٌ وحيدٌ» التفتت أمه نحوه سائلةً في قلقٍ: «وماذا كان شرطه؟!» كاد عمر أن يجيب لكن عامرًا اندفع يجيبها بصوت غص باللقيمات التي اقتطعها من الفطير الذي أخرجته توًا من الفرن: «أن نواظب على الذهاب إلى الكُتاب كل صباح ونذهب إلى الوكالة بعدما ينتهي الشيخ من درسه» تهلل وجهها وقالت: «أحقًا! يا له من رجلٍ كريمٍ» هنا تشجع عامر وابتلع ما يمضغ وأخبرها أيضًا ما قاله السيد عليّ عن أنه يذكره بصباه حين علم أنه يحب فنون العياقة ويريد تعلمها، فهبت أمه مستنكرة وهتفت:

- العياقة مرة أخرى يا عامر؟! ألن تكف عن تلك الحركات الصبيانية؟!

- ومن قال إن العياقة للصبيان يا أمي؟! ألم تسمعي من قبل عن بطولاتهم ومواقفهم الشجاعة؟! ألم تسمعي عن المقدمين حسن رأس الغول وأحمد الدنف وحسن شومان وعمر الخطاف؟! إن هذا الأخير كان أبرع العياق في فنون التنكر على الإطلاق، وكان...

قاطعته هي هاتفةً في حدةٍ: «كفى؛ لا أريد سماع مثل هذا الحديث مرة أخرى، أنتما ستعملان وتواظبان على دروسكما في الكُتاب حتى يحين الوقت

وتدرسان في الأزهر مثلما كان يريد أبوكما، أتفهمان؟!» تكلم عمر أخيرًا وهو يربت على كتفها مهدئًا: «يا أمي لا يوجد تعارض بين هذا وذاك، فالسيد عليّ كما اشترط علينا التوفيق بين عملنا ودروسنا؛ اشترط أيضا أن يحدد لنا وقت المران على فنون العياقة، في النهاية هو كبير العُيَّاق يا أمي ولن نستطيع تعلم أي شيء إلا بأمره فلا تخشي شيئا» ظن عمر أنه يطمئنها بكلماته فلم يفهم سر تحول وجهها من حمرة الغضب إلى ذلك الشحوب وهي تتمتم: «كبير العُيَّاق! هل السيد علي الذي تتحدثان عنه منذ عودتكما هو نفسه الحاج علي صاحب وكالة العطارة في نهاية السوق؟!» سألت سؤالها ولم يمكنها شرودها من سماع الجواب وإن أدركته من إيماءات ولديها بالموافقة، شعرت بهما يقبلان رأسها وكفيها ظنًا منهما أن صمتها موافقة على ما أخبراها به؛ ورأتهما يحضران ما أعدته لهما من طعامٍ في همةٍ سعيدةٍ ألجمتها أكثر، جلست بينهما أمام «الطبلية» وتناولت معهما فطيرًا مما أعدته وجبنًا وعسلًا وقطعاً من الفاكهة التي كان يناولها لها عمر سعيدًا بقدرتهما هو وأخيه على الوفاء بما تحتاجه الدار؛ بينما ظل عامر يقص نكاتًا وحكاياتٍ بطريقته الضاحكة البشوشة التي تتناقض تمامًا مع دموعه القريبة..

كانت من خلال شرودها تتأمل ولديها اللذين حملا معًا صفات أبيهما كلٌ كما رتب الله له، فكلاهما كانا يشبهه في الملامح وإن كان عمر يحمل في عينيه تلك المسحة من الحزن التي تتركه هادئا أغلب الوقت؛ ربما لأنه حضر موت أبيه وهو ابن الخامسة، أما عامرٌ فكان يحمل روح أبيه المرحة التي فقدها خلف قضبان محبسه الذي أودع فيه غدرًا؛ رغم أنه لم يكن قد أكمل عامه الثاني وقت رحيله، «أخبريني يا صبية؛ ما صلة القرابة بينك وبين عمر؟! أأنتِ أخته الصغرى؟!» هكذا سألها ذلك الشاب الأسمر الذي استضافه أبوها

ذات يومٍ - في دارهما الجديدة التي استقرا بها بعد وصولهما إلى المحروسة- وطلب له بعضًا من شراب اللوز البارد، وبدلًا من أن تجيبه سكبت كؤوس الشراب عليه من فرط خجلها حين تلاقت عيناها بعينيه، «ماذا فعلتِ يا زهرة سامحكِ الله يا ابنتي، عذرا يا عليّ» هكذا أسرع أباها يقول بينما نهض علي لينفض الشراب عن ملابسه في سرعةٍ وإن ظل وجهه باسمًا وهو يقول: «لا عليك يا عمر؛ لم يحدث شيئا» والتفت نحوها متابعًا: «إذن فتلك الصبية ابنتك أيها العيّار الماكر!» وضحك هو وأبوها بينما هربت هي من أمامه في لمح البصر، لم تنسَ عينيه الضاحكتين أبدًا؛ تعلقت به رغم أنه لم ينظر إليها قط إلا كابنة صديقه وأستاذه كما كان يقول دائما، وهي كانت -رغم صغر سنها- معتدةً كثيرًا بنفسها؛ لذلك لم تحاول أبدًا لفت انتباهه خاصة بعد أن علمت بأنه مغرمٌ بابنة دليلة، لم تكن تعرف الكثير عما يدور من حربٍ خفيةٍ بينه من جهة وبين الكلبي ودليلة ورجالهما من جهةٍ أخرى؛ لكنها كانت تدرك أن أباها ومن خلفه أصدقائه من العيارين المخضرمين كانوا يساعدونه بكل قوتهم لأنه ابن صديقهم وكبيرهم المغدور حسن رأس الغول، حتى جاء اليوم الذي كسر فيه عليّ شوكة الكلبي ودليلة وهزمهما هزيمة نكراء، فأمر الوالي بسجن الكلبي وتعيين عليّ رئيسًا للشرطة؛ بينما أمر بنفي دليلة إلى خارج البلاد بلا رجعة وتزويجه من زينب إذا ما وفى بالنفيلة المطلوبة، هنا أيقنت زهرة أن عليًّا ابتعد عنها إلى لأبد؛ خاصةً حين علمت من أبيها بزعمه الخروج لإحضار صندوق التواجيه المسحور كنفيلة كما حكم الوالي رغم خطورة الأمر؛ ليس لطمعه في المنصب الجديد ولكن لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى حبيبته زينب، ولكن؛ من قال أن دليلة كان لها عهدٌ في يوم؟!..

«أمي! أمي!» انتبهت زهرة على صوت عمر الذي أخذ يربت على كتفها في

حنانٍ متطلعًا إليها بعينيه الناعسة في قلقٍ وهو يسألها متابعًا: «لماذا أنتِ مستيقظة حتى الآن؟!» نهضت من فوق كومة القش التي كانت ممددة عليها فوق سطح الدار وأمسكت بيده ليهبطا سويا، ارتجفت حين مس بشرتها ذلك الدفء المنبعث من جدران الفرن إلى سائر أنحاء الدار؛ والذي افتقدوه لأسابيع فائتة، «مازال ينام كما لو كان طفلًا» قالها عمر وهو يضحك في خفوت وأمه تسوي الغطاء حول جسد عامر الغارق في النوم فوق سطح الفرن؛ ثم التفتت نحوه تسأله في همسٍ: «ما الذي أيقظك أنت؟» أجابها وهو يصعد إلى سطح الفرن خلفها: «لا أدري! أنتِ أخبريني؛ لماذا أنتِ قلقة؟» جلست مرتكنةً إلى الجدار بينما تمدد هو بجوار أخيه ووضع رأسه في حجرها متطلعًا نحوها في انتظار الكلمات من بين شفتيها؛ فابتسمت ابتسامةً خفيفةً دون ردٍ وهي تمرر أناملها بين خصلات شعره وتراقبه وهو يستسلم للنوم تدريجيًا رغمًا عنه، «سأسميه عمر» أغمضت عينيها وهي تستمع إلى صوت فضل الذي كان يسوي خصلات شعرها المبتلة عرقًا بعد لحظاتٍ من وضعها لمولودهما الأول، كان الرضيع ينام بينهما ناعسًا؛ لكنه فتح عينيه الصغيرتين ببطء حين همس أبوه بالاسم الذي اختاره له حبًا في أمه وأبيها، ابتسمت تضمهما معًا؛ عمر الصغير وأبيه الذي كان اسمًا على مسمى، فضلٌ من الله اختارها ليرزقها به بعدما ظنت أن ليس لقلبها نصيبٌ من فرح..

كان كبرياؤها أقوي من انجذابها لعليّ فمنعت عن نفسها أي ذكرٍ له؛ رغم بقائها تحت رعاية أمه السيدة فاطمة بعدما اصطحبه أبوها في رحلته الخطرة إلى المجهول المجبر على خوضه، عاشت أسابيعَ تتجنب دعوات السيدة فاطمة لمجالستها كل ليلةٍ خشية أن يرد ذكره فينكشف ما تخفيه أمامها، لكن رويدًارويدًا بدأ فضولها لمعرفة تلك السيدة عن قربٍ يغلب حذرها هذا، بل إنها

بدأت تشعر بسخافتها لتجنبها الاقتراب من «الست» كما يسميها الحرافيش البسطاء وهي من هي، فتلك السيدة كانت واحدة من فتياتٍ قلائل أتقنَّ فنون العياقة في سنٍ مبكرةٍ حتى أنها هي من أخذت بثأر عمها- عديم الولد- من قاتله أحمد بن البني؛ واحتفظت بملابسه وأصبح الناس يسمونها باسمه، الأمر الذي جعل ابن عمتها ومثلها الأعلى- حسن رأس الغول- ينتبه إلى أنها لم تعد تلك الطفلة التي كان يستخف باهتمامها بالعياقة وفنونها؛ وكان يظن أنها سرعان ما تهجر كل ذلك إلى أحلام الفتيات الوردية، والذي لم يعلمه إلا لاحقًا أنها ما انجذبت لملاعيب العُيَّاق إلا من أجله؛ فما حلمت ذات يومٍ برجلٍ سواه..

ذات مساء، سهرت زهرة تستمع إلى حديث فاطمة عن رأس الغول وهي منهمكةٌ في تنظيف خنجره الفضي في حرصٍ وحنينٍ، قالت:»في ليلة عزاء عمي وقف على باب المجلس يطلب حضوري من بين النساء،رأيت في عينيه لحظتها نظرةً ما ألفتها قط، في كل خطوةٍ كنت أخطوها نحوه كنت ألمح بريقها يزداد أكثر فأكثر، وقفت أمامه فمد يديه الاثنتين ليجذبني إلى الخارج لنقف لصيقين دون أن أستطيع النطق، لا أدري كم مر من الوقت وأنا تائهةً في نظراته؛ لكن ما قاله لحظتها استردني من شرودي ليكتب أول سطور حكايتنا « كانت فاطمة تتحدث بحنينٍ أنار وجهها ودفع زهرة لسؤالها في لهفةٍ: «أخبريني يا خالتي ماذا قال؟» ظلت فاطمة على صمتها لثوانٍ وابتسامتها تتسع شيئا فشيئًا كأن أفكارها تتذوق حلاوة الذكرى من جديد، وحين رجتها زهرة مرةً أخرى قالت: «ليلتها رأيت الفارس الذي كان يخشاه الجميع وقد تحول إلى رجلٍ عاشقٍ يهمس لي قائلًا: منعت نفسي طويلًا من الاقتراب منكِ يا فاطمة ظنًّا مني أنكِ سرعان ما ستملّين عالمنا هذا، لم أكن أظن أن بكِ نفس هوسي وجنوني لكني الآن فهمت، أقسم لكِ يا فاطمة أن تكوني تاجًا فوق رأسي

حتى الممات لو قبلتيني زوجًا لكِ» تنهدت زهرة مبتسمة وهي تتأمل ابتسامة فاطمة التي وقعت بين وجنتين متوردتين خجلًا وهيامًا، تأملتها في سعادة للحظة ثم سألتها: «وبماذا أجبته يا خالة؟!»ضحكت فاطمة وهي تنهض لتعلق الخنجر في مكانه فوق الجدار وقالت: «هل هذا سؤال! لقد انتظرت لسنوات لكي يفهم أنني لم أهتم بالفروسية والعياقة إلا لأنه فارسٌ شجاعٌ وعايقٌ لا يشق له غبار» ثم ضحكت وهي تكمل:»تصوري أنه لم يصدق أنني كنت مغرمةً به طوال هذا الوقت!»..

ظلت كلمات فاطمة عالقةً في ذهنها حتى طُرِد النوم عنها في تلك الليلة وهي تسأل نفسها؛ هل هي مغرمة بعليّ حقًا؟! تنهدت متأملةً ضوء النهار الذي غزا نافذتها ثم نهضت لتستعد للذهاب إلى دكان أبيها ككل صباح، كان هذا هو طلبها الوحيد حين أتت للإقامة عند السيدة فاطمة؛ أن يظل دكان أبيها مفتوحًا طالما أن داره مغلقة إلى حين، كل ما كانت تتمناه في تلك الأيام أن يعود أبوها سالمًا وتنجح في إقناعه بالعودة إلى الشام؛ لكنها لم تعرف أن ذلك الشاب الأزهري سيحول بينها وبين ما أرادت؛ بل سيقلب حياتها بالكامل لغير ما كانت تتوقع، كانت كلما خرجت من الدار إلى دكان أبيها تقابل ملامحه وسط عشرات الوجوه التي تراها دون أن تدرك أين تراه على وجه التحديد، بمرور الوقت أصبح وجهه مألوفًا فلم تنزعج أو تشعر يومًا أنه بدأ يلاحقها أينما ذهبت!..

وذات مساء شعرت بأصوات تأتي من فناء الدار الخارجي فتناولت واحدًا من دبابيس عليّ الكثيرة وخرجت نحو الفناء في حذرٍ دون أن تحاول إيقاظ فاطمة، لم تشعل أي ضوءٍ كي لا يشعر المتسلل أنها كشفته وسارت محاذية للحائط حافية القدمين، بعد لحظةٍ لمحت شبحًا يحاول فتح واحدة

من النوافذ المطلة على الفناء الخلفي ليتمكن من الدخول إلى الدار، رفعت الدبوس وهي ترتجف وضربته بكل قوتها على رأسه؛ لكن يبدو أن ضربتها لم تكن بالقوة الكافية لأنه استدار يدفعها بعيدًا وأسرع نحو السور يحاول الهرب، في تلك اللحظة صرخت بكل قوتها تستنجد بفاطمة والجيران؛ لكنه كان قد وصل لأعلى السور وقفز خارج الدار، شعرت بفاطمة وهي تهرول لتقترب منها وهي تطبق بكفها على خنجرٍ صغيرٍ قائلةً في توتر: «ماذا هناك يا زهرة؟!» وقبل أن تجيبها وصل إلى سمعهما أصوات ضرباتٍ وركلاتٍ وآهاتٍ آتية من الخارج؛ فأسرعن يفتحن الباب ليرين فضلًا قابضًا على رقبة اللص وهو ينهال عليه ضربا، «كفى كفى، ستتأذّى» قالتها زهرة بلا وعي وهي ترتجف من فرط الانفعال فنظر إليها فضلٌ لاهثًا وخُيِّل إليها أنه يبتسم وهو يقول: «لا تخافي» بعدها تعاون مع بعض فتيان الحي- الذين هرولوا إلى الدار أيضًا بعد صراخها- ليقيدوا اللص ويسلموه إلى جنود الدرك..

«شكرًا لك يا فضل» قالتها فاطمة في وقارٍ وهي تراقب نظرات فضل نحو زهرة التي شردت تحاول تذكر أين رأته من قبل، تذكرت كل مرة رأته فيها في السوق أو مارًا من أمام دكان أبيها أو عائدًا من دروس الأزهر لتتلقفه حرارة نيران الكير في دكانه القريب من دكان أبيها، «لا تخافي» احتفظت بعبارته مع تقاسيم وجهه في عمق عينيها وتأملته وهو يتقدم نحوها هي وفاطمة هامسًا رغمًا عنه: « أنا.. أنا هنا في الجوار!» ارتجفت من جديدٍ لكن ليس من الخوف هذه المرة؛ ارتجفت فلم تستطع التحرك من أمامه حتى جذبتها فاطمة من يدها وقالت: «سلمت يا فضل، سلمت يا بني» واستدارت تدخل إلى الدار ومن خلفها زهرة التي حملت معها كلماته وصوته اللذين بثَّا الدفء في أوصالها تمامًا كما تشعر الآن في جلستها فوق الفرن مع ولديها، رفعت رأس عمر برفقٍ

لتضعها على الوسادة وتمددت بجواره هو وأخيه وهي تغمض عينيها التي دمعت رغمًا عنها، «أنا هنا في الجوار!» كانت أصدق ما قاله فضل وظل يعمل به طوال عمره كله، كان يجاورها في السكن ودكان حدادته كان مجاورًا لدكان أقمشة أبيها، روحه ظلت مجاورةً لروحها؛ بل لصيقة بها وتحتويها منذ تلك الليلة وحتى مماته..

في تلك الأيام عاشت زهرة حائرةً لا تدري كيف ترك فضل ذلك الوقع في نفسها، لقد أدركت حينها كيف قد تتقلب القلوب في لمح البصر من النقيض إلى النقيض، فلو أخبرها أحد أنها ستنسى وقع نظرات عليّ في نفسها وتنسى أمره هو بالكامل-رغم أنها تعيش في داره ومع أمه-لكانت اتهمته بالخرف، ما كانت لتصدق أيضًا أنها ستعيش الأيام التي تلت تلك الحادثة في انتظار الصدفة التي ستجمع بينها وبين فضلٍ من جديد، لكن عدة أيام مرت دون أن تراه مطلقًا، كانت متأكدة من ذلك تمامًا وأورثها هذا شعورًا بالغيظ، فبعدما كانت لا تلاحظ وجوده وإن رأته لا تتذكر من يكون؛ أصبحت الآن في انتظار لقائه الذي ربما لن يحدث أبدًا،«انتبهي لنفسك يا زهرة البنات» تسمرت في مكانها حين أتاها صوت فضل؛ والتفتت لتراه واقفًا على مقربةٍ من دار السيدة فاطمة، رغما عنها ابتسمت لكنها عادت وتجهمت في غيظٍ حين تذكرت ما كان من اختفائه، تردد للحظةٍ قبل أن يتقدم نحوها بنظراتٍ معتذرةٍ وقال: «سامحيني يا زهرة البنات» تطلعت نحوه وهو يقول بكلماتٍ سريعةٍ ما تمنت سماعه، أخبرها بتعلقه بها منذ رآها وبأنه ظل على صمته حين علم من أصحاب الدكاكين في السوق من تكون ومن يكون أبوها وفضل أن ينتظر عودته من سفره، لذلك فوجئ حين رآها تلك الليلة في دار عليّ صديقه وشعر بالحرج من ملاحقته لها أكثر حتى ولو من بعيد؛ فهو لا يدري هل هما...

«علي ليس إلا أخ لي» أسرعت تقولها دون وعي منها وبطريقة أدهشتها هي نفسها؛ فأطرقت في خجل بينما اتسعت ابتسامة فضل وهو يتمتم: «حمدًا لله» تلفتت حولها خشية أن يراهما أحد وقالت في خفوت: «لابد أن أذهب الآن» استوقفها فبقيت؛ فظل يتأملها في صمت وكذلك فعلت هي، سألها فجأة: «هل يعني هذا أنكِ قد توافقين على طلبي؟!» لم تستطع الرد وحاولت الهرب من أمامه فأمسك بيدها هامسًا: «رجاءً؛ ابقَيْ قليلًا» بقيت وإن ظلت على صمتها؛ فسألها من جديد: «أتعرفين ماذا أعمل؟!» فأومأت مجيبة:

- حدادًا..

- أنا أيضًا أدرس في الأزهر..

ظلت صامتةً أيضًا فاحتار كيف يدفعها للحديث وبقي يتأملها حتى قال فجأةً: «أتعلمين أن أباكِ معلمي؟!» اندهشت وسألته في سرعة:

- هل أنت الآخر عايق؟!

- (ضحك) لا.. لكني أحب تعلم ما أستطيع الدفاع به عن نفسي..

- وماذا تعلمت؟

- الرمي بالسهام..

- أحقًا؟!..

- لكنكِ أمهر مني كثيرًا..

- كيف هذا؟!

خفت صوته أكثر وهو يهمس: «أيا لكِ نظرة أودت بقلبي وغادر سهمها جسمي جريحا»* رغمًا عنها تركت عينيها معلقتين بنظراته وهي تشعر بخفقات قلبها تطرق صدرها بقوةٍ كادت تقسم أنه سمعها، همس باسمها فأفاقت وأسرعت تختفي من أمامه بعد أن تركت له منها ابتسامة؛ كتلك التي

ارتسمت على ملامحها وعامر يسألها ممازحًا: «أمازلتِ غاضبةً يا زهرتي؟!» فنظرت نحوه في صمتٍ وإن لم تستطع كتمان ابتسامتها، لقد حرك الولدان- دون أن يشعرا- شوقها لذكرى كل الأحبة الراحلين؛ فأمضت ما تبقى من الليل مسهدةً تفكر بهم وتسترجع كل ما عاشته معهم، لذلك حين أشرق الصباح كان الحنين يرسم تلك الابتسامة على ملامحها والتي استقبلت بها سؤال عامر..

«صدق القائل: من شابه أباه فما ظلم، فعليّ منذ صباه كان نسخةً مصغرةً من أبيه؛ حتى دون أن يعرف حقيقة نسبه له، وفي سن مبكرة ثارت نفسه ضد ظلم الكلبي ودليلة ورجالهما تمامًا كما فعل رأس الغول، فعلمت أنه لا مفر من القدر» تذكرت زهرة تلك الكلمات التي سمعتها ذات يوم من فاطمة وهي تبتسم في صمتٍ قلق، هي تدرك تمامًا- كما أدركت فاطمة قبلها بسنوات- أن خوفها من العياقة وملاعيبها وما قد تجلبه على ولديها من مشكلاتٍ لن يمنع تحقق القدر، صحيح أن قلوب الأمهات- كل الأمهات- لا تحمل منطقًا كهذا لكن لا حيلة مع القدر سوى الدعاء، هيأت لولديها المخلتين ووضعت لهما لوحي «الإردواز» بعد أن نظفتهما من الأتربة المتراكمة عليهما منذ توقفا لبعض الوقت عن ارتياد الكُتاب نظرًا لضيق الحال مؤخرًا، في الحقيقة كانت ممتنة للشروط التي أملاها عليّ على ولديها ليعملا معه، لقد كان كريمًا وعطوفًا كما عرفته دائمًا - رغم انقطاع كل صلة بينهما منذ زمن- وهذا ما طمأن قلبها بعض الشيء، أسلمت أمرها لربها وحاولت الحفاظ على ابتسامتها وهي تقول: «أتريد مرافقة أخيك حين يذهب إلى ساحة الشُطار يا عمر؟» كان لتلك الكلمات وقع محببٌ لدى ولديها؛ فعمر ابتسم وهو يهز رأسه بالموافقة ناقلًا بصره بين أمه وأخيه في حنان؛ بينما قفز عامرٌ من أمام «طبلية» الإفطار

(*) بيت شعر للعباس بن الأحنف، وهو أبو الفضل العباس بن الأحنف الحنفي اليمامي النجدي؛ شاعر عربي عباسي وُلِد في اليمامة بنجد وعندما مات والده انتقل من نجد إلى بغداد ونشأ بِها وعاش مُتنقلا مابين بغداد وخراسان.

هاتفًا في فرحٍ: «أحقًا وافقتِ يا أمي؟!» ودون أن ينتظر ردها أخذ يدور حولها هي وعمر في سعادة كما لو كان يؤدي رقصة التحطيب، تعالت ضحكات زهرة وهي تراقبه فنهض عمر ليضمها ثم ينضم إلى أخيه كأنهما يتباريان وهي تصفق لهما بعينين دامعتين، مرت دقائق قبل أن يلاحظا بكاءها حين توقفت عن التصفيق فأسرعا إليها في لهفة وقال عامر: «لا يا أمي، لن نذهب إن كنتِ تبكين لهذا!» وأكد عمر على

قوله: «نعم يا أمي؛ لا يمكن أن نكون سببًا في حزنك لهذه الدرجة!» ضمتهما في قوة وقبلت رأسيهما ثم نهضت أمام نظراتهما القلقة وهي تبتسم من بين دموعها قائلة: «لست حزينة؛ أنا فقط أخاف عليكما فإن وعدتماني بالحرص على نفسيكما سيطمئن قلبي» رددا كلمة «نعدك» نقلت بصرها بينهما ثم قالت لعمر: «أعلم أنك لست مهووسًا بالعياقة كهذا المشاكس؛ لكني سأطمئن لو كنتما سويا،كما أن مهارات العياقة قد تفيدك يومًا ما» وافقها عمر قائلا: «بالتأكيد سأتعلم ما يمكنني الدفاع به عن نفسي على الأقل» أطرقت مبتسمة وهي تتمتم: «نفس كلمات أبيك» وحين سألها مستوضحًا ما تقول أسرعت تفتح باب الدار ممازحةً وقالت:»هيا اذهبا الآن فأنتما تعطلانني عن عملي أنا أيضًا» خرج عامر بعد أن تناول «المخلة» وقبل يد أمه في سرعة بينما تباطأ عمر وهو يفعل المثل لكنه توقف ممسكًا بيد أمه وقال: «لا تخرجي للعمل بعد اليوم يا أمي؛ ليس هناك داعٍ لذلك بعد الآن» ربتت على رأسه وودعته هو وعامر بأفضل ما استطاعت من البسمات؛ قبل أن تغلق الباب وتتطلع نحو القدور المجاورة للفرن والتي جف فيها الطمي والعسل في بعض الشرود وتساءلت: «هل عمر على حق؟!»..

استغرقت بعض ساعات النهار حتى رتبت الخزين الذي أحضره ولداها؛

فور أن نقدهما حسن أجر الأسبوع مقدمًا، فنظفت حجري الرحى وطحنت القمح والذرة وخبزت منهما بعض الخبز و«البتاو» كما صنعت بعض الجبن وصعدت لتنشره على الحصير فوق السطح؛ وهي تذكر نفسها أن عليها شراء بعض الطيور والأغنام لتوفر في الدار البيض واللبن عوضًا عن شرائه، «هل أشتري طميًا وعسلًا أم لا؟!» تساءلت وهي تنظف قدور الطمي والعسل المتروكة على حالها هذا منذ أن توقفت عن الخروج لعملها كماشطة؛ بعد أن أصبحت لا تملك ثمن شراء ما تحتاجه من طمي وأعشاب وخامات مختلفة، لقد طلب منها عمر ألا تخرج مرة أخرى للعمل وهذا ما كانت ترغب به منذ سنوات؛ لكنها لا يطاوعها قلبها على إلقاء الحمل بأكمله على ولديها وكبيرهما لم يتخط الخامسة عشر إلا ببضعة أشهر فقط، لفت شالها حول وجهها وعدت النقود التي أعطاها لها عمر وهي تدير حسبةً ما في رأسها؛ قبل أن تدس صرة النقود بين طيات ثيابها وتجذب باب الدار لتغلقه خلفها وتتجه نحو السوق..

سارت زهرة متنقلة بين وكالات الأقمشة الفخمة دون أن تتوقف أمام إحداها؛ فقد هجرت منذ زمن ارتياد مثل تلك الحوانيت وأصبحت مثلها مثل نساء العامة اللاتي يشترين أثوابًا أقل جودةً لكنها لازالت ذات ذوقٍ جميل، اتجهت نحو دكان أقمشة تعرفه جيدا على أطراف السوق وألقت التحية على صاحبه ذي الشعر الأشيب وهي تبتسم قائلة: «صباح الخير يا عم غانم» نهض الرجل يستقبلها بترحابٍ شديدٍ وسعالٍ أصبح لا يفارقه، «كيف حالك يا أم البنين؟» خاطبها عم غانم كما تعود منذ سنوات- وهو يهيءُ لها مقعدا بجواره أمام مدخل الدكان- فابتسمت وأجابته بالخير، قلبت في أثواب الأقمشة وهي تتذكر دكان أبيها الذي ظلت تباشره وقت سفره مع عليّ، لقد فعل أغلب العُيَّاق الشرفاء ما فعله أبوها؛ اتخذ كل منهم مهنة بخلاف الملاعيب كي لا

يحصلون منها على أي فائدةٍ سوى استرداد حقٍ مهدورٍ أو ردع ظلمٍ واقع، فالاحتيال في جوهره ليس فعلًا محببًا لأحدهم؛ لكنه أصبح وسيلة العايق الوحيدة للوصول إلى غايتهم النبيلة، ولقد أرسى ذلك العُرف المقدم حسن رأس الغول في المحروسة وصديقه المقدم أحمد الدنف في بغداد، وكان أبوها تلميذًا لكليهما وعلى ذلك عاش ومات هو وفضل وغيرهم الكثير؛ بخلاف بعض العيارين الذين استيسروا التكسب من الاحتيال فظلوا على سيرتهم الأولى مجرد أشقياء خارجين عن القانون، «هؤلاء هم الحجر الذي سيتعثر به عليّ وجُل ما أخشاه أن يغلبوه يا زهرة وينجحوا فيما لم يقدر عليه الكلبي أو دليلة» تذكرت كلمات فضل تلك وهي تقلب نظرها في أثواب القماش بحثًا عن شيءٍ يناسب ولديها، لقد امتلك فضل حكمة الشيوخ وهو في عمر الشباب؛ كما امتلك إخلاصًا لعليّ جعله مهمومًا لأجله وحاملًا لهمه، أما هي فلم تتوقع أبدًا في ذلك الحين أن تكون كلماته تلك نبوءةً تتحقق أمام عينيها يومًا بعد يوم، فبعد عودة أبيها وعليّ من رحلتهما الخطرة- حاملين صندوق التواجيه إلى الوالي- ظنَّت أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام؛ خاصةً وقد نفذ الوالي وعده وقام بتوقيع أمرٍ كتابيٍ بتعيين عليٍّ على رأس الشرطة بدلًا من الكلبي، كما استطاع الفوز بزواجه من زينب وعاد إلى المحروسة برفقتها ليجد أن زهرة وفضلًا قد سبقوه إلى عش الزوجية بدورهم، كانت أيام ظنت فيها زهرة أنه لا مكان للحزن بعد اليوم لكن دليلة ورجالها كانوا يخبئون لهم الكثير!..

«هل عمك غانم دون المقام يا ست زهرة؟!» جذبتها عبارة عم غانم لتلتفت نحوه في انزعاج هاتفةً: «معاذ الله يا عم غانم، لم تقول هذا الكلام؟!» أطرق عم غانم لحظةً وهي تتطلع نحوه عاقدةً الحاجبين تنتظر رده، «أعلم يا ابنتي ما مررت به مؤخرًا من ضائقةٍ ماليةٍ؛ وسعيت مرارًا للوقوف بجانبك لكنكِ

أبيتِ قبول معاونتي!» راقبته وهو يتمتم بتلك الكلمات في تأثر فربتت على كتفه دون أن يسعفها الرد، إن هؤلاء الطيبين- من أمثال عم غانم- ساندوها ووقفوا معها حين نزلت للسوق منذ سنوات لتكسب عيشها وعيش طفليّها رغم أنهم لم يعرفوا عنها يوما من تكون ولا هي ابنة من أو كانت زوجة من، بعدما باعت دكان أبيها ودار زوجها وانتقلت لحي أبسط من الذي كانت تعيش به من قبل، كانت في البداية تجلس لبيع بعض المناقيش والفطائر الشامية- التي ورثت طرق صنعها عن أمها- والتي أحبها العامة كثيرا، لكنها بمرور الوقت اكتشفت أنها لم تعد قادرة على رعاية طفليّها اللذين كانت تتركهما في عهدة الجيران أغلب الوقت، وهنا عرض عليها عم غانم أن تعد الفطائر وتعطيها له ليعرضها إلى جانب بضائعه وبهذا تستطيع الاهتمام بالولدين أكثر، وبالفعل سارت الأمور على هذا النحو لسنوات غير قليلةٍ إلى جوار عملها كماشطةٍ لنساء الحي الذي تقطن فيه؛ حتى كبر ولديها قليلًا وأصبحا هما من يوصلان الفطائر إلى دكان عم غانم، حتى بدأ الكساد يعم الأسواق خاصة مع رفع الجابي للضرائب ورفع تجار الجملة للأسعار بدورهم؛ واندهشت كيف يتمكن عم غانم من بيع فطائرها كل يومٍ عن آخرها دون أن يشكو، فنزلت ذات نهارٍ تسير خلف عمر الذي حمل الفطائر إليه ورأته وهو يسلمها له ويأخذ منه ثمنها ويمضي؛ لكنها ظلت على وقفتها تراقب ما يحدث لبعض الوقت، لاحظت في البداية اختفاء الطاولة التي كان يعرض عليها عم غانم فطائرها وظنت أنه غير مكانها أو شيئًا من هذا القبيل؛ لكن بمرور الوقت اكتشفت أنه يقوم بتوزيع الفطائر على الأطفال والمحتاجين دون مقابل، منذ ذلك اليوم اختفت عنه تمامًا كما سبق واختفت عمن عرفوها في السابق، شعرت زهرة في تلك الأيام أنه أصبح مقدرًا عليها الهروب من الناس على الدوام كي لا تحيا على إشفاقهم عليها، لكنها استطاعت سريعا أن تكسب سمعة طيبة كماشطة

ومدلكة ودلّالة إذا لزم الأمر،وبعدما كانت تقدم تلك الخدمة لجاراتها فقط؛ أصبحت تطلب منهن أن يرشحنها لنساء الأكابر والأعيان اللاتي كنّ يعملن لديهن، وبالفعل بعد فترة عُرفت أم عمر بين نساء الأكابر كماشطةٍ ماهرةٍ وأهل للثقة، لكن ما من حال يظل على دوامه كثيرًا؛ ففي الفترة الأخيرة قل طلب النساء لها فقل الرزق كثيرًا حتى أصبحت هي ترفض طلباتهن التي عادت من جديد لأنها لا تملك ما تشتري به لوازمها، والآن عليها إعادة بناء ما فقدته من جديد!..

«يا عرقسوس شفا وخمييييير» انتبهت من شرودها على صوت دقات زعتر بصاجاته النحاسية فهتفت في مرحٍ: «عم غانم، أريد كوبا من العرقسوس!» ونجحت بالفعل في رسم ابتسامةٍ على وجهه وهو ينهض مسرعًا نحو زعتر هاتفًا: «يا ولد يا زعتر؛ كوب هنا بسرعة لأم البنين» تناولت الكوب من زعتر الذي قال محييًا: «أنرتِ السوق كله يا أم عمر» ارتشفت بضع قطرات من العرقسوس البارد وقالت ضاحكة وهي تنهض لتقلب في أقمشته مرة أخرى: «هؤلاء البنين أصبحا يفوقاني طولًا» تمتم عم غانم وزعتر في صوتٍ واحدٍ: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» وبينما وقفت تنتقي أقمشة تصلح أثوابًا لولديها ولها؛ وقف زعتر بجوار دكان عم غانم وأخذ يدق بصاجاته هاتفا: «شفاااء يا عرقسوس.. شُرب الحساااان يا عرقسوس.. لأم البنيييين يا عرقسوس.. يااااا عرقسوس» ظل يردد هتافه وهو يمضي دون أن يأخذ ثمن العرقسوس إكرامًا لزهرة التي حملت قطع القماش في سعادة ونقدت عم غانم ثمنهم- بعد رفضٍ شديدٍ منه - ومضت!..

تنقلت بين دكاكين السوق دون أن تشتري شيئًا آخر تقريبًا؛ لكنها كانت مدفوعة بالحنين والرهبة تمامًا ككل مرة تطأ فيها قدماها جنباته، لقد عاشت

في المحروسة أكثر من نصف عمرها فأضحت مصرية أكثر من أهلها، هنا كان دكان أبيها الذي كانت ترافقه إليه أحيانًا لتتسلى برؤية الناس وسماع حكاياتهم، وهنا التقت بعيني فضل اللتين تركتا أثرًا في نفسها قبل حتى أن تشعر هي، وهنا كانت تقف- كما تفعل- الآن لتنتقي البخور والعطور وزيوت المسك والعنبر قبل أن يبني عليّ وكالته في الجهة المقابلة بعد اعتزاله لمقدمية الشرطة بكامل إرادته؛ ليكفي من حوله شرور رجال دليلة بعد أن دفع أقرب الناس إلى قلبه ثمنًا لتحديه لها!..

«يا إله العالمين، هل بين عيني الصبية وعيون المها نسب؟!» هتف بها حسن في أعقاب تلك الفتاة التي خرجت توًا من الوكالة وممن خلفها وصيفتها؛ فابتسمت زهرة وهي تراقبه من مكانها، سنوات عديدة مرت وهي تخفي نفسها عنه وعن أبيه بعد أن أخذت عهدًا على نفسها بذلك؛ لكنها كانت حريصةً على رؤيته- كما تفعل الآن- من بعيدٍ، فحسن له مكانة في قلبها لأنه أول طفل تربى بين يديها حتى قبل أن يرزقها الله بابنيها بسنوات، «لم يعد له سواكِ الآن يا زهرة، هو ولدك» تذكرت كلمات الخالة فاطمة التي كانت توصيها بها على حفيدها قبل مفارقتها للحياة بأيام، «حفظك الله من كل شرٍ يا ولدي» تمتمت بتلك الكلمات وهي تدقق النظر داخل الوكالة باحثةً بعينيها عن عليّ، في كل مرة كانت تحوم فيها حول الوكالة للاطمئنان على حسن وأبيه كانت ترى عليًّا كما هو لم تبدل فيه السنوات شيئًا؛ اللهم إلا بعض الشيب الذي تسلل إلى سالفيه ورأته في وضوح حين تفاجأت به سائرًا ذات مرةٍ في حواري السوق، دققت النظر أكثر فوجدته جالسًا يتحدث مع أحد عماله، «أمي! ماذا تفعلين هنا؟!» تفاجأت بصوت عامرٍ يسألها ذلك السؤال؛ فالتفتت تنظر نحوه هو وأخيه بينما وقفا أمامها مندهشين، لم تجبه وسألتهما هي: «أنتما أين

كنتما؟» قالتها وهي تفكر في كيفية الإفلات من ذلك الموقف قبل أن يحاول أحدهما أن يعرفها بحسن أو أبيه، «هل نسيتِ يا أمي؟! في الكُتّاب!» قالها عمر بينما كانت تنقد البائع ثمن ما انتقته من عطورٍ وبخورٍ على عجل؛ فأجابته وهي تهم بالانصراف: «آه؛ كدت أنسى، حسنًا؛ إلى عملكما إذن ولا تعطلاني أنا أيضًا» هز الفتيان رأسيهما بالإيجاب وأسرعا نحو الوكالة بينما مشت هي بضع خطواتٍ أوصلتها إلى زاوية الشارع لتستدير وتنظر نحو الوكالة، رأت عليًّا واقفًا بين ولديها وولده أمامها وهو يتحدث ناقلًا بصره بين ثلاثتهم؛ كأنه قائد جنودٍ يوزع الأدوار على جنوده في مهمةٍ جديدة، تأملته طويلًا ثم تمتمت وهي تتابع سيرها: «لم يحن الوقت بعد يا زيبق»..

الزبيق..

«عربة «الكارّو» تحمل عشرين جوالًا من القمح وقد وصَلَنا اليوم ثلاث عربات، كم يكون مخزوننا من القمح إذن يا سيد عامر؟!» سأله حسن وهو يسوي معه هو وعمر الأجولة في أحد أركان المخزن، «ستون جوالًا بالطبع!» هتف عامرٌ بينما ابتسم عمر وهز حسن رأسه في يأسٍ، «يالك من أهوج! لقد سألك عن المخزون يا فتى وليس عن حمولة الثلاث عربات فقط!» لم يشعر أحدهم بعليّ- الذي كان واقفا على باب المخزن يراقبهم-إلا حين نغز عامر بطرف دبوسه موبخًا، هرش عامر في رأسه مفكرًا وهو ينقل بصره بين عيون الثلاثة المبتسمة في صمت ثم هتف: «بالطبع ليسوا ستين جوالًا، المخزون هو ما كان متبقيًا في المخزن قبل ذلك مضافًا إليه حمولة العربات الثلاث الجديدة» ضحكوا جميعًا وتبعوا عليًا الذي خرج ليجلس على أريكته المجاورة لباب المخزن قائلًا:

- أنت فتىً ذكيٌ يا عامر لكنك متسرع، أكاد أجزم أن نصف عقلك الآن هناك في قلب سوق السلاح وسط العُيَّاق..

- وما العيب في ذلك يا سيدي؟! ألست أنت نفسك كبير العُيَّاق وقد شجعتني حين علمت بحبي لفنون العياقة!

- شجعتك نعم؛ لكن هذا لا يعني أن تهمل عملك وتشرد طوال الوقت عن ملاحظة أمرٍ يسيرٍ كمراجعة المخزون، ماذا تفعل أثناء الدرس في الكُتاب إذن؟!

صمت عامرٌ للحظة ثم انطلق نحو المخزن هاتفا: «يا الله! كدت أنسى...» وضاع باقي عبارته فلم يفهم أحدهم ما الذي كاد ينساه وإن فهموا أنه يهرب حرجًا، فسأل علي عمرًا:

- كيف هو في دروس الكُتاب يا عمر؟

- مثلما قلت سابقًا يا سيدي؛ هو ذكيٌ لكنه أهوجٌ بعض الشيء.

- وأنت؟

ابتسم عمر وقال: «الحمد لله» بينما دخل حسن إلى المخزن ليحضر عامرًا في يده وهو يقول: «كلاكما ذكي وماهر في التعلم بسرعة؛ فلم يفت أسبوع وأصبحتما ماهرين في تمييز أنواع العطارة والغلال وأثمانها، لكن المهارة وحدها لا تكفي؛ التركيز هو ما يجعل عملنا متقنًا بلا هفوات وهذا ما ينقصك بعض الشيء يا عامر» أومأ عامر برأسه متفهمًا وكذلك فعل عليّ متممًا: «هيا لأعمالكم يا شباب؛ لقد أوشك النهار على الانقضاء» وابتسم وهو يلمح بسمة عامر الشقية، فانقضاء النهار بالنسبة له يعني المتعة الخاصة..

تأملهم في صمتٍ - وكل منهم يعود إلى عمله- وابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا، لازال يذكر صوت جده نور الدين وهو ينهره صارخا في وجهه لكي يدعه لقراءاته وأبحاثه: «امضِ من هنا أيها الشقي!» وفي أحيانٍ كثيرة كان يصحب صراخه هذا بضرباتٍ من عصاه الخيزران؛ رغم أن عليًّا وقتها كان فتىً قارب العشرين لكنه كان شقيًا بالفعل، أما أمه فاطمة فكانت تقول دائمًا: «أنت لم تعد صبيًا غريرًا لتظل أهوجًا بهذه الطريقة يا عليّ؛ متى ستنضج يا بني؟!» ولم تعلم فاطمة أن تساؤلاتها تلك كانت كنبوءة أطلق بعدها سراح المارد الذي تكون بداخله دون أن يشعر، فصحيح أنها كانت تخفيه عن أعين الكلبي ورجاله- وتخفي عنه حقيقة نسبه لحسن رأس الغول- لكنها لم تستطع أبدًا منعه من ممارسة ملاعيبه ضد الكلبي؛ خاصّة أنها لم تعلم في البداية أن الزيبق الذي أصبح الحديث الشاغل للعامة والحرافيش هو نفسه ولدها عليّ، المدهش- حتى بالنسبة له هو- أنه بمرور الوقت أصبح أكثر تعقلًا ورويّةً وأقل رعونةً كلما انغمس أكثر في التخطيط لملاعيبه التي أراد بها النيل من الكلبي

ونجح في ذلك في النهاية!..

«كم أتمنى لو أصبح في مهارة الزيبق الذي يتحاكون عنه» ابتسم عليّ وهو يتأمل عامرًا الذي قالها وهو يكاد يقطع المسافة إلى سوق السلاح ركضًا، في كل ليلةٍ ومع الغروب يتحرك ركبٌ صغيرٌ مكونٌ من عمر وعامرٍ وحسنٍ وعليٍّ نحو الساحة ليشرف عليٌّ بنفسه على مران الفتيان، اكتشف خلال الفترة الماضية أن لدى عامر ملكات فطرية في سرعة الحركة والحيلة أحيانًا وإن كان غير صبورٍ؛ تمامًا مثلما كان هو في صباه، بينما كان عمر يشبه كثيرا صديقه وأستاذه عمر الخطاف في شدة تركيزه ودقة الملاحظة وإتقانه لما يفعل بمنتهى الصبر..

«لماذا أصبح السيد حسن يتخلف عن موعدنا يا سيد عليّ؟» سأله عمر- الذي توقف قليلًا أمام جلسته في ركن الساحة ليلتقط أنفاسه- بعد أن قطع دوران الساحة ركضًا للمرة الخامسة، ابتسم عليّ وأجابه: «لا أدري يا ولدي؛ أحواله هذه الأيام تبدو لي غريبة، ألم يخبرك أنت بشيءٍ؟!»هز عمر كتفيه دون كلماتٍ وظل واقفًا في مكانه يتطلع نحو شيءٍ ما في الركن المقابل لجلسة عليّ؛ فسأله باستغراب: «ما هذا يا سيد عليّ؟» التفت عليّ ينظر نحو إشارته ثم عاد ينظر في وجهه مجيبًا باختصار: «بعض من أدوات وثياب التنكر» رفع عمر حاجبيه في اندهاش؛ ليس لإجابة عليّ ولكن لعدم تخيله سببًا أن توضع أدوات التنكر في صندوقٍ مغلقٍ بقفلٍ صدئٍ ومفروشٍ ببعض الأغطية ليتحول إلى أريكةٍ مهملةٍ في مجلس الساحة، حاول أن يسأله مرة أخرى لكن عليًّا أسكته سائلًا: «أتدري لماذا رأيتُ أن تمرن جسدك بينما رأيت أن يبدأ عامر في المران على الأسلحة؟!» فكر عمر قليلا- وهو يراقب أخاه الذي يتدرب الآن بالقوس والنشاب- ثم قال: «أعتقد لأنه أمهر مني بدنيًا فكان يجب أن

أزيد من لياقتي؟!» هز عليّ رأسه في رضا ثم نادى على عامرٍ ليتقدم إليه، أتى الفتى فأشار لهما بالجلوس ولم يجد عمر بُدًا من الجلوس على صندوق التنكر كما أسماه في ذهنه، ظل عليّ للحظات يراقب الساحة التي بدأت تخلو من مرتاديها شيئًا فشيئًا وهو يرد عليهم تحاياهم قبل الذهاب، «العياقة في أصلها شرٌ؛ حيلٌ وألاعيب اخترعها الأقدمون لكسب الأموال بطرقٍ ملتويةٍ بعدما ضاقت بهم سبل العيش، وهي شرٌ لأنها توقع الأبرياء في شراكٍ لا يرونها؛ بينما من كانوا السبب فيما وصل إليه الناس من عوزٍ وفقرٍ يتنعمون في قصورهم التي بنوها من دماء المعدمين، لذلك أخذ رأس الغول ورفاقه أحمد الدنف وحسن شومان وعمر الخطاف على عاتقهم إرساء قواعد لفنون العياقة؛ قواعد تحقق لهم ولنا من بعدهم محاربة الظلم وفي نفس الوقت لا تحولنا إلى مجرد لصوصٍ خارجين على القانون» هتف عامرٌ:

- لكن هؤلاء كانوا أبطالًا!..

- لأنهم قرروا استخدام مهاراتهم في إنصاف العامة والمحتاجين ولم يتكسب أحدهم من الملاعيب أبدًا ولم يحتالوا على بريء ذات يومٍ..

سأله عمر في حيرةٍ: «وهل نصبوا أنفسهم قضاةً ليحاسبوا الناس ويحكموا بصلاح هذا وظلم ذاك؟!» تأمله عليّ بابتسامة خفيفة وأجابه: «لم يفعلوا ذلك، كانوا فقط ينتزعون الحق من ناهبيه ليعيدوه إلى أصحابه، لكنهم بالفعل خشوا أن تتمكن من نفوسهم سطوة النفوذ فيتحولوا هم للظلم الذي كانوا يحاربونه؛ لذلك أراد رأس الغول ورفاقه إرساء قواعد للعياقة لتحتفظ بسمو أهدافها بعيدًا عن المصالح الشخصية، وحافظ الزيبق ورفاقه من بعدهم على ذلك» ثم أشار لهما أن يتبعاه إلى خارج السوق ففعلا وعامر يسأل: «هل كنت تعرف الزيبق يا سيد عليّ؟!» فضحك عليّ ملء قلبه وسأله: «لم أنت

مهتم بسيرة الزيبق إلى هذه الدرجة؟! هناك العديد من العُيَّاق غيره ذوي البطولات والمواقف المُشرفة» تسمر عامرٌ في مكانه وأجابه مشيحًا بذراعيه في حماس: «هو من وقف في وجه الكلبي ودليلة وجنودهما بمفرده وهزمهم جميعًا، وكذلك اقتحم الجزيرة المسحورة وعاد بصندوق التواجيه بدون أن يصاب بسوءٍ، بل وأيضا تزوج الفتاة التي أحبها رغم أنها ابنة عدوته اللدود؛ وتلك كانت هزيمةً أخرى لها!» أطرق عليّ وهو يفكر أنه صحيح هزم دليلة ومن قبلها الكلبي ثم تزوج زينب ابنتها دون أن تتمكن من منعه- حتى مع لحاقها به في الجزيرة المسحورة لتوقع بينه وبين سلطانة الجزيرة وتنتهي من أمره- لكنها انتقمت منه وفطرت قلبه على أحبائه؛ حسن شومان وعمر الخطاف وفضل الرامي، «سيد عليّ، أأنت بخير؟!» وصله صوت عمر كأنه آتٍ من عمق بئر عميقة فالتفت نحوه ليكتشف أنه توقف عن السير واستند إلى الجدار في صمت مما أفزع الصبيين، تنفس ببطءٍ ليستعيد نفسه ثم قال: «يومًا ما سأقص عليكما ما آل إليه حال الزيبق في النهاية ولتقررا بعدها أتريدان الاستمرار مثله أم لا، الأهم الآن أن تفهما أن للعياقة التي نحلم بها ثلاث مستويات؛ مهارة العايق وحدها هي التي تحدد إلى أيٍ منها سينتمي» سأله عمر وهو يمسك بذراعه ليساعده: «وما هي تلك المستويات؟» أشار له عليّ أنه على ما يرام وتذكر قول عمر الخطاف له ذات نهار حين اصطحبه إلى منطقة الأهرامات «تلك المستويات كدرجات الهرم يا عليّ؛ قاعدته أساسٌ يجب توفره في كل عايقٍ وهو صحته البدنية ولياقته، فعلى أقل تقديرٍ يجب على العايق أن يكون سريع الحركة مرن القوام ليتمكن من أداء الحيل البدنية والفرار في التوقيت المناسب، أما الدرجة التالية فتتمثل في قدرته على الخداع والحيلة أو بمعنى آخر قدرته على إقناع من يريد بكل ما يريد من أكاذيب؛ وهنا ليس عليه الهروب دائمًا من مسرح أفعاله إذا تمكن من خداع

المحيطين به جيدًا، أما أعلى الدرجات التي لا يتقنها الكثيرون فهي استخدام أدوات التنكر لإتقان خدعتك؛ وتلك درجة لم يصلها الكثيرون ولكن إتقانها يجعلك تؤدي حيلًا أكثر خطورةٍ في مقابل مخاطرةٍ أقل، العلم بالشيء هو صمام الأمان دائمًا»..

«سيد عليّ، سيد عليّ» انتبه عليّ على صوت عامرٍ هذه المرة ليجد نفسه أمام داره دون أن يشعر، ابتسم في هدوءٍ وطمأن الصبيين قائلًا: «لقد شردت قليلا يا شباب؛ اعذراني، دعونا نتابع ما بدأناه في الغد واذهبا الآن إلى المنزل» حياه الصبيان وانطلقا يتسابقان إلى المنزل وابتسامة عليّ تلحقهما في حنان؛ لكن سرعان ما ضاقت عيناه محاولًا التحقق مما يرى أمامه، لقد لمح خيال واحدة من جواري خان داوود- القائم في الجهة المقابلة- تطل من إحدى مشربياته وهي تلوح لذلك الشاب الذي خرج توًا من بابه وعيناه معلقتين بها، ابتسم عليّ في مكرٍ وكاد أن ينصرف لكنه حين دقق النظر وتأكد أنه حسن ولده ؛كاد أن يقتحم الموقف لكنه خشي أن يفضحه هو دون قصدٍ فتراجع وفتح باب الدار لينتظره في الحديقة،جلس على المصطبة المجاورة للباب وشرد قليلا وهو يقارن ما رآه منذ دقائق بما كان يأتي به من أفعالٍ جنونيةٍ ليرى زينب ولو لدقائق وابتسم رغما عنه، فحياته قبل معرفته بها وبحقيقة نسبه لحسن رأس الغول كانت شيئًا وبعدها أصبحت شيئًا آخر، ما قبل زينب وما بعدها حياة لا يحياها؛ حياته الحقيقية هي تلك التي ولد فيها على يديها وعاشها معها ولها ثم رحلت فرحلت روحه معها، ما بقي منه الآن بقايا فارس هدَّه العجز!..

«لماذ تجلس هكذا يا أبي؟!» انتبه عليٌّ على صوت حسن الذي دلف توًا من الخارج ويبدو أنه رآه وهو يغلق باب الدار رغم ضعف أضواء المشاعل،

نهض عليٌّ وهو يلف ذراعه على كتف ابنه- ليضمه في قوة لم تفارق ساعده بعد- وقال: «رأيتك أثناء عودتي فانتظرتك هنا» والتفت ينظر لملامح الارتباك على وجهه وهو يكتم ضيقه سائلًا في نبرةٍ حاول أن يضفي عليها بعض الحزم: «هل أصبحت الآن من مرتادي الخانات يا أبو عليّ؟» لم يسعفه ذهنه بردٍ فطأطأ حسن رأسه في صمتٍ حرجٍ أنقذه منه باب الدار الذي فتح في بطءٍ، واستجابة للعينين المندهشتين أسرع عليّ يقول: «هذا نحن يا أم حسن؛ لا تخافي» تطلعت أم حسن نحوهما في شكٍ وعادت تسأل: «فيمَ وقوفكما بالخارج إذن؟!» ابتسم عليّ وسبقهما إلى داخل الدار هاتفًا: «ها هو ذا ابنك بين يديك يا درة،كنت أحدثه قليلًا يا أمّه ليس إلا» أمسكت درة بذراع ولدها وقالت وهي تربت على كتفه: «ألا يكفيك النهار بطوله وهو بصحبتك فتريد أن تشاركني فيه عند عودته في المساء؟!» التفت عليّ يتطلع نحوها هي وولده وابتسم مشيرًا لهما بالاقتراب ليضمهما إلى صدره هامسا: «لا حرمني الله منكما ولا حرمنا منكِ يا درة الدار» وقبلها على جبينها وانسحب نحو الغرفة الإضافية بدلًا من أن يدخل غرفته ليستريح قليلًا ريثما تحضر هي العشاء ككل يومٍ، فالتفتت نحو حسن- الذي اتكأ على الأريكة شاردًا في ابتسامٍ- وسألته: «ما باله اليوم؟!»ولما لم يجبها كررت سؤالها بانفعالٍ فانتفض قائلًا:

- ما باله يا أمي؟! ألا ترينه يضحك؟!..

- ولكن به خطبٌ ما!..

وصل صوتها إلى عليٍّ رغم خفوته فابتسم وهو يتجه نحو النافذة ليفتحها ويجلس على الأريكة المجاورة لها؛ مديرًا نظراته في أرجاء غرفته القديمة، ذلك فراشه الذي ضم أحلامه بأن يصبح فارسًا ماهرًا في النزال بالسيف مثل البطل حسن رأس الغول الذي قتل على يد رجال الكلبي ودليلة،

وذلك الصندوق الذي كان يحتوي- إلى جانب ملابسه- على بعض الأصباغ والمواد التي كانت تساعده في بعض حيل التنكر البدائي؛ فيستيقظ كل يوم بوجهٍ غير وجهه مستمتعًا بنظرات الانبهار في عيني أمه وجده الممزوجة بنظرات خوفٍ لم يفهمه في حينها، وتلك الأريكة التي كانت تعانق السماء المطلة من نافذته حاملةً وجه زينب على صفحة البدر في ليالي اكتماله؛ وإذا ما غاب رسمت له نظراتها بأنجمها اللامعة، وخنجر أبيه الذي سلمته له أمه حين علم بنسبه لحسن رأس الغول فأصر أن يعلقه فوق الجدار ليرفع رأسه كلما تطلع إليه..

في ذلك اليوم خرج هو وخاله شمس قاصدين بيت المال مع بعض رجاله الذين انضموا له سرًا حين شعروا بقوته في هزيمة الكلبي أكثر من مرة؛ فتشجعوا وأرادوا مشاركته، حتى تلك الليلة كان يفعل ما يفعل دون أن تعلم أمه أي تفاصيل عما يرتب له ويفعله- فيكفيه ما أصبحت تعيشه من قلق منذ أن علمت أنه الزيبق- لكنها سمعته وهو يخبر خاله- الذي حضر خصيصًا ليردعه عن أفعاله المتهورة كما تقول- أنه سيعاود سرقة بيت المال كرهانٍ أخير مع الكلبي، فبعدما أشبعه الزيبق بملاعيب أحرجته كثيرًا أمام الوالي والأكابر؛ قرر الكلبي الاستعانة بالمقدم دليلة رئيس شرطة بغداد لمساعدته لما عرف عنها من دهاءٍ ومكرٍ، وبالفعل عاونته في كشف شخصية الزيبق ليعلم الجميع أنه ليس إلا عليًا العطار، فما كان من الوالي ساعتها إلا التدخل للتحكيم بين الاثنين- اللذين أصبحا متعادلين في الخصومة- وحكم برهانٍ أخيرٍ يفصل بينهما، كان الاجتماع في ديوان الوالي بين الكلبي ودليلة من جهةٍ وعليّ بمفرده من جهةٍ أخرى، ساد الصمت للحظاتٍ بعد قرار الوالي وكل منهم يفكر في الرهان المناسب حتى قالت دليلة في هدوءٍ باردٍ: «أنا أتحدى

الزيبق يا سيدي أن يتمكن من سرقة بيت المال مرة أخرى دون أن نوقع به» ابتسم عليٌّ وهو يحمل كل دهشة الدنيا بداخله عن كون هذه الأفعى أم تلك الرقيقة زينب؛ التي أغرم بها منذ أن صادفها في السوق وهو متنكرٌ وكشف لها عن شخصه قبل أن يعرفه الجميع، وقبل أن تأخذه أفكاره بعيدًا أجاب على اقتراحها قائلًا: «وأنا قبلت التحدي، لكن على ماذا سيكون الرهان يا سيدي؟» والتفت يسأل الوالي مباشرة متجاهلًا الكلبي ودليلة، فكر الوالي قليلًا وقال: «لو هُزمت ستشنق» لم تختفِ ابتسامة عليّ رغم خفقان قلبه بشدة بينما علت البسمات وجهي الكلبي ودليلة في ثقة، وأكمل الوالي: «ولو هزمت أنت الكلبي ودليلة ورجالهما سأعينك مقدمًا للدرك بدلًا منه» وران الصمت على ديوان الوالي تماما!..

وبينما تحمس خاله لما يقول وهتف: «هذا رائعٌ يا ولد، رائع!» أخذت فاطمة تدور حول نفسها وهي تتمتم في انفعالٍ وخوفٍ: «ما الرائع في الأمر يا شمس؟! أتشجعه عوضًا عن ردعه؟! لقد فقد كلاكما عقله» وخرجت من الغرفة باكيةً، خرج عليّ خلفها ليراضيها ولم يتركها إلا بعدما نامت؛ أو هكذا ظن، لكن المدهش أنه حين عاد إلى غرفته وجد خاله لازال مستيقظًا وعلى وجهه ابتسامة استقبله بها وهو يشير إليه بالاقتراب، ففعل وهو يسأله في ترقب: «ما بك يا خالي؟» فربت على كتفه ونظر إليه طويلًا قبل أن يقول: «سآتي معك في الغد» ودون أن يترك له فرصة الرد استدار موليًا له ظهره ونام متجاهلًا نداءاته الكثيرة عليه، وفي طريقهما للتنفيذ في الليلة التالية سأله عليّ: «لم تساعدني يا خالي وقد كنت تخشى ما أقوم به تمامًا كأمي؟!»توقف خاله عن السير وابتسم ثم أجابه قائلا: «بخلاف أنه أمر رائع أن يكون ابن أختي مقدمًا للدرك فقد شعرت بالخجل منك يا عليّ، لقد فعلت

ما عجز الجميع عن فعله ربما خوفًا أو ضعفًا أو تخاذلًا؛ لكني لست جبانًا ولا ضعيفًا ولا متخاذلًا فلمَ أعارضك؟! كل أب يتمنى أن يفخر به ولده؛ وأنا لا ولد لي سواك أنت، أريد أن تفخر بخالك يا ولدا» وذهبا..

مرت السويعات التالية لحديث شمس على خلاف ما توقع الجميع، ففي الصباح استيقظ أهالي المحروسة على صوت المُنادي يدق على طبلته وهو يهتف: «يا أهالي القاهرة.. يعلن رئيس شرطتنا الهمام صلاح الكلبي.. أنه تم بعون الله ورعاية والينا المعظم الإيقاع باللص المارق الملقب بعليّ الزيبق وقتله شر قتلة.. يا أهالي القاهرة...»أخذ المُنادي يكرر نداءه بغصة ٍكادت تخرس لسانه من فرط الأسى الذي يشعره، كان الزيبق حلمًا تمناه الكثيرون لكن الخوف ألجمهم حتى عن إعلان ذلك، أخذ المُنادي يدور بجوار قصور الوالي والكلبي وديوان شرطته وهو يشعر بنظراتهم المتشفية سهامًا تمزق أمله الوليد؛ ومثله في ذلك الكثير من العامة والحرافيش الذين قرأ في وجوههم مشاعر صدمةٍ وخيبةٍ وحزنٍ كثيرا..

«سيدتي فاطمة؛ افتحي الباب يا سيدتي، لا حول ولا قوة إلا بالله» وقفت بركة الخادمة تطرق الباب وتنادي على سيدتها وهي تشعر بالقلق عليها بعدما سمعت المُنادي يعلن مقتل سيدها عليّ، لحظات وفتح لها السيد شمس؛ والذي أسرع بالخروج قبل أن تعزيه قائلًا:»سأذهب لإحضار المغسل واهتمي أنتِ بما قد نحتاجه لاستقبال المعزين في المساء، والأهم أن تنتبهي لسيدتك يا بركة« هزت رأسها بالموافقة ودخلت تبحث عن فاطمة حتى وجدتها في غرفة عليّ؛ تجلس بجوار جثمانه وهي تقرأ في المصحف ودموعها الجافة رسمت وجنتيها بخطوط الحزن، «سيدتي» همست بركة وهي تبكي فنظرت فاطمة نحوها في ضعفٍ ثم أغمضت عينيها وأراحت رأسها على الجدار، ظلت بركة

تتطلع إليها في عجز قبل أن تقرر الذهاب لترتيب الدار وتركها مع عليٍّ للمرة الأخيرة!.

بعد نحو الساعة أتى شمسٌ ومعه المغسل؛ فوجد الدار وقد امتلأت بالنسوة اللاتي هرعن إلى فاطمة فور سماعهن ذلك الخبر الأسود؛ بينما امتلأت الحديقة بالعديد من رجال الحي وتجار السوق الذين جاؤوا للخروج خلف جنازة الزيبق، المدهش في الأمر أنهم فوجئوا جميعًا بحضور الكلبي- محتميًا بمجموعةٍ من الحراس الأشداء- بزعم أنه جاء لحضور جنازة خصمه الشريف عليّ الزيبق، تبادلوا النظرات في وجوم دون أن يقوى أحدهم على النطق؛ بينما حمل الفضول النساء اللاتي جلسن بالداخل إلى التعلق بالنوافذ المطلة على حديقة الدار ليراقبن ما يحدث، «اخرج من بيتي أيها القاتل» هتفت بها فاطمة وهي تخرج من الداخل شاهرةً سيفها في وجه الكلبي؛ بينما ران صمت حذر على كل الحضور، التمع نصل السيف تحت أشعة الشمس فأغشى بصر الكلبي للحظة؛ لكنه مع ذلك استمر في أداء دوره للنهاية وهو يسألها متصنعًا الصدمة:

- أهكذا تستقبلين معزينك يا أم عليّ؟!

- قلت لك اخرج من بيتي أنت ورجالك يا كلبي..

وتقدمت نحوه بسن السيف حتى كادت تطال عنقه؛ فتراجع إلى الخلف وهو يهتف: «ناقصات عقل ودين حقًا» تقدم منه شمسٌ وهو يشير نحو باب الدار قائلًا: «لقد سمعت ماذا قالت صاحبة الدار يا مقدم» تطلع إليه الكلبي في غيظٍ وهو يقول: « أنا هنا بتكليفٍ من الوالي ونائبًا عنه، في النهاية ما بيننا أنا وولدكم كان رهانًا شريفًا» وخرج ومن خلفه رجاله؛ في تلك الأثناء كان المغسل قد أتم مهمته وهيأ الجثمان لرحلته الأخيرة، تجمع المعزون جميعًا

خلف النعش وساروا به نحو قبره يتقدمهم خاله شمس وتتأخر عنهم فاطمة المكلومة التي ظلت قابضةً على سيفها في غضبٍ حزينٍ!..

«الطعام جاهز يا أبا حسن» تسلل صوت درة إليه مع طرقاتها الخفيفة على الباب فدعاها إلى الدخول وهو يحول عينيه عن الخنجر ليستقبلها بابتسامةٍ كعادته، دخلت وهي ترمق الفراش بشكل عدائيٍ تبدد في لحظةٍ حين وجدته مرتبًا كما كان، ضحك عليٌّ وهو ينهض ليربت على رأسها في حنانٍ هامسًا: «ألازلتِ تغارين أيتها المجنونة؟!» وسبقها إلى خارج الغرفة وهو مستمر في الضحك بينما همست هي لنفسها وهي تغلق باب الغرفة خلفها: «فليكن؛ أنا مجنونة يا سيد عليّ» انضمت له هو وولدها أمام طاولة الطعام ولاحظت أن حسن لازال شاردًا يتناول لقيماتٍ قليلةً كأنه يتذوق الطعام لا يأكله، أما عليٌّ فقد أخفى فضوله في سؤاله له قائلًا: «لمَ لمْ تأتِ اليوم إلى الساحة يا حسن؟!»انتبه حسن من شروده؛ ليس على سؤال أبيه ولكن على تلك العاصفة التي أطلقتها درة في تذمرٍ: «أمرٌ جيدٌ أن تذكر أمر الساحة يا سيد عليّ، ألم تعدني ألا ترتادها كثيرا يا حسن؟!» وتحولت بنظراتها نحو عليٍّ الذي هدأها ببعض الكلمات وهو ينهض مكتفيًا من طعامه، صمتت درة للحظة ثم التفتت تتأمل حسنًا الذي نفض يديه من الطعام تمامًا، «هل أنت بخيرٍ يا ولدي؟!» سألته في قلق فأجابها: «نعم يا أمي لا تقلقي» وربت على كتفها فسألته مرة أخرى:

- هل عدت مرة أخرى للملاعيب يا حسن؟! هل خلفت وعدك لي يا بني؟!

-لا يا أمي لا، أنت تعلمين أن العياقة بالنسبة لي مهارةٌ تستهويني وليست مهنة..

-لم تكن كذلك يا حسن وأنت تفهم مقصدي..

قالتها درة في صوتٍ غاضبٍ- وصل إلى عليّ وهو جالسٌ في الحديقة- ونهضت تلملم أطباق العشاء التي لم يمسها أحدٌ تقريبًا؛ بينما لحق بها حسن ليعترض طريقها مبتسمًا وهو يقول: «يا دُرتي، مالنا الآن وأفعال الصبية، لقد كبرت يا أمي» رفعت عينيها نحوه وهي ممتلئةٌ بالدموع وقالت: «ليست أفعال صبية يا حسن؛ أنت سر أبيك ويثيرك ما يعانيه الناس من ظلمٍ تمامًا كما كان هو، أعترف أنكما على حق وأن ما كنت تفعله في صباك- ولازلت تفعل مثله أحيانا كما فعلت مع التاجر مسعود منذ أسابيع-أيضًا كان حقًا؛ ولكني لا أريدك أن تتحول إلى زيبق آخر، إني أحمد الله في كل صلاةٍ أن حفظ لي أباك فلا تورثني أنت معاناةً لا طاقة لي بها!»وصل حديثهما إلى عليٍّ الذي عاد إلى غرفته القديمة وجلس من جديدٍ على الأريكة المجاورة للنافذة، بعد لحظاتٍ وصله صوت ضحكاتهما فاطمئن إلى أن حسن لحق بأمه وراضاها..

تفاصيل ذلك اليوم المشئوم ستظل معلقةً فوق رأس عليّ كناقوس يدق كل ثانيةٍ ليذكره من يكون وماذا عليه أن يفعل ليستحق أن يكون ابن أبيه، تأكد عليٌّ في تلك الليلة أن رجاله قد خدروا الحراس في تلك الجهة من بيت المال قبل أن يعلق سلم الحبال في نافذة الخزانة، سبقه خاله متحمسًا وتبعه هو؛ لكن قبل أن يصل إلى آخر درجات السلم سمع صرخته المكتومة فنزل وراءه مسرعا ليكتشف الفخ، برميلٌ من القطران ابتلع جسد خاله المسكين وكان هو المقصود به، اطمئن إلى أن أحدًا من الحراس لم ينتبه إلى ما جرى فحمل جثته ومعها بعض أكياس النقود والتفت عائدًا للنافذة، كان رجاله ينتظرون خروجه هو وخاله متتابعين لكنهم فوجئوا به يظهر على حافة النافذة حاملًا خاله؛ فاقترب أحدهم ليحمله عنه حين يصل إلى نهاية السلم وفهموا ما حدث بنظرة واحدة!..

«لم تأخرتما للآن، كدت أموت قلقًا؟!» ارتعش جسده وهو يفتح باب الدار بحذر ليستقبله صوت فاطمة الهامس ويكتشف أنها تجلس على المصطبة الحجرية بجوار الباب، نكس رأسه دون ردٍ واستدار يفتح الباب على مصراعيه أمام عربة «الكارو» التي دخلت في سكون يقودها أحد رجاله ومحملة بشيءٍ لم تستطع تبينه مع تعمدها ترك مصابيح الحديقة مطفأة لتأمين عليٍّ وشمسٍ عند عودتهما، أسرع عليٌّ يغلق الباب بعد أن تأكد أن أحدًا لم يتبعهما بينما اقتربت فاطمة من العربة في حذرٍ تسأله: «أين خالك يا عليّ؟» أمسك بلجام الحصان- الذي كان ساكنًا بدوره كأنه يشعر بمصابهم- وسحب العربة إلى قلب الحديقة ثم حمل الجوال الضخم ودخل به إلى الدار، ودون حرفٍ واحدٍ أخذ رجله العربة وذهب كما أتى!..

«ما هذا الذي تحمله يا عليّ؟! وأين خالك؟!» سألته فاطمة في دهشةٍ حين اتجه إلى غرفته بحمله ثم أسجاه برفق على فراشه؛ قبل أن يلتفت وينظر إليها بعينين ملؤهما الدموع وهمس: «البقاء لله يا أمي!» وحل الحبل المعقود حول فتحة الجوال وابتعد نحو النافذة يبكي في صمت، اقتربت من الفراش في بطء متوجس وهي تتمتم: «شمس! أمعقول؟!» وحين مدت يدها تكشف ما في الجوال شهقت فزعًا وارتدت نحو الحائط في صدمةٍ وهي تصرخ: «لا.. لا.. لا» وانهارت على طرف الفراش تبكي؛ بينما اندفع عليٌّ ليلقي نفسه أسفل قدميها ليبكي في حجرها قائلًا: «أراد أن يسبقني ففداني ووقع في الفخ الذي نصبوه لي، أنا تسببت في مقتله يا أمي، ما كان يجب أن أوافق على أن يصحبني» كانت تبكي وتربت على رأسه لتهدئه في الوقت نفسه، لم تخرج منها أي كلمةٍ؛ فقط آهاتٍ أليمة وهي تغطي وجه أخيها المشوه كما كان، «في الغد سيعلنون أنهم قتلوا الزيبق بعد أن يجدوا عمامة خالي بالقرب من

برميل القطران، لقد تعمدت تركها ليظنوا ذلك» هزت رأسها دون أن تنطق ثم نظرت نحوه في حزم؛ أرادت أن تقول شيئا فلم تستطع، حاولت مرة ومرة ومرات لكن لسانها انعقد واتسعت عينا عليٍّ في هلعٍ وهو يهتف: «أمي! ما بكِ؟! تحدثي إليّ!» ظلت نظراتها على نفس الحزم كما لو كانت لا تهتم بضياع صوتها ونهضت تلقي نظرةً طويلة على جسد أخيها ثم أمسكت بيد عليّ ومشت به إلى غرفتها وهو لازال يحاول استنطاقها، تركت يده واتجهت نحو صندوق ملابسها تبحث بداخله قليلا ثم أخرجت منه شيئا ملفوفًا في قطعةٍ من الحرير الأسود، نظرت إليه فاقترب منها وهو ينقل بصره بينها وبين ما تحمل وسألها في فضول: «ما هذا؟!» مدت له يدها بما تحمل واتجهت لتجلس على طرف الفراش ودموعها تتساقط رغم نظراتها القوية، أسرع عليّ يترك ما بيده ليضمها إلى صدره مهدئًا: «هوني عليكِ يا أمي؛ إنها إرادة الله» فرفعت رأسها عن صدره وهي تجذب الشيء الملفوف في الحرير الأسود-الذي كان يبدو كشيءٍ معدني- لتضعه بين يديه من جديد وهي تشير له بفض الحرير عنه ففعل بينما كانت هي تتطلع إليه في ترقبٍ، «إنه خنجرٌ من الفضة! لمن هذا الخنجر يا أمي؟!» سألها عليٌّ في دهشةٍ وذهنه مشوشٌ تمامًا؛ لا يدرك ما العلاقة بين ذلك الخنجر وبين مقتل خاله شمس اليوم، أمسكت الخنجر وأخرجته من جرابه المرصع بالزمرد ورفعته أمام عينيه ليلمح نقشًا صغيرًا على حافة نصله؛ حين دقق فيه وجد أنها كلمات تقول: «المقدم حسن بن عبد الله المصري المُكنى بحسن رأس الغول» ظل لثوانٍ يتأمل الخنجر في صدمةً قبل أن يسألها: «خنجر المقدم حسن رأس الغول! من أين لكِ بخنجره يا أمي؟!» تطلعت نحوه ودموعها تزداد رغمًا عنها فركع أسفل قدميها مهدئًا، ضمته إلى صدرها وهي تشهق ألمًا من بين دموعها حتى استطاعت أخيرًا أن تهمس في بطءٍ: «الثأر يا عليّ» وتحول بكاؤها إلى عويلٍ حمل من آهاتها الكثير؛

بينما تساقطت دموع عليٍّ وهو يتمسك بيديها هامسًا في حزم: «لن أترك ثأر خالي يا أمي، هذا وعدٌ» نهضت تترنح حول نفسها وهي تقول: «وقبل ثأر خالك ثأر أبيك أيضا» والتفتت إليه متابعةً: «قاتلهما واحدٌ يا عليّ، قاتلهما.. واحد» اندفع ليلحق بها قبل أن تسقط في إغماءتها وحمل جسدها المرتخي ليوسده الفراش بلا وعيٍ أو فهمٍ، دار بعينه فيما حوله ثم نهض يتناول كوب الماء المجاور لفراشها ليسقيها بعضًا منه وهو يفكر؛ هل قُتل أباه أيضًا على يد رجال الكلبي؟! هل كان من رجال رأس الغول مثلًا ولذلك وصل خنجره إلى بيتهم؟!..

«أنت ابنه يا عليّ، ابن رأس الغول» تمتمت أمه وهي تسترد وعيها تدريجيًا، ابن رأس الغول! ابن الرجل الذي عاش طوال حياته يراه أسطورةً في الشجاعة والنُبل والفداء؟! «لم أخفيتِ عني إذن؟!» صرخ عليّ وهو يدور حول نفسه في ثورةٍ حزينةٍ ثم تابع:

- ألم تتذكري ثأره إلا الآن حين قتلوا أخاكِ؟! أنا ابن الرجل الذي كان أول من يتصدى لهم وغدروه ولا تخبريني؟!..

- خفت عليك منهم..

- ومن لثأر أبي سواي يا أمي؟!..

بعد أن صرخ عليّ بتلك الكلمات سقط بين ذراعي أمه وأخفى وجهه في صدرها، لم يدرِ كم مر من الوقت حين رفع رأسه وقد جفت دموعه تمامًا، تأمل عيني أمه التي كانت يقظةً رغم اقتراب بزوغ الفجر، قبل رأسها ونهض إلى غرفته فلحقت به لتراه يقف خاشعًا أمام جسد خاله وكلماته الأخيرة تتردد في رأسه بلا توقف، شعر بكف أمه الذي مس كتفه وسمع نحيبها المكتوم فالتف نحوها دون أن يقوى على النظر في عينيها وقال: «قال لي:

أريد أن تفخر بخالك يا ولد!» ورفع عينيه المملوءة بالعبرات نحوها وأكمل: «كان شجاعًا وأنا فخورٌ به حقًا كما أنا فخور بحسن رأس الغول من قبل حتى أن أعرف أنه أبي؛ والكلبي حرمني من كليهما يا أمي» شعرت فاطمة بالخوف مع كلماته تلك رغم طلبها للثأر منذ لحظات؛ وهو لم يمهلها لحظة للتفكير في صواب طلبها أو خطئه، تحرك نحو صندوق أدواته قائلًا: «يجب أن أتحرك الآن لأتمكن من إحضار المغسل في الصباح»تأملته للحظةٍ ثم انسحبت من أمامه وذهبت لإحضار مصحفٍ من غرفة والدها وعادت لتجلس بجوار أخيها بعد أن خلعت عنه الجوال وسترت جسده بالأغطية، ألقت نظرةً نحو عليّ- الذي انشغل عنها وهو يخلط بعض المواد أمامه متطلعًا إلى ملامحه في المرآة بتركيزٍ شديدٍ أخفى كل ما يتنازعه من مشاعر، التقت عيناها بعينيه في المرآة للحظةٍ ثم تحولت بكل تركيزها إلى آيات الذكر الحكيم؛ تقرؤها فتبكي وتستكملها مما حفظته ذاكرتها حين تغشي الدموع عينيها!..

أعيدت كل أحداث الليلة الماضية في ذهن عليٍّ عشرات المرات طوال الطريق إلى المقابر لدفن خاله الذي حمل هو وجهه الآن دون أن يتمكن أحدٌ من كشفه، كذلك لم يكتشف المغسل أن من قام بتغسيله شخصٌ غير عليّ الزيبق بسبب تشوه ملامح الوجه تمامًا؛ وهذا ما اعتمد عليه في خطته، كان عليّ في حاجة إلى بعض الوقت حتى يستوعب كل ما جرى في تلك الليلة ليرتب أفكاره ويستقر على ما ينوي فعله؛ بعدما علم أنه ابن رأس الغول الذي مات مسمومًا بتدبيرٍ من دليلة، لقد لاعب الكلبي ورجاله لمواجهة بطشه ولاسترداد حقوق البسطاء دون أن يعلم أنّ له ثأرًا لديه؛ أما الآن فلن يكتفي بإعلان فوزه بالرهان المزعوم ولن يكتفي بكرسي المقدمية..

سار عليٌّ بين المعزين حتى عادوا إلى الدار وساعد أمه حتى جلست بين

النسوة بالداخل، وقبل أن يخرج للرجال في الحديقة تمسكت بيديه وبكت في شدةٍ دون أن تنطق بحرفٍ؛ فقبل رأسها وقال بصوت شمسٍ: «اطلبي له الرحمة» وانسحب للخارج في سرعةٍ ليقف بالقرب من باب الدار المفتوح على مصراعيه لتلقي العزاء دون أن يدرك أحدًا أنه عزاء شمسٍ الذي عاش طوال عمره غريبًا خارج البلاد متنقلًا من ولايةٍ لأخرى خلف تجارته؛ حتى جاء منذ عدة أسابيع لزيارة أخته وشاء الله أن يتوفاه فلا يموت في أرضٍ غريبةٍ ويدفن بجوار أبيه القاضي نور الدين وابن خاله المقدم رأس الغول، «المقدم رأس الغول» لازال عليٌّ يفكر فيه باعتباره البطل الذي يحتذى به في رفض الظلم والتصدي له ولم يستوعب بعد أن ذلك العظيم كان أباه، كان قلبه يشتعل كلما توقف ذهنه عند كلمات أمه له بالأمس: «أنت ابنه يا عليّ، ابن رأس الغول» لكنه كان يدرك أن عليه التفكير برويّة ليقتص من الكلبي ودليلة، وهذا ما يحيره إلى حد الجنون؛ كيف سيتمكن من ذلك وزينب -التي سلبته فؤاده وغرق في عشقها تمامًا- ابنتها؟! كيف سيفعل هذا بحبيبته؟!لا يمكنه حتى التمسك بها وهي ابنة قاتلة أبيه حتى ولو لم يكن لها ذنبٌ في جرائم أمها- التي اتخذت من العياقة سبيلًا لتحقيق أطماعها، والأهم من ذلك كله؛ كيف سيفعل هذا بفاطمة؟!..

«عليّ!» التفت يتطلع نحو درة التي همست باسمه وهي تربت على كتفه في حنان ممزوج بالقلق والشجن؛ وفي عينيها شيءٌ مختلفٌ عن غيرتها المعتادة حين تشعر بطيف زينب يزور مخيلته، أمسك بيديها وأجلسها بجواره وهو يحاول الابتسام قائلًا: «ما بكِ يا درتي؟!» تطلعت إليه مليًا وهي تقبض أكثر على كفيه ثم أبعدت نظراتها عن عينيه وقالت: «في لحظاتٍ كهذه؛ حين تسجن نفسك بين جدران الذكرى يصبح جليًا لي أنك لم تحبني أبدًا قدر

حبي لك ولم تحب في حياتك سوى زينب ولم تتمنَ امرأةً كما تمنيتها، لكن عزائي الوحيد أنها مجرد لحظات في عمرٍ عشته معك هانئةً؛ ولا يمكنني نكران ذلك» ثم نهضت تدور في الغرفة متابعةً: «لكن الذي يؤرقني حقًا أمر حسن» تنفس ببطءٍ في محاولة لترك ذكرياته جانبًا الآن والتركيز فيما تقول درة؛ ثم سألها: «ما باله حسن؟» انفعلت تجيبه- وكأنها تنتظر مثل سؤاله هذا: «لا أريده أن يصبح عيارًا يا عليّ، صحيح أنني لست أمه التي أنجبته ولكني أنا التي ربيته وأخشى عليه مثلك وأكثر وأعرف مصلحته مثلك وأكثر» ابتسم وهو يحيط كتفيها مهدئًا وقال: «ومن قال غير ذلك يا أم الولد؟! أنا حتى الآن لا أفهم سببًا لكل هذا القلق! ما الذي جَدَّ علينا؟! لقد وعدتك منذ كان حسن طفلًا أنني لن أدعه للعياقة ترسم شكل حياته؛ ووفيت بوعدي وحجمته كثيرا عما كنت أنا نفسي أفضله في مثل عمره، لكني لا أستطيع منعه من اكتساب بعض مهاراتها ولا يمكنني منعه من مساعدة البسطاء قدر المستطاع» لاحظ الدموع تملأ عينيها وهي تبتعد عنه متمتمةً في خفوتٍ: «صحيح أننا عيارون وأبناء عيارين يا عليّ لكن ما نالنا من الملاعيب سوى خسارة الأحباء: أبيك رأس الغول وأبي شومان وأصدقائنا عمر وفضل؛ وحتى زينب كانت ضحية للعياقة وتبعاتها بصورةٍ أو بأخرى!» قالتها وتركت جسدها يسقط فوق الأريكة بلا مقاومة وجلس هو بجاورها صامتًا يتطلع إليها في قلقٍ حتى قالت: «أعرف أنك حفظت وعدك لي طوال تلك السنوات وفي الحقيقة لا أدري سببًا لقلقي هذا!» ثم بكت بشكل مفاجئ فضمها عليٌّ إلى صدره محاولًا تهدئتها رغم أنها نقلت قلقها إليه؛ فقلب الأم نادرًا ما يخطئ!..

وكان هذا أيضًا هو التفسير الوحيد لما فعلته أمه في عزاء خاله شمس حين فوجئت بزينب المتشحة بالسواد تقف أمامها لتعزيها، كان قد لمحها

تدخل من باب الدار منذ لحظةٍ وهي تسير بلا وعي وتستند على ذراع وصيفتها، قلبه تحرك خلفها وظلت عيناه معلقةً بخطواتها حتى استقرت أمام مجلس أمه الذي يراه عبر النافذة، بدا له مما رأى أن الوصيفة قد عرفت سيدتها لأمه حين تبدلت ملامحها من الحزن إلى الغضب، لكن سرعان ما تحول للهفة أمٍ انخلع قلبها حين رأت زينب تترنح كالسكارى وتسقط بين ذراعيها بلا حراكٍ، اندفع عليّ لحظتها إلى الداخل ليحملها عن أمه واتجه بها نحو غرفته ليوسدها فراشه، كان يجاهد لكي لا يكشف نفسه أمام ذلك الجمع من المعزين بينما قلبه يتمزق على ما وصل إليه حالها حزنًا عليه!..

«عليّ، أين أنت يا عليّ؟! لماذا تركتني؟!» أخذت زينب تتمتم من وسط غيبوبتها بتلك الكلمات وعليّ واقفًا على رأس الفراش في قهرٍ دون أن ينبس بكلمة، في تلك اللحظة أتت أمه ومعها زجاجة نشادر صغيرة وجلست برفقٍ بجوار زينب تحاول إفاقتها، دقائق واستفاقت بالفعل وإن ظل الوهن باديًا عليها، فتحت عينيها لتقابلها عينا فاطمة الملهوفتان فبكت وارتمت في صدرها تهمس في ضعفٍ: «آهٍ يا أماه، ليتك كنتِ أنت أمي عوضا عن قاتلة حبيبي، أمي وكلابها قتلوه، آه» لم تستطع فاطمة كتمان دموعها وهي تحتضن زينب بكل قوتها وتقول: «اهدئي يا ابنتي، أنتِ أيضا ابنتي يا زينب...»وصمتت فجأةً ثم صرخت: «أدركوني، لقد فقدت وعيها مرة أخرى» أسرع عليّ هذه المرة إليها وهو يربت على وجنتها تارةً ويبلل أنامله بالنشادر ويمررها أسفل أنفها تارةً أخرى، أما فاطمة فقد خرجت إلى المعزين لتصرفهم معتذرةً بضرورة بقائها بجوار قريبتها المريضة التي وصلت منذ قليل، لقد كانت حريصةً على أن تخفي شخصية زينب عن الجميع دون أن تدري سببًا لذلك سوى حدسها!..

«كيف حالها الآن؟» سألته فاطمة بعدما صرفت الجميع حتى بركة، «مازالت

لا تفيق» نطقها عليٌّ بصوته فاتسعت حدقتي الوصيفة- التي جلست بجوار سيدتها في قلق- حين ميزت صوت عليّ، انتفضت من مكانها وهتفت: «سلامٌ قولًا من ربٍ رحيمٍ، سلامٌ قولًا من ربٍ رحيم»أمسك عليّ بكفها وقال في خفوتٍ حازمٍ: «اهدئي يا حنة، أنا لم أمت، اهدئي» ظهر عدم الفهم على ملامح أمه حين كشف نفسه للخادمة فعاد يحاول إفاقة زينب وهو يقول: «حنة ليست خادمة بالنسبة لزينب يا أمي؛ إنها صديقتها التي تعلم عنها كل شيء وتعلم ما بيننا أيضًا» أخيرًا بدأت زينب تتحرك في بطء وهي تنادي على عليٍّ فاقترب منها يهمس: «أنا هنا يا زينب، أنا بخير يا حبيبتي؛ أفيقي» جاهدت زينب لفتح عينيها وهي تتمتم:

- عليّ! هل أنا أحلم؟!

-لا يا حبيبتي؛ لا تحلمين، أنا هنا إلى جوارك..أنا بخير صدقيني..

اعتدلت في الفراش وهي تلمس وجهه في حذر وتتأمله عن قرب؛ فأدرك أنه لايزال يحمل ملامح خاله، ربت على كفيها ونهض ليفتح صندوقه ويتناول قطعةً من القماش بللها بسائلٍ ما وبدأ في إزالة الأصباغ عن وجهه؛ ثم نزع اللحية والشارب المستعارين وعاد يجلس مرة أخرى أمامها، تساقطت دموعها وهي تعتمد على ذراعيه لتجلس بأنفاسٍ متلاحقةٍ وعينين تتسع في غير تصديق، «عليّ!» هتفت باسمه وهي تتعلق في عنقه وتبكي فضمها إلى صدره في قوةٍ ودموعه تغرق كتفيها دون أن يقوى أحدهما على النطق بحرف!..

«لا يجب أن يعلم أحدٌ أن عليًّا مازال على قيد الحياة يا زينب» قالتها فاطمة فانتبها أنهما مازالا متعانقين فابتعدت زينب عن عليٍّ في خجلٍ وهي تومئ برأسها متمتمةً: «حسنًا يا أماه» والتفتت إلى عليّ تسأله: «لكن لماذا ادعيت أنك.. أنك.. أعني» ولم تستطع التلفظ بها لكنه فهم وتنهد مجيبًا: «حدث الكثير

في اليومين الماضيين يا زينب وتكشفت لي أمورٌ كثيرةٌ تحتاج مني لتفكيرٍ مترو بعيدًا عن ملاحقة الكلبي ودليلة لي» نكست رأسها في خجل بينما أنهى هو حديثه قائلًا: «سأخبرك فيما بعد» ثم استدار نحو أمه وقال محاولًا الابتسام: «تلك هي زينب يا أمي التي حدثتك عنها» نهضت زينب في بطءٍ واتجهت لتجلس بجوارها فاحتضنتها فاطمة وبادرت قائلة: «حديثك شيءٌ يا عليّ وما رأيته منها اليوم ومس قلبي شيءٌ آخر، فلتكن ابنة دليلة لكني أكاد أقسم أنها ابنة روحي أنا» ولم تجد زينب من الكلمات ما تقوله فاستكانت على صدر فاطمة في صمتٍ!..

وعلى عكس ما تصور عليّ؛ لم تفرقه جرائم دليلة عن حبيبته لأن الله رزقه بأمٍ كفاطمة، وتعاهد هو وزينب ليلتها على الزواج وباركت فاطمة رغبتهما رغم أن لها عوضًا عن الثأر ثأرين لدى دليلة، «هل ستقتلها يا عليّ؟!» سألته زينب والدموع تملأ عينيها وأكملت: «أعلم أنها تستحق لكنها في النهاية أمي!» صمت عليٌّ في حيرةٍ لا يدري ماذا يقول؛ خاصةً وزينب لا تعلم بعد أن أمها كانت المدبرة لقتل أبيه رأس الغول أيضًا، فجاوبتها فاطمة في حزم: «هذا الحديث ليس وقته؛ ما يهمنا الآن أن يظل أمر عليٍّ سرًا بيننا حتى يقرر هو ماذا سيفعل وعليكِ المحافظة على حزنك في الظاهر كي لا ينكشف أمره» هزت زينب رأسها بالموافقة وحتى خادمتها فعلت قبل أن تقول: «حمدًا لله على سلامتك يا سيدي» وقبل أن يجيبها عليّ سمعوا طرقًا شديدًا على باب الدار فانتفض واقفًا وأسرع نحو الباب الخلفي للدار، اختفي عدة دقائق عاد بعدها هامسًا: «إنها دليلة ورجالها؛ يبدو أنها جاءت تبحث عنكِ يا زينب» قالها فأجابته فاطمة: «اختفِ أنت الآن وسأقابلها أنا» وبالفعل اختفى عليّ في ركن مظلم من الحديقة وشاهد أمه وهي تفتح الباب قبل أن تقتحم دليلة الدار

بمنتهى العجرفة صائحةً: «أين ابنتي؟!» ودون أن تنتظر رد فاطمة اندفعت إلى الداخل بدون إذنٍ لكنها تسمرت في صدمةٍ حين هتفت بها فاطمة في حزمٍ: «قفي مكانك يا دليلة» استدارت دليلة تتأمل فاطمة باستهزاء وهي تبتسم في سخريةٍ بينما خرجت زينب وخادمتها من الداخل، «ومن تكونين لتأمريني يا امرأة؟!» سألت دليلة وهي تقف أمام فاطمة مباشرة؛ والتي ضمت ساعديها إلى صدرها ورفعت رأسها مجيبة في تحدٍ: «أنا أمه يا دليلة، أم علي الزيبق الذي كبدكم خسائر كثيرة وأحرج مراكزكم أمام حكامكم ومازال» تنمرت نظرات دليلة وعيناها لا تفارق ملامح فاطمة الهادئة بينما اقتربت زينب منهما وقالت بصوتٍ مرتجفٍ: «كفى يا أمي، لقد جئت لأعزيها ليس إلا» لكن دليلة تجاهلت زينب تمامًا وقالت بصوتٍ باردٍ وهي تقترب أكثر من فاطمة: «لم يخلق بعد من يقف في وجه دليلة يا... أمه» واستدارت تجذب زينب من ذراعها متابعة بانفعالٍ هذه المرة:«هيا أمامي» وخرجت برجالها فجأةً كما جاءت فجأةً!

«الحقيرة» تمتمت بها فاطمة وهي تترك جسدها يسقط فوق مصطبة الحديقة بعد خروج الجميع، أسرع عليٌّ يخرج من مخبأه ليغلق باب الدار وهو ينظر نحو أمه-التي لا يدري ماذا أَلَمَّ بها- في قلقٍ، عاد إليها ليركع أمامها ثم أمسك كفيها في قوةٍ حين وجدها ترتجف وسألها قلقًا: «ما بكِ يا أمي؟!» رفعت رأسها نحوه وهمست في ألمٍ ودموعها تتساقط في غزارةٍ: «في ليلة استيقظت لأتفقده؛ كان يحب السهر والقراءة، حين دخلت عليه وجدته نائمًا وكتابٌ على صدره، اقتربت منه لأطمئن عليه فوجدت يديه باردتين ووجهه خالياً من الدماء تقريبا؛ بينما كان كأس شرابه ملقىً بجوار جسده» وألقت رأسها على كتفه لتبكي في حرقةٍ أكبر، تنهد وهو يحاول تهدئتها لكنها رفعت

رأسها تكمل في حقد هذه المرة: «لقد دست علينا تلك الحقيرة خادمًا خائنًا سمم شراب أبيك وهرب قبل أن أكتشف جثته» نهض ليجلس بجوارها وهو يقول:

- وبالطبع لم تتمكني من تقديم شكوى أو اتهام أحدٍ بقتله..

- تلك الحقيرة دفعت لواحد من الخدم كي يقتله وبعد أيامٍ وجدوه مذبوحًا في أحد الأزقة، والشرطة كانت على علم بمؤامرتها تلك ولكن الكلبي ورجاله كتموا الأمر واستطاعوا خداع الوالي وقتها، لقد علمت بكل هذا من واحدٍ من الجنود الذين دانوا بالولاء لأبيك؛ لكن ما دفعنا للهروب أنا وجدك أنني اكتشفت حملي بك وما كانت دليلة لتترك ابنًا لرأس الغول على قيد الحياة، لذلك استقال جدك من القضاء وانتقلنا إلى هذا الحي لأبقيك مختفيًا عن عيونها هي والكلبي..

- لكني لن أتحمل البقاء في الخفاء طويلًا يا أمي بعد كل ما جرى..

- نعم يا ولدي؛ لكن لا يجب أن تتحرك وحدك..

- لست وحدي يا أمي لدي رجالي..

- لا يكفي..

لم يفهم ماذا تقصد لكنها لم تعطه فرصة للسؤال وجذبته من يده إلى الداخل وهي تقول: «دعنا نتحدث في الصباح؛ عليك أن تستريح الآن» واستسلم هو لأنه كان يشعربإرهاقٍ شديدٍ؛ استمر معه لفترة غير قصيرة مضافًا إليه حالة شرود شبه دائمة، كل ما مر به من مخاطر ومطاراتٍ من رجال الكلبي ودليلة لا يساوي شيئًا أمام ما حدث وعرفه في الأيام الأخيرة، ملامح خاله المشوهة وميتته البشعة، معرفته بحقيقة نسبه وحقيقة قاتلة أبيه، وحتى تيقنه مما يحمله هو وزينب لبعضهما رغم مرارة ما بينهما من

تاريخٍ لم يعلما عنه شيئًا من قبل، كل تلك الأفكار كانت تدور في رأسه وتلاحقه وتطارده حتى في أحلامه دون أن يتمكن من الوصول لقرارٍ فيما سيفعل، حتى زينب؛ ظل عاجزًا عن إخبارها بأنه ابن رأس الغول الذي تآمرت أمها على قتله ذات يومٍ!..

ذات صباح فتح عليّ عينيه ليجد أمه جالسة على الأريكة المجاورة لفراشه ممسكةً بحمامةٍ ضخمةٍ وأشعة الشمس تحدد ملامحها لتجعلها أشبه بالقديسين، اعتدل جالسًا وهو يغلق عينيه ويفتحهما عدة مراتٍ متتالية وقال بصوتٍ ناعسٍ: «صباح الخير» التفتت فاطمة نحوه فأغلق عينيه سريعًا وأشعة الشمس التي كانت تحجبها بجسدها تغمره تمامًا فضحكت مجيبةً: «صباح الخير» سمع صوت جناحي الحمامة يرفان حين أطلقتها أمه وشعر بها تمسح على ذراعه بكفها وهي تكمل: «مازالت تعبيرات وجهك طفولية يا عليّ، كأنك مازلت طفلًا صغيرًا لم يتخلَ بعد عن ذراعَيَّ» نهض وهو يمسك بكفيها ويقبلهما وقال: «بعمري لن أغادرهما أبدًا» ونهض ليجلس بجوارها على الأريكة وهو يسألها:

- لكنك لم تخبريني؛ لماذا تجلسين هكذا؟

- انتظر استيقاظك..

- ولماذا لم توقظيني؟!

ابتسمت وهي تربت على وجنته وتجاهلت السؤال قائلة: «دعك من هذا الآن واقرأ معي الفاتحة لجدك وأبيك وخالك؛ ودعني بعدها أخبرك بما لديّ» وسبقته إلى التمتمة بالآيات الكريمات وانتظرته حتى أنهاها ثم اعتدلت تمد له يدها بورقةٍ صغيرةٍ في حجم عقلة الإصبع؛ ملفوفة في شكلٍ إسطواني وهي تقول: «اقرأها» فتح الورقة فوجدها رسالةً من سطرٍ وحيدٍ مكتوبٍ

بخطٍ متناهي الصغر تقول: «وصلتنا رسالتكم بفرحةٍ أكبر من فرحتنا بهلاليّ العيد.. لكم منا التحية..بدر الحلبي» أعاد عليّ قراءة الرسالة مراتٍ عديدةٍ ثم طواها وسأل أمه: «من بدر الحلبي هذا؟ وعن أي رسالة يتحدث؟ لست أفهم!» ابتسمت فاطمة وسألته: «هل سمعت من قبل عن المقدم أحمد الدنف والمقدم حسن شومان وعمر الخطاف؟» هتف فورًا: «بالطبع؛ ليس هناك شاطرٌ أو عايقٌ لا يعرفهم!» ثم خفت صوته وسألها في حيرة: «أتعنين أن هذه الرسالة...» لم يستطع تسميتها فتنهدت هي مجيبةً: «سأخبرك بكل شيء»..

في ذلك الصباح قصت عليه فاطمة كل ما لا يعرفه عن أبيه رأس الغول وغرامها به منذ طفولتها واهتمامها بفنون العياقة لأجله، وحكت له قصة الفارس أحمد بن البني الذي لقبت باسمه بعد أن ثأرت لعمها منه، وأخبرته تفصيلًا ببطولات أبيه وكل ما بذله هو ورفاقه في سبيل البسطاء حتى استعان الكلبي بالحرباء دليلة للتخلص منه، بعدها عاد المقدم أحمد الدنف إلى بغداد وبعد سنواتٍ استطاعت دليلة هزيمته في أحد الرهانات وعينت على رأس الشرطة بدلًا منه، وعاد عمر الخطاف- أو العيار كما يلقبونه- إلى الشام، واعتزل حسن شومان مقدمية الشرطة وإن لم يعتزل عالم العُيَّاق ، كان بالطبع يعرف تاريخ الفارس رأس الغول وسيرة بطولاته هو ورفاقه لكنه لم يسمع عنه من شخصٍ لصيقٍ به إلى هذه الدرجة؛ كما أنه كثيرًا ما كان يسأل نفسه عن كيفية الوصول لهؤلاء العُيَّاق الذين طالما سمع عنهم منذ صباه والآن فقط عرف بمصيرهم، في تلك اللحظة توقفت فاطمة عن الحديث وهي تتأمله مبتسمةً فسألها: «لماذا سكتِّ يا أمي؟» نهضت تمسح على رأسه ووجهه وهي تجيبه :»لو نظرت في مرآتك لرأيت حسن أمامك؛ لكنه كان حليق الرأس وله شاربٌ ولحيةٌ قصيران» وشردت في ملامحه قليلًا كأنما ترى حسن أمامها؛

فظلَّ عليٌّ على صمته احترامًا لما تشعر به، تنهدت بعد لحظةٍ والتفتت تقول: «بقي أمرٌ أخيُر لم تعرفه» ودون أن يسألها ما هو شرحت له ما كان يريد سؤالها عنه منذ لحظاتٍ فقالت: «طوال الفترة الماضية كنت تعمل منفردًا؛ ولم أشأ أن أدُلَّك على طريق الوصول إلى عالم الشطار والعياقين فيزداد الأمر خطرًا وأخسرك كما خسرت أبيك، أما الآن- بعد كل ما جرى- أصبح اللجوء إليهم أمراً ضرورياً لما يمتلكونه من خبرةٍ ستعينك كثيرًا للوصول إلى هدفك وتحميك إن استدعى الأمر ذلك، لهذا أرسلت الشفرة إلى بغداد وحلب والإسكندرية ولم يصلني إلا رد عمر الخطاف الذي بين يديك هذا» أعاد قراءة الرسالة ثم سألها: «هل هذا يعني أن عمر الخطاف من حلب؟!» ابتسمت وأجابته: «نعم؛ ورسالته تعني أنه سيصل إلى المحروسة بعد شهرين وقبل حلول الثالث» صمت للحظات ثم قال: «إذن هلاليّ العيد تعني: شهرين والبدر هو اكتمال قمر الشهر الثاني؛ أليس كذلك؟!» وهزت رأسها في صمتٍ..

في تلك اللحظة شعر عليٌّ فجأةً أنه لم يعد وحيدًا في مواجهة الكلبي ودليلة؛ واعترف لنفسه بأن الأمر الآن لا يحتمل تصرفاتٍ هوجاء أو غير محسوبة، إنَّ خصومه لا يتورعون عن إنهاء حياة من يقف أمامهم- مهما يكن وأينما كان- بدماءٍ باردةٍ وقلوبٍ متحجرةٍ، «لقد حفظت شفرات التلاقي والاستدعاء التي ابتكروها وكانوا يستخدمونها مع حسن وطلبوا مني استخدامها إذا ما احتجتهم ذات يومٍ» قالتها فاطمة فتطلع إليها وهي تكمل: «ونحن الآن في حاجة إليهم يا عليّ» هز رأسه في حيرة وقال: «منذ قليل قلتِ أن خبرتهم سوف تعينني على الوصول إلى هدفي؛ لكني حتى هذه اللحظة لا أدري ماهو هدفي بالتحديد! هل هو ثأري لأبي وخالي وكفى؟!.. وماذا عن هدفنا الأول؛ أبي ورفاقه وأنا؟!» تطلعت إليه في صمتٍ رزينٍ

وتركته يكمل: «البسطاء وحوائجهم، من لهم سوانا؟!» أجابته في حزمٍ: «لا تعارض بين الهدفين يا عليّ، صحيح أنني كنت أخشى عليك وأحاول أن أنأى بك بعيدًا عن كل هذا لكنه القدر الذي جعل بذرة حسن رأس االغول تتمكن من قلبك فتنمو ولا يستطيع أن يوقفها أحدٌ حتى أنا، لذلك أصبح واجبًا عليك أن تكمل رسالته لتكون جديرًا بالأخذ بثأره» دار حول نفسه وتمتم: «كيف؟ لقد تمسكت بخدعة موت الزيبق أمام الناس حتى أفكر فيما يجب أن أفعل؛ لكن حتى الآن لا أدري كيف» ربتت على كتفه وقالت: «اترك الأمر كله حتى يصل الخطاف إلى المحروسة» هز رأسه موافقًا وقد وجد في عبارتها ما يريح ذهنه بعض الشيء..

«أمي! ماذا تفعلين هنا؟!» انتبه عليٌّ على صوت عامر المندهش فرفع رأسه يتطلع نحو تلك المرأة التي دخلت الوكالة توًا، تقدمت مبتسمة نحو حسن الذي وقف يتأملها طويلًا ثم اندفع نحوها هاتفًا: «خالتي زهرة؛ غير معقول!» وانحنى يقبل يديها في حرارةٍ وعليّ يتمتم في شرودٍ: «زهرة!» تقدمت زهرة نحوه بنفس الابتسامة بينما خرج عمر من المخزن ووقف بجوار أخيه يتأمل ما يحدث في غير فهمٍ، تقدمت زهرة نحو عليٍّ وسألته في خفوتٍ: «كيف حالك يا عليّ؟» فقبض على كفيها بكلتا يديه دون أن يجيبها؛ فقط كرر اسمها في حرارةٍ وحنينٍ..

طوال الطريق من وكالته إلى الدار كان يلتفت بين لحظة وأخرى ليتطلع خلفه ويرى زهرة التي سارت بين حسن وولديها في سعادةٍ واضحةٍ رغم ما ظهر على ملامحها من خطوب السنين، لا يدري أين كانت ولا ماذا حل بها وهي بعيدةٌ عن رعايته، كان سعيدًا بعودتها لأنه طوال فترة غيابها كان يشعر بالتقصير نحو ذكرى عمر وفضل وزينب مجتمعين، كان أيضًا يلمس

سعادة حسن برؤيتها وهو يتوقف بها كل بضع خطوات لدى إحدى الدكاكين ويشتري لها شيئًا ليفرحها، «هيا يا شباب؛ لن ينجينا شيءٌ من يد خالتكم درة لو تأخرنا أكثر من ذلك» قالها عليّ وهو ينعطف نحو داره؛ فوجد درة واقفة على بابها بابتسامةٍ بشوشةٍ ظهرت جليةً رغم إخفائها لوجهها بشالٍ حريري،»كم افتقدتك يا أم عمر» هتفت بها درة في فرحةٍ وهي تفتح ذراعيها لزهرة التي اندفعت نحوها بابتسامةٍ كبيرةٍ وأجابت: «وأنا كذلك يا درة، لم تتغيري كثيرًا يا عزيزتي» ضحك عليٌّ هذه المرة وسبقهم إلى الداخل ومن خلفه الفتيان وهو يقول: «أخبرها بذلك دائمًا يا زهرة ولا تصدقني» وقفت زهرة وسط الحديقة تدور في أرجائها بعينين دامعتين ثم تنهدت قائلةً: «كل شيءٍ كما هو يا عليّ، كل شيء!»لحظاتٌ والتف الجميع حول المائدة العامرة التي أعدتها درة فور أن أرسل عليٌّ يخبرها بقدوم زهرة، كانوا جميعا يتبادلون الحديث والذكريات- حتى حسن الذي لم يتخطَ الثامنة حين اختفت زهرة بوليدها- أما الفتيان فظلا صامتين يأكلان قليلًا ويراقبان ما يحدث في صمتٍ..

«لماذا رحلت يا زهرة؟» سألها عليّ حين طلبت الانفراد به وبدرة لأمرٍ هام؛ فابتسمت دون ردٍ محاولةً الهروب من سؤاله؛ فكررت درة عليها السؤال في حزم: «لماذا رحلتِ يا زهرة؟ لقد عشنا جميعا منذ صبانا كأخوة أنا وأنتِ وفضل وعليّ، حتى أنني حضرت بأمي إلى المحروسة بعد مقتل أبي وأبيك لنكون في كنف أخي زياد وبالقرب من عليّ وخالتي فاطمة كي لا ينفردوا بأحدنا مرة أخرى؛ فتحملي أنتِ طفليكِ وترحلي!» قالتها درة وهي تناولها كوبا من شراب اللوز؛ لتلف زهرة كلا كفيها حوله وهي تتأمله دون رد، تبادل عليّ ودرة النظرات في صمتٍ ثم نظر عبر الباب نحو حسن والفتيين الذين اجتمعوا في حديقة الدار يتسامرون، «كيف اختفيتِ هكذا يا زهرة دون أن

يظهر لكِ أي أثر؟! لقد بحثت عنكم كثيرًا» سألها عليّ فتنهدت وبدأت ترشف بضع قطراتٍ من الشراب ثم قالت: «طوال سفركم الأخير أنت وأبي وعمي شومان كانت خالتي فاطمة خائفةً بالطبع من غدر دليلة الذي تألفه جيدًا؛ لكن الذي كان يخيفها أكثر ما قد يحدث عند عودتك سالمًا بالصندوق» ونقلت بصرها بينه وبين درة اللذين ظلا صامتين فأكملت:«كلاكما يذكر جيدًا ما فعلته دليلة رغم أنك أصبحت زوج ابنتها؛ أليس كذلك؟!» أبعدت درة نظراتها عن زهرة بينما أومأ عليّ بالموافقة وقال:

- ورغم ذلك ما كان عليكِ الرحيل يا أم عمر..

- ما كنت لأقبل أن يعيش ولديّ على الإحسان يا عليّ؛ حتى عملهما في وكالتك ما قبلت به إلا لأني تأكدت أنك ستعاملهم كغريبين وأنت لا تعلم شيئًا عن نسبهما..

- إحسان! كيف تقولين ذلك؟!سيظل فضل أبيكِ مطوقًا عنقي يا زهرة حتى الممات؛ فلولاه لكنت الآن في عداد الموتى، وأما زوجك فرغم قصر مدة عشرتنا فقد كان لي أكثر قربًا من بني دمي..

تركت زهرة الشراب من يدها وهي تلتفت نحوه في جديةٍ وقالت: «ما فات قد فات يا عليّ وأنا ما جئتك اليوم للحديث عنه، لقد جئتك فيما هو أهم» انتبهت درة لحديثها مرة أخرى ولم تنتظر هي ليسألها عليّ فيم مجيئها بل قالت: «دليلة عادت إلى المحروسة يا ابن رأس الغول!» وهبط الصمت على ثلاثتهم دون أن يعكس شيئًا من النيران التي اشتعلت في نفوسهم مع نطقها لذلك الاسم.. دليلة!

كرة..

أتت تلك الليلة بمفاجئتين نتجت إحداهما عن الأخرى أو سببت إحداهما تاليتها، فلولا ما عرفته زهرة من أخبار وصول دليلة إلى المحروسة ما عاودت الظهور من جديدٍ؛ في الوقت الحالي على الأقل، لذلك وجدت درة نفسها ممزقة بين حلاوة لقائها بزهرة والمرار الذي يخلفه دائمًا ذكر دليلة!..

في تلك الليلة قصَّت زهرة عليها هي وعليّ كيف علمت بوجود دليلة في المحروسة من زبوناتها من نساء الأكابر، في البداية أخذن يتناقلن أمر تلك العجوز التي كانت ضيفةً على الوالي؛ ورغم ذلك فضلت النزول في خان داوود هي وأخيها مقدم درك بغداد، حكت بعضهن عما تحمله من بقايا جمالٍ زائلٍ إلى جانب الكثير من البأس رغم سنوات عمرها التي قاربت السبعين، وحين استفسرت منهنَّ عمَّن تكون، قصصن عليها ما سمعنه من رجالهن عن أنها كانت مقدم درك بغداد قبل أخيها هذا في زمن المقدم حسن رأس الغول ويقال أنها كانت وراء مقتله، «وهل كانت وراء مقتل أبي وحده؟!» قالها عليٌّ بحقدٍ ثم التفت لهنَّ وأكمل: «وأبي كلٍ مِنكنَّ، وفضل الذي سُجن وقُتل على يد رجالها، وزياد الذي اختطف وعُذب!»وأخذ يدور حول نفسه في الغرفة في غضب بينما صمتت هي وزهرة يتأملنه في حيرةٍ..

السنوات الطويلة لم تنسِ درة ما فعلته تلك الحية بها وبأهلها، صحيحٌ أنها تركت الإسكندرية منذ سنواتٍ تفوق نصف عمرها لكنها أبدًا لم تنسَ، لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة حين أتاهم أبوها ذات صباحٍ وهو يحمل بين يديه حمامةً زاجلةً- مما كان يربيه فوق سطح داره- وهو يهتف فرحًا: «رأس الغول حيٌ لم يمت!» كانت قد سمعت الكثير من الحكايات عن رأس الغول من أبيها؛ الذي لم يخلو مجلسٌ له من الحديث عن العُيَّاق وبطولاتهم ونوادرهم، صحيحٌ أنها كانت تنتهز أي فرصة لتفر هاربةً من مثل تلك الأحاديث وكان

هو يلاحظ ذلك؛ إلا أنها كانت تملك في نفسها تقديرًا لا شعوريًا لذلك البطل الراحل، لهذا تسمرت مصدومةً في مكانها حين فاجئهم بما يقول، أسرع أخوها الأصغر يسأله في دهشة: «أتقصد المقدم حسن رأس الغول يا أبي؟!» فضحك أبوها ملء قلبه وأجابه: «هو بالطبع يا زياد» ثم جلس وقص عليهم كيف وجد هذا الصباح رسالةً آتيةً من المحروسة وبنفس رموز الشفرة التي كان يستخدمها هو وأحمد الدنف ورأس الغول، قالت درة هذه المرة بعد أن نجح الأمر في إثارة فضولها: «قد يكون المرسل هو المقدم أحمد الدنف إذن!» هز أبوها رأسه نفيًا وقال: «لقد تفرقنا بعد مقتل رأس الغول ورحل كل منَّا إلى مسقط رأسه؛ فعاد الدنف إلى بغداد وأتيت أنا إلى هنا وتزوجت من أمكما، وحتى عمر الخطاف الذي كان بمثابة أخينا الأصغر عاد إلى حلب، وتلك الرسالة لم تأتِ من أي من تلك المدن؛ لقد أتت من المحروسة، وهذا يعني أنها هي من أرسلتها» قالها وابتسم في صمتٍ، ودون أن يسأله أحدهم من يقصد بدأ يقص عليهم كل ما يعرفه عن فاطمة ابنة خال رأس الغول- القاضي نور الدين- وزوجته الشجاعة التي تربت على يديه لتفوق الرجال مهارةً في فنون العياقة، شعرت درة بالانبهار نحو هذه السيدة قبل حتى أن تراها وتمنت لو تصبح إمرأةً في مثل قوتها تلك، لذلك حين قرأ عليهم رسالتها وشرح لهم ما تعنيه شفرتها من طلب معونته- في أمرٍ يخص ابنها الذي لم يكن يعلم حتى بوجوده- تمنت لو توافق أمها على أن يرحلوا مع أبيهم إلى المحروسة لتقابلها، لكن أمها آثرت البقاء في بلدتها وتركت زوجها يسافر وحده بصحبة ابنهما زياد؛ الذي كان من المقرر أن يبدأ دروسه في الأزهر الشريف بعد عدة أشهرٍ..

فور وصوله سأل حسن شومان عن أقرب خانٍ يمكنه المبيت فيه هو وولده؛ فدَلُّوه على خان داوود المملوك لراحيل ابنة شميعة الطبيب وهم يقصون عليه

بمزيج من التنكيت والحسرة ما ناله على يد العايق عليّ الزيبق الذي قتل منذ فترة قريبة على يد رجال الكلبي ودليلة، «أمن المعقول أن يكون هذا الزيبق هو نفسه ابن رأس الغول الذي راسلتني السيدة فاطمة بشأنه؟!» تمتم بها شومان في شرودٍ وأسىً لكن زياد استطاع تمييز كلماته في وضوح وهو يرتب ملابسه في الصندوق فأجابه: «قلبي يحدثني بذلك يا أبي، وربما السيدة فاطمة ما أرسلت إليك إلا لأمر يتعلق بحربه مع هؤلاء الزُعار» (*) ابتسم شومان لفطنة ولده وأومأ له قائلًا: «أظن ذلك يا زياد، لكنها أرسلت تخبرني أن ولدها في حاجة إليّ؛ أتكون رسالتها تلك سبقت حادث وفاته المؤسف لو أنه الزيبق بنفسه؟!»هز زياد كتفيه دون ردٍ فنهض شومان بعد لحظاتٍ وارتدى عباءته وهو يقول: «علينا الآن التوجه لزيارة خالتك فاطمة» فهز زياد رأسه مرة أخرى ولكن بالموافقة..

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ابتسم شومان وهو يلقي التحية على بركة التي استقبلته في بيت رأس الغول، ردت تحيته فأسرع يقول مرةً أخرى: «أنا حسن شومان، أتيت لمقابلة السيدة فاطمة»أومأت له بركة وهي تسمح له بالدخول، دخل هو وزياد وجلسا على المصطبة في الحديقة حتى خرج لهم عليٌّ وهو يحمل وجه خاله مرحبًا: «أهلًا ومرحبًا بك يا سيد شومان» صافحه شومان وقال مبتسمًا: «أهلا بك يا سيدي» وقبل أن يسأله شومان عمن يكون أتتهم بركة تقول: «إن السيدة فاطمة في انتظاركم يا سيد شمس» قالتها وانصرفت؛ بينما أفسح لهم عليٌّ الطريق ليتقدموه إلى الداخل، «السلام عليكِ يا سيدة النساء» قالها شومان مصافحًا فاطمة بإجلالٍ كبيرٍ فابتسمت مرحبةً وقالت: «لقد أنرت الدار يا سيد شومان» والتفتت نحو زيادٍ فقال:

(*) **الزُعار: أو الزُعر أو الزُعران** جمع أزعر وهو اللص الخاطف، وهو ما كانوا يطلقونه على جنود الدرك الفاسد الناهب لحقوق العامة والبسطاء.

- هذا زياد ابني الأصغر يا سيدتي..
- تبارك الله، بارك الله لك فيه..
- بوركتِ يا سيدتي..

وشعر بحرجٍ مفاجئٍ حين تذكر أنه أتى بشأن ولدها كما طلبت لكن لا يدري هل يسألها عنه أم يعزيها فيه، فسألها في خفوتٍ وبشكلٍ مباشرٍ: «سيدتي، هل ولدكِ الذي طلبتي مني أن آتي لمعاونته هو نفسه الزيبق الذي يحكون عنه؟» أومأت فاطمة بابتسامةٍ خفيفةٍ فأسرع هو يكمل في خفوتٍ: «رزقكِ الله الصبر والسلوان يا سيدتي، لقد حزنتُ حزنًا شديدًا حين سمعت ما وقع له، لقد توقعت أن يكون هو نفسه ولدكِ، عزاؤنا وعزاؤك يا سيدتي أنه كان بطلًا كأبيه، أسكنه الله فسيح جناته» اتسعت ابتسامة فاطمة الحزينة وهي تنظر نحو عليٍّ فنهض ليغلق باب الغرفة قبل أن تقول فاطمة: «ولدي بخيرٍ يا سيد شومان، من قابل وجه ربه كان أخي شمس رحمه الله» بدت ملامح الصدمة على وجهه بينما ضاقت عينا زيادٍ وهو يتطلع إلى الرجل الذي استقبلهم ودعته الخادمة بالسيد شمس؛ ثم سألها في فضول: «من يكون هذا السيد إذن؟» همست في حزمٍ:

«إنه عليّ يا زياد»، وأمام عينيه رأى عليّا وهو يرفع الشعر المزيف عن رأسه ويزيل تنكره في رويّة ليحافظ على القناع الجلدي الرقيق الذي كان يخفي به ملامحه، «يا الله! رحمة الله على أبيك الكريم يا ولدي!» قالها شومان وهو ينهض ليحتضن عليًّا في حرارةٍ؛ بينما أسرع زيادٌ يسأله في خفوتٍ: «كيف استطعت أن تصنع ذلك القناع لتطابق ملامح خالك دون أن يكشف أمرك أحدٌ ممن يعرفوه؟!» جلس عليٌّ بجواره وابتسم قائلًا: «يجب أن تكون على دراية برسم الملامح بشكلٍ دقيقٍ؛ بعدها سيكون من السهل عليك تشكيل القناع ليطابقها تمامًا، أمرٌ شبيهٌ بما نحته قدماء المصريين من تماثيل ملوكهم لكنك

تستخدم المطاط بدلًا من المواد الصلبة» التفت إليه زياد يسأله في حماسٍ أكثر: «أهذا يعني أنك تستخدم قالب ما لتصب فيه ذلك المطاط سائلًا مثلًا؟» اتسعت ابتسامة عليّ وهو يهز رأسه موافقًا؛ لكن شومان أسرع يقول قبل أن يجيب هو زياد: «ليس هذا وقته يا زياد، دعنا نرى أولًا ما حاجة السيدة فاطمة إلينا لأنني بدأت أشعر أن الأمر خطيٌر» صمتوا جميعًا لثوانٍ تنهدت فاطمة خلالها ثم قالت: «هو كذلك يا سيد شومان» وقصت عليه ما حدث في الأشهر الماضية باختصارٍ انتظارًا لوصول عمر الخطاف ليخبرهما عليٌّ تفصيلًا بكل شيء؛ لأنها ترى أنهما - مع المقدم أحمد الدنف- وحدهم القادرون على مساعدته بما لهم من خبرةٍ وإخلاصٍ، لكنها حين ذكرت المقدم أحمد الدنف استوقفها شومان قائلا في حزنٍ: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون يا سيدتي، لقد توفي الدنف منذ عدة سنواتٍ» وساد الصمت ثقيلًا مرةً أخرى حتى قطعه عليًّا وهو يحاول المزاح: «يا أم عليّ؛ إن الجوع أكلني فما بالك بضيفينا الآتيين من سفرٍ طويلٍ» نهضت من فورها لتخرج من الغرفة وتغلق الباب وراءها؛ بينما جلس هو يتبادل الحديث مع زياد..

وقفت درة لتجهز بعض المشروبات الباردة لضيوفها وهي شاردة لا تدري إلى أين سيأخذهم حديث زهرة هذا، ألا يكفي ما خسرته بسبب دليلة ورجالها؟! إن جدران تلك الدار لو استطاعت لنطقت تحكي ما دار بين عليّ وأبيها في تلك الليلة، كل حجر فيها يحفظ تاريخًا يزيد عن العشرين عامًا؛ عاشت منهم هي ما يكفيها، ألا سبيل للتوقف الآن؟! «أين حسن يا درة؟» تفاجأت بسؤال عليّ الذي دخل عليها فجأة وكادت تسقط الأكواب من يديها، فنظرت له بعدما تمالكت نفسها وصاحت: «لقد أفزعتني!» ربت على كتفها مهدئًا وعاد يقول: «لا أدري إلى أين يذهب كل ليلة؟! حتى أنه لم يعد يأتي إلى الساحة!» ارتبكت درة

بعض الشيء ولم يَخْفَ ذلك عليه فسألها:

- درة! هل عدتِ تلحين عليه ليتوقف عن مرانه؟!

- لا لا، لم أفعل..

- ماذا تخفين عني إذن؟!

صمتت قليلًا فكرر سؤاله مرةً أخرى؛ لكنها أسرعت بالابتعاد عنه وهي تحمل أكواب الشراب لضيوفها هاتفةً: «ليس الآن يا عليّ؛ لدينا ضيوف!» وفرت من أمامه وهي على يقينٍ من أن الليلة لن تمر قبل أن يعرف منها ما يريد!

ظلت درة طيلة المساء تستمع إلى زهرة- وهي تقص عليها ما عاشته طوال السنوات الماضية- بنصف عقلٍ؛ بينما ظل نصفه الآخر مشتتًا بين قلقها على حسن من جهة وبين ما أخذت تحضره ذاكرتها من صور الماضي،كانت تذكر جيدًا كل ما قصه أباها على مسامعها هي وأمها حين عاد إلى الإسكندرية بعدما ساعد عليًّا للوصول إلى مأربه واطمئن عليه، لقد كانت حكايات أبيها سببًا في أن تتعلق بعليّ قبل أن تراه؛ وأصبحت تهوى سيرة الشطار وملاعيبهم فقط لأنه أصبح كبيرهم في هذه السن الصغيرة، لم ينغص عليها أحلامها تلك سوى ما عرفته عن غرامه بزينب، وحتى زياد قص عليها كيف أصبح هو وعليًّا أصدقاء في تلك المدة البسيطة التي كانوا ينتظرون فيها وصول عمر الخطاف كما أعلمتهم السيدة فاطمة..

«أتصدقين أن بيننا وبين تلك الحية بضع خطوات لا أكثر؟!» اتسعت عينا درة في فزعٍ لم تُخْفِهِ، لقد تمتمت زهرة بتلك الكلمات أثناء توديعها لها على باب الدار وهي تشير نحو خان داوود في الجهة المقابلة، ودعتها بلا كلماتٍ تقريبًا -تجيب بها على وعود زهرة بالتلاقي كثيرًا لتعويض ما فات- وعادت إلى داخل الدار ساهمةً، لقد توقف حديثهم في تلك الليلة عن دليلة حين

قال عليٌّ أنه سيرى ما يمكن فعله؛ وهي لا تدري تحديدًا ما الذي يمكن فعله بماذا؟! هل سيفكر الآن في ثأره من دليلة بعد كل تلك السنوات؟! هي أيضا لها ثأرٌ لديها لكنها أصبح لديها حسن ابنها- ولو لم يكن بالميلاد- وليست على استعداد مطلقًا أن يناله ما نال أبيها وأحبائها على يد تلك الخبيثة..

«أخبريني الآن بما تخفيه عني يا أم الولد» قالها عليّ بنبرة هادئة- على غير ما توقعت درة- وهو يتجه للجلوس بجوارها؛ مما جعلها تتنهد طويلًا ثم تقترب منه هامسةً بصدقٍ: «أحب تلك العبارة منك يا عليّ؛ صحيحٌ أنَّ الكل يعاملني وكأنني أم حسن الحقيقية حتى هو لكن حين تصفني أنت بذلك أمرٌ آخر» ابتسم رغمًا عنه وقال: «فلتخبريني يا أمه ماذا ألم بهذا الولد مؤخرًا» صمتت لثوانٍ ثم قالت:

- أنا لا أعرف شيئا بعينه لكن التغير الذي طرأ عليه لم يكن ليخفى عليّ، لقد لاحظت في الأسابيع الأخيرة أنك تعود دائمًا في المساء بدونه وكل ليلة يتأخر هو في العودة، جربت أن أسأله أين يقضي المساء فقال لي باختصار مع بعض الأصدقاء، حتى.. حتى..

- أكملي يا درة، حتى ماذا؟

- ذات يوم طرق بابنا بعض الأغراب عن طريق الخطأ وهم يسألون عن الخان فوقفت أشير لهم نحو طريقه الصحيح لأرى حسن يدخل إليه بصحبة فتاةٍ تبدو من جواري الخان، يومها انتظرته حتى أسأله حين يعود عن حقيقة الأمر؛ فليس من شيم رجالنا مرافقة الجواري في الخانات يا عليّ أليس كذلك؟!..

- بالطبع يا درة، أكملي أرجوكِ..

- ماذا أكمل؟ لقد حدث ذلك ليلة أن رأيتكما سويًا في الحديقة، وأنت

ليلتها قلت أثناء العشاء أنه لم يعد يذهب إلى الساحة كثيرًا؛ وانشغلت أنا بخوفي من تعلقه بالساحة والملاعيب وكل ذلك الأمر ونسيت أن أسأله عن تلك الجارية..

هز عليّ رأسه في تفهمٍ وقال وهو ينهض متناولًا عباءته: «في تلك الليلة كنت انتظر عودته في الحديقة لأني رأيته قادمًا من جهة الخان؛ بعد أن لوح لجارية كانت تقف في إحدى المشربيات» أسرعت وراءه وسألته:

- وهل سألته عنها؟

- ليس بالضبط، لقد شعرتِ بعودتنا وخرجتِ إلى الحديقة قبل أن يجيب..

فالتفتت نحوه فجأةً وهي تشهق وسألته: «أتظنه كان يعلم بوجود دليلة في الخان؟» توقف للحظة يتطلع إليها في صمتٍ للحظات ثم تركها واندفع نحو باب الدار، أسرعت خلفه تستوضح ماذا ينوي لكنها توقفت مكانها دون أن تنطق بحرفٍ، كان من الواضح أنه لن تمر الليلة حتى يحصل على جوابٍ شافٍ..

لم يتغير أبدًا منذ عرفته؛ نفس خوفه وحرصه على كل أحبائه، إنها تعرف عنه ذلك حتى قبل أن تراه؛ وتذكر جيدًا ما حكاه أبوها عن تلك الفترة التي لازمه فيها لعدة شهورٍ قبل عودته إلى الإسكندرية، تذكرها لأنها تذكر تألمها وغيرتها وحسدها لزينب التي بذل من أجلها عليّ كل ما بذل، لقد حكى أبوها عن كل شيءٍ عاشه في المحروسة في ذاك الوقت؛ وكل شخصٍ عرفه أو حتى صادفه ولو لمرة، فوجدت نفسها تعرف الجميع قبل أن تراهم، وفي ذلك الزمن لم تكن تدري حتى أنها يومًا ما ستراهم!..

لقد عاد شومان إلى الإسكندرية بعد شهورٍ عديدة- قاربت على العام- قضتها هي وأمها وحيدتين، طوال عمرها كانت أكثر قربًا لأبيها؛ لكنها في

تلك الشهور اكتشفت أنها نسخةٌ مصغرةٌ من أمها في كل شيءٍ تقريبًا، لذا أصبحتا كصديقتين أكثر منهما أم وابنتها، وحين عاد شومان شعرت درة بسعادتين؛ الأولى لعودة أبيها الحبيب الذي افتقدته كثيرا، والثانية لسعادة أمها التي رأتها أمامها وقد تحولت إلى عروسٍ صغيرةٍ تنتظر قدوم عريسها بلهفةٍ وخجلٍ وترقبٍ، لذلك استأذنتهما درة في زيارة عمتها لعدة أيامٍ؛ عادت بعدها ليأخذها أبوها دون أن يقصد ويلقي بها في قلب المحروسة ويلقي بعليّ الزيبق في قلبها!..

رغم انشغال شومان بالبحث عن مسكنٍ لولده زياد ودكانٍ صغيرٍ لإعالته؛ إلا أن الهواجس ظلت تطارده حول خطورة الأمر الذي جعل السيدة فاطمة تفكر في لَمِّ شملهم من جديدٍ، وحين قص عليه عليٌّ كل ما مر به مع الكلبي ورجاله طوال الشهور الماضية وما آلت إليه الأمور في النهاية؛ تيقن من هواجسه، لذلك كان الجميع- عليّ وفاطمة وشومان وحتى زياد- في حالة تأهبٍ خفيةٍ لوصول عمر الخطاف من الشام لينظروا ماذا سيفعلون؛ وإن اتفقوا جميعًا بصورةٍ ضمنيةٍ على متابعة الصراع ضد الكلبي ودليلة، وفي تلك الأثناء كان عليٌّ حريصًا على أن يتمرن باستمرار؛ فمن ناحية كان يدرك أن أي خطوةٍ تاليةٍ ستحتاج منه لكل مهارته وتركيزه؛ ومن ناحية أخرى كان يحاول تناسي الملل الذي أحاق به من تخفيه المستمر خلف قناع خاله!..

حتى جاء يوم طُرق فيه باب الدار ثلاث طرقاتٍ خفيفةً متبوعةً بطرقةٍ ثم طرقتين؛ فهتفت فاطمة من داخل الدار: «إنه عمر!» تبادل عليّ مع شومان النظرات في سرعةٍ ثم أسرع ليختبئ بعيدًا عن الباب بينما تقدم شومان لفتحه، «يا الله! سيد شومان! غير معقول!» هتف بها عمر الذي كان واقفا على الباب فجذبه شومان من يده إلى الداخل ضاحكًا وهو يغلق الباب سريعًا وقال:

«لازلت صاخبًا كما أنت أيها الشامي» وتعانقا ضاحكين لعدة دقائق؛ خرجت خلالها فاطمة من الداخل وعاد عليّ ليقف بجوار شومان، «رأس الغول!» قالها عمر وعيناه تتسعان رغمًا عنه وهو يتطلع إلى عليٍّ الذي وقف مبتسمًا بجوار أمه، ابتسمت فاطمة بدورها وكأن العبارة زادت من سعادتها وقال: «كيف حالك يا عمر؟» التفت إليها وأمسك بكفيها يقبلهما سويا وهو يقول: «سيدتي، أنا بخير إن كنتم جميعًا بخير» تقدم منه عليّ فضمه عمر في قوةٍ دون مقدمات، عانقه كأنه يعانق رأس الغول ودمعت عيناه وهو يقول في خفوتٍ: «ظننت أنني حرمت أخي وصديقي ومعلمي حتى الممات» وابتعد قليلًا ينظر إلى عليّ وأكمل: «فضل الله عظيم، فضل الله عظيم» سأله عليّ وهو يجلس بجواره في لهفة: «هل أشبه أبي إلى هذه الدرجة؟» ابتسم عمر وهو يتأمله دون ردٍ بينما قال شومان ضاحكًا: «يشبهه قلبًا وقالبًا؛ صدقني» التفت إليه عمر وضحك بدوره وهو يسأله:

- علمت بأنك أصبحت رب أسرةٍ كبيرةٍ يا سيد شومان!

- ليست كبيرةً جدًا، بعد قليل أعرفك على زياد ولدي ابنةٌ تكبره تدعى درة

- أنا ما رزقت سوى زهرة..

تدخلت فاطمة وهي تحضر لهم الطعام في الحديقة وقالت مبتسمةً:

- أكاد أجزم أنها طفلةٌ جميلةٌ.

- لم تعد طفلةٌ يا سيدتي؛ إنها شابةٌ الآن.

لم يدرِ أحدهم كيف مر الوقت سريعًا وسُرقت منهم الشمس ليفاجأوا بنسائم المساء الخريفية تورثهم بعض البرودة، نهضت فاطمة تلملم شالها حول كتفيها وهي تهم بالدخول إلى الدار قائلةً: «لقد أصبح الجو باردًا؛ تفضلوا إلى الداخل» وفي الداخل كانت أولى جلسات عيَّاقي رأس الغول

الملتفين حول عليٍّ وأمه ليروا ما عليهم فعله، قصَّ عليٌّ على عمر سريعًا كل ما وقع له مع الكلبي ورجاله وحتى ظهور دليلة، وسمع عليٌّ من شومان وعمر الكثير من الأمور التي لم يكن على درايةٍ بها، فالكلبي فيما مضى كان شيئًا آخر غير الذي هو عليه الآن، قال شومان: «ذات نهارٍ؛ تجمهر الناس حول وكالة أحد الأكابر يشاهدون ذلك الحمال المعدم الذي فوجئوا به يسقط ميتًا أسفل أحد الأجولة، ظل هؤلاء المتجمهرون يتندرون بحكاية الحمال المسكين وابنه الذي ظهر فجأةً ليلقي بنفسه فوق جثة أبيه صارخًا ومتوعدًا كل الأكابر بالويل والهوان، فالفتى لم يكذب في وعيده أبدًا» قالها وهو يشرد قليلًا فسأله عليّ: «أكان هذا الفتى هو صلاح الكلبي؟» أومأ له شومان بالموافقة وقص عليه كيف كان الكلبي مجرد شابٍ فقيرٍ شهد له الناس بحسن السلوك في كل المحال والدكاكين التي كان يعمل بها لمساعدة أبيه في إعالة أسرته، لكن بعد مقتل أبيه رفض خدمة الأكابر أو الخضوع لإذلالهم مرةً أخرى، واستغل ما حباه الله من قوة وشباب ليتحول إلى قاطع طريقٍ مروعٍ؛ لم تسلم قافلةٌ لأحد الأكابر راحلةٌ أو آتيةٌ من جبايته، تنهدت فاطمة وقالت: «حينما قص علي رأس الغول حكايته أشفقت عليه بعض الشيء والتمست له بعض العذر فيما أصبح عليه، لكن شعور الشفقة هذا ذهب تمامًا بعدما سمح لتلك العيّاقة الماكرة باستغلاله لمصلحتها فيعود من جديد خادمًا للأكابر والأعيان ولكن بمقابلٍ سخيٍّ هذه المرة» لم يفهم عليّ من تقصد في البداية؛ لكنه بعد لحظةٍ رفع حاجبيه وهتف: «أتقصدين دليلة! أهي كانت عيّاقة أيضا؟!» جاوبه عمر هذه المرة فقال:

- عيّاقةٌ داهيةٌ يا عليّ، تتلون كتلون الحرباء وربما بيُسرٍ أكثر..

- وهل هذا ممكن؟! أعني هل من الممكن للعايق أن يكون على هذه الدرجة من الخداع؟!

أشار عمر نحو القناع الذي صنعه عليٌّ لملامح خاله وسأله:

- ألست أنت من صنع هذا؟

- نعم، ولكنه بدائيٌ جدًا ومن السهل أن ينكشف لولا أن كل من رأوني به لا يعرفون ملامح خالي جيدًا وأيضًا لا يعرفون صوته الذي لم أتمكن من تقليده أبدًا..

كان المساء قد انتصف فنهض عمر قائلا: «علي أن أمضي الآن فابنتي وحدها لدى بعض الأقارب» نهضت فاطمة بدورها وهي تقول لائمةً:

- ابنتك في المحروسة ولم تقل يا عمر! أين تركتها أيها الشقي؟

- عند واحدةٍ من قريبات أمها رحمها الله

قالها وقبل كفيها مثلما فعل عند قدومه واتجه نحو باب الدار مشيرًا إلى عليّ: «أعاهدك برأس أبيك يا عليّ أن أجعل منك ذلك العايق الحرباء وربما تفوقت على دليلة أيضًا» وتركهم يضحكون جميعًا وذهب..

لم ينم عليّ تقريبًا في تلك الليلة وقد تزاحم كل شيء في رأسه رغمًا عنه، لذلك نهض مسرعًا فور أن طُرق الباب بالطرقات المحفوظة وهو يتمنى أن يكون عمر، فتح الباب ليجده شومان الذي دلف سريعًا وهو يدفعه إلى الداخل هامسًا: «هل جننت! تفتح الباب بوجهك الحقيقي وفي وضح النهار؟!» ألقى عليّ جسده فوق مصطبة الحديقة وهو يشعر بالغباء لتسرعه فاعتذر قائلًا: «عذرًا يا سيد شومان؛ فأنا لم أنم طوال الليل تقريبا ورأسي مشوشٌ تمامًا» ربت شومان على كتفه وابتسم وهو يجلس بجواره قائلًا: «لا عليك، أنا ما لُمتك إلا لأنك أنت أردت التخفي عن عيون الكلبي ورجاله، صحيح أننا لم نضع خطةً لما سنفعل ولكن علينا التمسك بالتفكير بحكمةٍ ورويّةٍ» هز عليّ رأسه متفهمًا بينما أكمل شومان ضاحكًا: «وإذا كان عمر سيجعل منك

عياقًا ماهرًا في التنكر مثله فليس أقل من أن أورثك بعض حكمتي يا فتى» خرجت فاطمة على صوت ضحكاتهم لكن قبل أن تلقي عليهم الصباح سمعوا نداء السقاء وهو يقول بصوته الجهوري: «يعوض الله..اشرب يا عطشاااان.. سلسبيل يا نيل.. يعوض الله» فأسرع عليّ وشومان إلى داخل الدار بينما اتجهت فاطمة نحو الباب تفتحه قبل أن يطرقه السقاء العجوز، مر بعض الوقت وهي تدور معه على الأزيار التي في الحديقة لكنها أسرعت تلحق به لتوقفه حين اتجه نحو الدار لملء باقي الأزيار وقالت: «ممتلئةٌ يا عم ناصح، الأزيار في الداخل ممتلئةٌ» ونقدته أكثر من أجره وهي توصله إلى الباب، لكنه توقف لحظةً واستدار يتلفت حوله في بطءٍ ثم سألها: «أين السيد شمس؟ لم أعد أراه كثيرًا هذه الأيام؟ هل هو مريضٌ لا قدر الله يا سيدتي؟!» تنهدت فاطمة وهي تمتم: «رحمه الله» فهتف يسألها: «ماذا تقولين؟» أسرعت تقول بصوتٍ مرتفعٍ بعض الشيء: «ادع له بالشفاء يا عم ناصح، هو مريضٌ بالفعل» فأسرع يدعو له بالشفاء والصحة وطول العمر؛ الذين لم يعد في حاجةٍ إليهم، «صباح الخير» قالها عمر بلكنته الشامية وهو مقبل على باب الدار- الذي لايزال مفتوحًا- فوقف عم ناصح يتأمله قليلًا ثم سأله: «أنت من الشام يا ولدي؟» وقبل أن يجيبه أسرعت فاطمة تقول: «عمك شمسٍ ينتظرك بغرفته يا عمر» والتفتت إلى عم ناصح تكرر: «ادع له يا عم ناصح، ادع له» ابتسم عمر في ودٍ وهو يربت على كتف عم ناصح ثم دخل إلى الدار؛ بينما عاد هو للدعاء لشمسٍ من جديدٍ!

«لدي فكرةٌ» هتف بها عليّ في ذلك الصباح بعد أن انتهوا جميعًا من تناول الإفطار الذي أعدته فاطمة، التفت إليه الجميع فتابع: «سنعيد الزيبق إلى الحياة من جديدٍ» تأملته فاطمة في صمتٍ ممزوجٍ بنظرات القلق والفخر؛

وابتسم شومان بينما قال عمر ضاحكًا: «كنت أثق أنه بحلول الصباح سيتوصل هذا الفتى لما لا نتوقعه جميعًا» أجابه شومان في جديةٍ: «أيًا ما كانت فكرتك يا عليّ فهي مجرد لعبةٍ في المباراة وليست نهايتها، ما من نهاية للظلم إلا باستمرار مقاومته، والظلم لا يتمثل فقط في الكلبي ودليلة، لذا عليك رفع مهاراتك دائمًا» أومأ عليّ مؤمنًا على كلماته بحماسٍ فعاد شومان يقول: «والآن، هاتِ ما عندك يا بطل»..

في ذلك الوقت كانت دليلة لاتزال في المحروسة رغم مرور عدة أشهرٍ على مقتل شمس؛ أو عليّ كما يظنون، وما وصلهم من أحاديث مسربة من ديوان الوالي أنبأهم أن لدليلة بعض المصالح مع الكلبي وفي مقابلها كانت تحاول إقناع زينب بالموافقة على خطبتها له، بالطبع جُنَّ جنون عليٍّ حين علم بهذا الخبر وفهم سر زياراتها التي قلت عن ذي قبل، «فكر برويّة يا عليّ في كل خطوة لتحقق هدفك؛ وإذا أحسنت فعل ذلك صدقني ستتمكن من إنقاذ زينب أيضا» حاولت فاطمة أن تطمئنه بعد أن سمعوا بالخبر من أحد رجال شومان في الديوان؛ ولأول مرة تشعر أنه مختلف عن ذي قبل حين قال في غضبٍ باردٍ: «سأفعل يا أمي؛ وليكن هذا ثأرًا جديدًا لي عند دليلة»..

بعد مرور أسبوعٍ كانت جلستهم الأخيرة حول عليّ بعدما شرح لهم فكرته وأيدوه فيها وكل منهم أضاف تفصيلةً لإحكامها تمامًا، هتفت فاطمة وهي تدخل حاملةً لهم أكواب العناب البارد: «لو لم أراك بعينيّ ما صدقت أن ذلك الصوت يخرج من حنجرتك!» ضحكوا جميعًا بينما ظل عليٌّ أمام المرآة يكرر مرانه على التحدث بصوتٍ مغايرٍ لصوته تمامًا، أما فاطمة- تلك الفارسة الشجاعة التي قبضت على جمر أحزانها وخوفها بقبضةٍ باردةٍ وساندت ولدها في حربه ضد الكلبي ودليلة- فظلت تتأمله بدموعٍ استطاعت كتمها حتى

اليوم التالي بعدما أتم مهمته في ديوان الوالي وعاد لها بثأر أبيه وخاله..

في صباح اليوم التالي سمعت دليلة طرقًا مُلحًا على باب جناحها بقصر الوالي كادت أن تتجاهله لولا أن ارتفع صوت وصيفتها الخاصة من خلف الباب وهي تهتف: «سيدتي، يا سيدة دليلة الوالي يطلبك في الديوان يا سيدتي!» وبينما نهضت دليلة لتجيب وصيفتها وتستطلع الأمر؛ كانت زينب تكاد تطير من السعادة بعدما وصلتها رسالة عليّ السرية في الليلة السابقة مع وصيفتها ليخبرها أنه علم بالموقف كله وأن كل ما عليها أن تذهب إلى ديوان الوالي حين يطلبها في الصباح..

بعد أقل من ساعةٍ دلفت دليلة في قلقٍ إلى ديوان الوالي لترفع حاجبيها في دهشة حين طالعها وجه ابنتها المبتسم، دارت ببصرها في وجوه الحضور سريعا وهي تقترب من مجلس الوالي فلمحت رجلين خمسينيين تقريبًا يجلسان إلى يمينه وأمام أحدهما كيسان ضخمان من القطيفة، حيت الوالي في ثباتٍ - رغم ما تحمل من فضولٍ- قائلةً: «عِمْت صباحًا يا سيدي الوالي» أومأ لها الوالي في صمتٍ وأشار لها بالجلوس في الجهة المقابلة للرجل بجوار ابنتها ففعلت، وقبل أن تحاول سؤالها عن سر ذلك الاستدعاء المبكر سمعت الحاجب يعلن عن وصول الكلبي، لحظات وكان الكلبي يجلس بجوارها مترقبًا مثلها وأكثر؛ حتى قال الوالي: «هذان السيدان شمس وشومان أخوال عليّ الزيبق ويحملان رسالة كان تركها قبل مقتله في تلك الليلة» نهضت دليلة واقفةً في انفعالٍ بينما صرخ الكلبي: «الزيبق مرة أخرى يا مولاي؟!» أشار لهما الوالي بالهدوء الذي كان صعباً عليهما بعض الشيء وهما يلمحان ابتسامةً متشفيةً في عيون زينب وشمسٍ وشومان، اندفعت دليلة تسأل الوالي:

- وما شأن ابنتي بذلك يا مولاي؟!

-لقد قال السيد شمس أن هناك أمرًا يخصها..

فالتفتت نحوه دليلة في شراسةٍ وهي تسأله: «ما شأنك بابنتي يا هذا؟!» اتسعت ابتسامة شمسٍ وهو يقترب من دليلة ويتطلع في عينيها مباشرةً ويقول:

-أحمل لها رسالةً يا سيدتي..

- رسالةٌ مِمَّن؟!..

أسكتها الوالي قائلا: «دليلة، تعالي واجلسي ودعينا نستمع لما كان يقوله السيد شومان قبل مجيئكما» والتفت نحو شومان وقال: «أكمل ما كنت تقوله يا سيد شومان» فنهض شومان وقال استكمالًا لحديثه السابق: «لقد كنت أذكركم يا مولاي بالرهان الأخير للزيبق مع المقدم صلاح الكلبي؛ والذي كان يقضي بأنه إذا نجح في سرقة بيت المال مرةً أخرى وخرج سالمًا فسوف تعينه مقدمًا للدرك بدلًا من الكلبي، ولوفشل فيكون قد أسلم رأسه للمشنقة، أليس كذلك يا سيدي الوالي؟» أومأ الوالي بالموافقة- وعلى وجهه بدا الاستمتاع بالملعوب الذي شعر به يحاك أمام عينيه- بينما صاح الكلبي هذه المرة في توترٍ: «ولقد قُتل أثناء محاولته ذلك فاستراح وأراح» تقدم شمسٌ هذه المرة وهو يتناول الكيسين الضخمين ويضعهما تحت قدمي الوالي وقال: «لقد سُرقت النقود في تلك الليلة بالفعل يا مولاي؛ وها هي أمامكم بداخل الأكياس التي تحمل خاتم بيت المال» ظهرت الصدمة على وجه دليلة بينما شحب وجه الكلبي حين تذكر أنه نسي أمر سرقة النقود تمامًا وانشغل عنها بفرحته بمقتل الزيبق، قالت دليلة بعد لحظةٍ في هدوءٍ مفتعلٍ: «ماذا تحاول أن تثبت هنا أيها السيد؟! إن وجود تلك النقود بحوزتك الآن دليل على نجاح أحدهم أو نجاحك في سرقتها وفشل الزيبق» تدخل شومان يسأل الوالي:

«هل لو كان الزيبق هو الماثل بين أيديكم الآن يا مولاي لكان فائزًا بالرهان؟» ابتسم الوالي وأجابه فورا: «بالطبع يا سيد شومان» ضاقت عينا دليلة وهي تتفرس في ملامح شومان وشمس، لقد فهمت أخيرًا أن أحدهما هو الزيبق؛ لكنها ظلت صامتةً لتستجمع تفاصيل الملعوب بالكامل في رأسها بينما صاح الكلبي مرةً أخرى: «هذا محالٌ؛ لقد قُتل الزيبق ورأيت جثته بعيني هاتين يا هذا» أجابه شمس في سرعةٍ مستفزةٍ: «وهذا أيضًا صحيحٌ يا سيدي» ضحك الوالي وهو يصفق مثل الأطفال بينما كرر شومان ما قاله منذ قليلٍ قائلًا: «إذن لو أن هذا هو الزيبق بنفسه يا مولاي فسوف تعلن فوزه بالرهان وتوقع فرمانًا بتعيينه مقدمًا للدرك بدلًا من الكلبي؛ أليس كذلك؟»شحب وجه الكلبي تمامًا بينما ابتسمت زينب في سعادةٍ وهي تتقدم من شمس دون أن تلتفت إلى أمها التي رمقتهما بنظراتٍ مشتعلةٍ والوالي يقول من بين ضحكاته: «أنت أبرع من رأيت من العُيَّاق يا فتى» اقترب عليّ من مجلس الوالي أكثر وهو يحني له رأسه احترامًا؛ ثم قال بصوته الحقيقي: «رأيك هذا شرف لي يا مولاي وإن ليس لي فضلاً في الأمر؛ العامة يقولون: ابن الوز عوام» شعرت دليلة بدمائها تتجمد في عروقها حين قال شومان: «الواقف أمامك يا مولاي الوالي ليس عايقًا ماهرًا فحسب؛ أنه ابن المقدم حسن رأس الغول رئيس الشرطة السابق الذي اغتالته يد الغدر ودُس له السم في عقر داره» صمتٌ ثقيلٌ هبط على الديوان لم يتخلله سوى تلاحق أنفاس دليلة والكلبي؛ وصوت نزع عليٍّ لقناعه وتمزيقه أسفل قدمي الوالي لتظهر ملامحه الحقيقية والتي جعلت دليلة تشهق في هلع هاتفةً: «غير معقول!» رمقها عليٌّ بكل الحقد الذي يحمله لها في صدره وقال: «بالتأكيد غير معقول بالنسبة لك يا دليلة أن يفتضح أمرك بعد كل تلك السنوات؛ بل وترين أمامك رأس الغول وكأنه حيٌ لم يمت» ارتجفت زينب وهي تنظر نحو أمها في إشفاقٍ واقتربت تمسك بذراع عليٍّ

وهي تهمس باسمه في رجاءٍ لينظر نحوها في حنانٍ وهو يقول: «ومن غير المعقول أيضًا أن أفعى مثلك يرزقها الله بملاكٍ كهذا؛ التي لولاها ما تنازلت أبدًا عن ثأر أبي» سأله الوالي في جديةٍ:

- أعلم يا فتى أن رأس الغول قتل بالسم؛ لكن مال دليلة وقتله؟
- هي من خططت لقتله يا مولاي.
- أهذا صحيحٌ يا دليلة؟

ظلت دليلة صامتةً للحظاتٍ لا تدري بماذا تجيب حتى أن الوالي كرر سؤاله عليها مرةً أخرى في غضبٍ؛ فأسرعت تنمق الكذبة وقالت متصنعةً الخوف: «عفوك يا مولاي؛ أنا لن أستطيع الإنكار ولكني كنت أنفذ أوامر مولانا والي مصر وقتها» اتسعت عينا الكلبي وقد بدأ يفهم ملعوبها وعرف أنها ستلقي بالأمر كله عليه دون أن يستطيع إثبات عكس ما تقول، سألها الوالي في دهشةٍ:

- وما دخل الوالي السابق بأمرٍ كهذا أيتها المقدم؟!
- إن المقدم صلاح الكلبي يا مولاي متزوجٌ من ابنة عم الوالي السابق، والمقدم رأس الغول كان له بالمرصاد دائمًا لحرصه على حقوق العامة والبسطاء..

قالتها في تأثرٍ جعلها تبدو كالمرغمة أمام الوالي؛ وإن لم ينطلِ ملعوبها هذا على شومان وعليٍّ، ورغم ذلك لم يعلق أحدهما بحرفٍ لأن عليّاً كان يخطط في الأساس لطلب الزواج من زينب في مقابل أن يتنازل عن ثأر أبيه وخاله، أما صلاح الكلبي فأخذ يصرخ: «كاذبةٌ، إنها هي يا مولاي من أتت إلى المحروسة خصيصًا لتجبرني على الخلاص من رأس الغول دون أن أدري سببًا لهذا، كل ما عرفته وقتها أنه أمرٌ من الوالي وأنا لم يكن يعنيني وقتها سوى الاحتفاظ بمركزي مهما كلفني ذلك» ظل الوالي صامتًا يفكر، الوالي السابق

بين يدي ربه الآن ولا يمكنه تأكيد أو تكذيب ما يقال؛ لكن ما تقوله دليلة فيه بعض المنطق خاصةً مع صمت عليّ عن تكذيبه؛ بينما ما يقوله الكلبي كلامٌ يحمل شيئًا من السذاجة التي قد تجعله محض أكاذيب، لحظاتٌ وأشار إلى الحاجب قائلًا: «اذهب واستدعي كاتب الديوان لأملي عليه بعض الفرمانات»..

في الدقائق التالية أصدر الوالي فرمانًا بعزل الكلبي وسجنه ونفذ جنوده الأمر في لمح البصر، ثم أصدر فرمانًا آخر بتعيين عليٍّ مقدمًا لدرك مصر، ثم بدأ يملى على الكاتب فرمانًا بالقبض على دليلة ومثولها أمام القضاء ليختصمها عليٌّ في مقتل أبيه، «اعْفُ عنها يا مولاي؛ أرجوك!» بكت زينب وهي ترجو الوالي لأجل أمها فقال لها: «يا ابنتي لست صاحب الحق هنا» ظلت دليلة جامدةً كتمثالٍ جليديٍ بينما انهارت زينب باكيةً وهي تتمسك بعليٍ في ألمٍ، بعد لحظةٍ قال عليٌّ: «هل يسمح لي مولاي بالتماس؟» أشار له الوالي أن يكمل فقال: «أيعرف مولاي الوالي لِمَ طلبت استدعاء زينب إلى هنا؟» هز الوالي رأسه دون ردٍ فعاد عليٌّ يقول: «أنا أرغب في الزواج بزينب يا مولاي ودليلة ما كانت لتوافق أبدًا على هذا، أنا ساتنازل عن اختصامي لها وألتمس عفو مولاي عنها شريطة أن توافق على زواجي من ابنتها» تطلعت إليه دليلة بحقدٍ شديدٍ بينما تلهفت زينب على جواب الوالي الذي كان صامتًا يفكر، نظر الوالي نحو زينب بعد لحظةٍ وقال: «فيما يبدو أن العروس موافقةٌ أيضًا، أليس كذلك يا زينب؟» هزت زينب رأسها في خجلٍ وتوترٍ وهي تتجنب النظر إلى أمها، لحظاتٌ وأعلن الوالي موافقته فصرخت زينب من الفرح وأسرعت تحتضن أمها؛ التي تصنعت الفرحة وهي تقول بانكسارٍ:

- أشكر لمولاي رحمته وكرمه..

-لكنك ستغادرين مصر يا دليلة

-أمر مولاي؛ لكن لي رجاءٌ..

نظر إليها الوالي في حذرٍ- وكذلك عليّ وشومان- بينما ابتعدت عنها زينب في خوفٍ مما ستنطق به، لم يكن أحدهم يتوقع ما قالته تلك اللئيمة وأقنعت به الوالي من فوره، فلقد أحاطت بكتفي زينب واقتربت بها من عليّ وقالت والدموع في عينيها: «بارك الله لكما يا عليّ، إن كرمك فاق تصوري حقًا؛ ويشهد الله أنني لم أحمل لأبيك أي ضغينةٍ» والتفتت إلى الوالي وأكملت: «إنه لفخرٌ شديدٌ يا مولاي أن تتزوج ابنتي من مقدم دركك، لكن ألست معي في أن هناك كثيرون ممن قد يشككون في مقدرة المقدم عليٍّ على إدارة شئون الشرطة وهو في مثل تلك السن الصغيرة؛ حتى ممن سيعملون تحت إمرته؟» قبض عليٌّ على كف زينب في قلقٍ؛ بينما ظهر الغضب على وجه شومان وهو يسألها بانفعال: «إلى ماذا ترمين؟» قالت في سرعة: «لا أقصد سوى النصح يا سيد شومان» سألها الوالي هذه المرة: «وماذا ترين يا دليلة؟» بدا وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال؛ فأخذت نفسًا عميقًا وقالت في هدوءٍ وهي تربت على كتف عليّ: «إن المقدم عليّ يمتلك من المهارة ما يجعله قادرًا على أن يثبت للجميع جدارته واستحقاقه لذلك المنصب الذي شرفه به مولانا الوالي» سألها عليٌّ في جدية: «وكيف أثبت ذلك في رأيك؟» أجابته في سرعةٍ: «تحضر نفيلة لم يسبقك إليها أحد؛ ولن أطلب سواها مهرًا لزينب» اعترضت زينب قائلةً: «لكني لا أريده أن يثبت لي شيئًا يا أمي!» أسكتها عليّ وسأل دليلة مرةً أخرى: «وماذا تقترحين أن تكون هذه النفيلة؟» تصنعت دليلة التفكير وهي تتحرك في المسافة بين عليٍّ وزينب ومجلس الوالي متمتمةً: «نفيلةٌ تثبت جدارتك في دنيا العياق! مممممم.. ليس القبض على بعض الأشقياء بالطبع، ولا تأمين طرق القوافل لأنها أمور يقتضيها منصبك بالفعل؛ فماذا يمكن أن تكون؟!» والتفتت تنظر نحو الوالي الذي بدا عليه أنه التقط الخيط منها وأدرك الملعوب

الذي ترتبه؛ فقال آمرًا الكاتب: «دون لديك فرمانا بتعليق منصب مقدم الدرك حتى يأتينا المقدم عليّ الزيبق بصندوق التواجيه كنفيلة المنصب» لقد أعجبه ما فعلت دليلة وقرر الاستمتاع به للنهاية، وبينما صمتت زينب لا تفهم ماهو هذا الصندوق كان شومان يتهالك في مقعده دون أن ينطق بحرفٍ بينما أخذ عليٌّ يتنفس ببطءٍ كي يتمالك أعصابه ثم قبل أنامل زينب وقال: «سأفعل يا مولاي إن شاء الله، ليس لأنني قد أهتم بإثبات أي شيءٍ لأحدهم وقد وثق فيّ جلالتكم مسبقًا، بل لأن زينب تستحق مهرًا كهذا» وانفض مجلس الوالي ليخرج عليّ إلى العامة الذين تجمهروا حول قصر الوالي يهتفون باسمه واسم رأس الغول بعدما عرفوا بحقيقة نسبه؛ بينما ذهبت زينب مع أمها لكي تستعدا للسفر إلى بغداد لحين عودته بمهرها؛ فقد كان عليه أن يحضر الصندوق ثم يذهب خلفها إلى بغداد لتزف إليه من بيتها هناك كما هي العادة..

بعد مرور شهورٍ طويلةٍ على ذلك اليوم عاد شومان إلى الإسكندرية وحيدًا بعد انتظام زياد في دراسته وعمله بالمحروسة، كان محملًا بأشواقه لزوجته وابنته وبحكاياتٍ لم يكن يدري أنها آخر عهده بالعياقة، لم تكن درة بدورها تعرف أن تلك الأشهر القليلة التالية هي كل ما تبقى لأبيها على قيد الحياة، ودون سببٍ واضحٍ كانت طوال الوقت تود مرافقته أينما حل أو ذهب؛ حتى أنها كانت ترافقه إلى دكانه في بعض الأحيان، وأصبح لديها معرفة كبيرة بأنواع الغلال ومواسمها وطرق تخزينها أيضًا، وفي أثناء تلك الرفقة علمت بكل ما جرى في المحروسة كأنها كانت معهم، وعرفت كيف أصر عليٌّ على إحضار صندوق التواجيه رغم ما يزعمونه عن قوته السحرية التي تسببت في مقتل كل من حاول إحضاره من مكانه في تلك الجزيرة النائية، في البداية كان الغضب يتملك شومان لدرجة جعلته يرفض هذا الملعوب الذي

دبرته دليلة ببراعةٍ ومكرٍ؛ لكنه تراجع عن رأيه تماما حين طلب عليٌّ منه هو وعمر المعاونة..

شرح له عمر أن كل تلك المزاعم الخرافية حول الصندوق محض خيالاتٍ؛ هو فقط يحتوي على أربعة أحجارٍ كريمةٍ ونادرةٍ كانت مملوكةً لأحد العلماء الراحلين؛ فقال: «لقد سمعت عنه بكل تأكيد لكني لا أدري ما الإعجاز فيه؟ ولا لماذا كان إحضاره بهذه الصعوبة؟» تكلم شومان لأول مرة في تلك الجلسة وقال: «لقد تركه في مغارة في جوف الجبل؛ ما من أحد استطاع أن يقربها دون أن تمزقه السهام المسحورة» صمت عليّ وهو يبتسم بينما مازحه عمر سائلًا: «هل عدنا إذن؟» ضحك شومان ساعتها واحتضن عليّاً في قوةٍ بينما قال عمر: «ليس هناك سهامٌ مسحورة من الأساس؛ إذا عرف سبب كل شيءٍ يا سادة بطل عجبه» وبدأ يحكي لهم ذلك العالم ومهاراته في العلوم، وأغلب الظن أن صندوق التواجيه هذا ماهو إلا فخٌ للجهلاء استخدم فيه ذلك العالم كل ما تعلم طوال حياته؛ والمؤمن بالعلم وحده هو من سيتمكن من حل لغزه..

مضت الشهور التالية بين مزاولة عليّ لمهام منصبه الجديد وبين تجهيزه مع شومان لتلك الساحة المهجورة في نهاية سوق السلاح وتحويلها إلى ساحةٍ لمران العُيَّاق على كل الفنون والعلوم أيضا، هو شخصيًا بدأ يتمرن على مهاراتٍ عديدةٍ لم تخطر بباله يومًا، فبخلاف حيل التنكر والفروسية واللعب بالدبوس لم يظن عليٌّ أبدًا أنه قد يحتاج ذات يومٍ أن يكون على درايةٍ باقتفاء الأثر، أو تحديد الاتجاهات الأربع عن طريق تتبع النجوم، أو يكون عليه أن يدرب نفسه على التعايش في الصحراء بلا طعامٍ ولا ماءٍ لأطول فترةٍ ممكنة، كان عليه أن يحضر نفسه لأي طارئٍ قد يقابله في رحلته القادمة إلى جزيرة الصندوق؛ حتى أنه ذات ليلةٍ أمضى الليل بطوله يضحك على

رد فعل زياد الذي جرب فيه كيفية استخدام المواد المخدرة ومواد الإفاقة، باختصارٍ؛ كان مقدمًا للدرك نهارًا وعايقًا شيطانيًا في المساء!..

كل هذا لم يؤثر في عليٍّ أو يثنيه عن عزمه لقبول التحدي الخفي مع دليلة، لكن ما كان يوجع قلبه حقًّا هو الحال الذي كانت عليه كل من أمه فاطمة وزينب، فالأولى أصبحت صامتةً أغلب الوقت وحائرةً بين خوفها عليه ورغبتها في إثنائه عن سفره القادم؛ وبين قناعتها بضرورة إقدامه على تلك المهمة، والثانية كان يقتلها شعورها بالذنب؛ فلولاها ما استطاعت دليلة استدراجه لهذا الملعوب، وكانت أقسى اللحظات التي مرت عليه حين أتت زينب لتودعه قبل سفرها مع أمها إلى بغداد..

في ذلك اليوم كانوا كلهم مجتمعين في دار فاطمة بعد يوم شاقٍ، فعليّ كان صباحًا في ديوان الشرطة وعمر وشومان كانا في دكانيهما بينما كان زيادٌ يتلقى دروسه في الأزهر؛ وعندما حل المساء تجمعوا كلهم في ساحة الشطار ثم حضروا إلى الدار، حتى زهرة أتت في ذلك اليوم لتتعرف بفاطمة لأول مرةٍ بعد أن أصرت على أن يتركها عمر في رعايتها حين يسافر مع عليّ، وكانت دائما تمازح درة بأنها دخلت دارها وتعرفت بحماتها قبل أن تعرفها هي، وكما لم تنسَ درة مزاح زهرة معها لم تنسَ ما حكاه أبوها عن تلك الليلة ولن تنساه ما حيت!..

كانوا قد فرغوا لتوهم من صلاة العشاء حين سمعوا صوت عربة خيلٍ تتوقف خارج الدار، كانت المرة الأولى التي تأتيه زينب هكذا على مرأىً ومسمعٍ من الجميع بصحبة وصيفتها وسائق العربة، كان قد فتح الباب قبل أن تطل من العربة وكأن قلبه قد شعر بها، تقدم نحوها يمسك بيديها لتهبط بين ذراعيه وهي لا ترفع عينيها الدامعتين عن ملامحه، همست باسمه فلم يستطع

الرد من فوره أمام السائق والوصيفة؛ فأشار لها لتتقدمه إلى داخل الدار، وفي الداخل فتحت لها فاطمة ذراعيها لتتلقى زينب التي بكت على صدرها في حرقة، أطرق الجميع بينما سالت دموع فاطمة بدورها لكنها قالت لها في هدوء: «لا تبكي يا ابنتي؛ إن القدر اختار رجلك ليزرع الرعب في قلوب الأكابر ورجال السلطة الفاسدين؛ وليقوي البسطاء في سعيهم لنيل حقوقهم، إنه بطل ابن بطل وسعيه الآن لإحضار مهرك ورد ملعوب أمك بطولة أيضًا» رفعت زينب رأسها وهي تتمتم في خجلٍ: «أترين ما أعانيه، أمي تسعى للخلاص من حبيبي كما كانت السبب في الغدر بأبيه وخاله من قبل، إني لأتعجب منكِ حقا يا خالتي؛ كيف تتقبليني بعد كل هذا؟!» أجابها عليٌّ هذه المرة ضاحكا: «تلك هي فاطمة يا زينب؛ لا يمكن لأحدهم خداع قلبها أبدًا وهي تحبك، أليس كذلك يا فاطمة؟» ابتسمت فاطمة وهي تسوى خصلات شعر زينب وتقول: «هذا حق»..

تذكُر درة أن أباها أخبرها أن رحلتهم مع عليّ بدأت بعد تلك الليلة بنحو الأسبوع، فترك عليٌّ نائبًا له على رأس الشرطة بينما ترك عمر ابنته زهرة في رعاية فاطمة؛ والتي أصرت على متابعة العمل في دكان أبيها أثناء سفره، وأما شومان فقد سافر وقلبه منشطر لنصفين؛ أحدهما في الإسكندرية مع درة وأمها والآخر مع زيادٍ الذي بقي في المحروسة لمتابعة دروسه والعمل في دكان الغلال، الذي لم تعد درة تذكُره جيدًا هو تفاصيل الرحلة حتى وصل ثلاثتهم إلى جزيرة الصندوق، لكنها أيضًا تذكُر أن أباها وعمر كانا محقين في أن صندوق التواجيه هذا لم يكن يحمل بين جنباته إلى جوار الجواهر الأربع أي شيءٍ له علاقةٌ بالسحر؛ السر كله كان في السبيل للوصول إليه، فحين وصلوا لأرض الجزيرة وبدأوا بحثهم حول المغارة المسحورة- كما يزعم

البعض- وجدوا أن ذلك العالم الداهية قد دفن بطول الطريق المؤدي إلى المغارة عشرات التروس التي كانت تتحكم في انطلاق السهام حتى إذا ما وطئها أحدهم بقدمه انطلقت تمزقه فورًا؛ بينما ظن الناس لسنواتٍ أنها من أفعال الجان حارس الصندوق!..

«لم أعثر عليه؛ ليس في الخان ولا حتى في الساحة!» انتفضت درة حين فوجئت بعليٍّ يدخل عليها وقد تملكته ثورة غضبٍ ممزوجةٌ بالقلق، مرت ثوانٍ وهي تتطلع نحوه بلا فهمٍ فانتبه هو لشرودها وسألها وقد تزايد قلقه: «درة؛ هل أنتِ بخير؟» ودون أن تشعر تجمعت العبرات في عينيها فجأة وأخذت تتساقط بلا وعيٍ منها دون أن تنطق بحرف، جلس عليٌّ بجوارها ووقبض على كتفيها فزعًا وهو يسألها: «هل حدث شيءٌ؟» هزت رأسها نفيًا وألقت رأسها على كتفه تبكي في صمتٍ..

ذكره بكاؤها الآن باليوم الأول بعد زواجهما حين بكت بين يديه وهي بثوب الزفاف معترفةً له بحبها وبخوفها من عدم مبادلتها تلك المشاعر، لقد علم منذ اليوم الأول الذي رآها فيه أنها تكن له مشاعر ما؛ لكنه لم يتصور أن تتحول تلك المشاعر إلى عشقٍ يرعاه ويرعى ولده لسنواتٍ حتى قبل زواجهما، فبعد عودته هو وشومان وعمر بصندوق التواجيه سافر هو مرةً أخرى بمفرده إلى بغداد وتزوج زينب دون أن تتمكن دليلة من الاعتراض، وحين عاد وجد عمر وقد قرر الاستقرار في المحروسة بشكلٍ دائمٍ بعدما تزوجت زهرة من فضل؛ بينما عاد شومان إلى الإسكندرية لزوجته وابنته تاركًا زيادًا لدراسته وعمله في المحروسة، ظن عليّ حينها أن أيامه الصعبة قد ولت؛ خاصةً بعدما أصلح ما أفسده الكلبي في شؤون الأمن وصد عن العامة أطماع الأكابر والسادة الفاسدين؛ وعاونه في ذلك فضل الذي استعان به نائبًا

لكرسي المقدمية، لكن يبدو أن هذا نفسه ما عاد له بالمصاعب والمِحن، فبعد عدة شهور طعم فيها الجميع الراحة والطمأنينة استيقظوا ذات صباحٍ على خبر مقتل عمر المفجع؛ حيث وجد مذبوحًا في الطريق وبجوار جثته ورقةٌ تحمل عبارة «الموت للزيبق» وبعد عدة أسابيع وصلت درة وأمها تحملان خبرًا مشؤومًا مشابهًا عن شومان؛ فقد عثروا عليه مقتولًا بنفس الطريقة، وقبل أن يتمالك أحدهم نفسه اختفى زيادٌ أيضًا دون أثرٍ وبدا كما لو أنه خطف من قلب دكانه في المساء دون أن يشعر أحدٌ، صحيحٌ أن أحدهم لم يمتلك دليلًا على هذا؛ لكنهم كانوا يشعرون جميعًا بيد دليلة تظهر خلف تلك المصائب، صحيحٌ أن زيادًا عاد للظهور بعدها بفترةٍ لكنه كان كأنه شخصٌ آخر؛ صامتٌ على الدوام ومنعزلٌ ولا يرغب في الاختلاط بأحدٍ حتى أمه ودرة اللتين أصبحتا تعيشان معه، وحتى حين أصبحا صهرين بزواجه من درة بعدها بسنوات لم يعودا صديقان كما كانا في السابق خاصةً بعدما هجر دراسته في الأزهر وتحول لملاحقة الغانيات وبائعات الهوى، لم يكن أمرًا مستغربًا أن تريد دليلة الانتقام من عليٍّ الذي قهرها ونال منها ما أراد؛ المدهش في الأمر أن تمتد سمومها لتنال كل من حوله!..

تأمل عليٌّ درة التي نعست على كتفه وهو يدرك تمامًا ما تعانيه من قلقٍ الآن، إن ابنه حسن ولدها الذي كانت حاضرة لتتلقاه في حجرها بينما كانت أمه تلده في ظروفٍ عصيبةٍ عليها وعلى من حولها، فزينب في شهور حملها الأخيرة أضحت واهنةً جدًا وكأن كل الحزن الذي يحيق بها قد تجمع في صورة علةٍ تملكت من جسدها الرقيق، ويومًا بعد يومٍ كانت تفقد قدرتها حتى على تناول لقيماتٍ تسد رمقها، وحتى الصبي حين وُلد كان يبكي بصوتٍ خفيضٍ كأنه يشارك الجميع حدادهم على الغوالي، أو كأنه ينعي أمه التي

أخذت تلفظ أنفاسها الباقية في بعض كلماتٍ همست بها لعليٍّ في وهنٍ: «لا تحزن يا عليّ، أنا نبتة من بذرةٍ فاسدةٍ لا يحق لها تنفس هوائكم الطاهر، عِدْني فقط أن تحب ابني كما أحببتني فليس له ذنبٌ فيما يحمل من دماء أمي كما لم يكن لي ذنبٌ، أنا أموت الآن مسممة بدمها الفاسد ليقتلني كما قتلتْ هي أحبابكم» ولمست وجنتيه الغارقتين بدموعه فضمها لصدره في قوةٍ لتسلم روحها بين ذراعيه..

«حسن، استيقظ» قالتها درة في حزمٍ بعدما دخلت غرفة حسنٍ فور استيقاظها في الصباح لتجده في سباتٍ عميقٍ، تنهدت في راحةٍ أخفتها وهي تمد يدها لتهز جسده في قوةٍ متعمدةٍ وهي تكرر نداءها حتى فتح عينيه بصعوبةٍ وتمتم: «اتركيني يا درة؛ أريد أن أنام» جلست بجواره على الفراش وهي مستمرةٌ في هز جسده قائلةً: «انهض يا حسن قبل أن يستيقظ أبوك فهو غاضبٌ منذ اختفائك ليلة أمس» رفع حسن رأسه عن الوسادة وهو يتطلع إليها بنصف عين وسألها: «ولماذا هو غاضبٌ؟!» أتاهما صوت عليّ هذه المرة من على باب الغرفة قويًا رغم خفوته وهو يقول: «انهض يا ولد والحق بي في الوكالة فورًا» قالها وغادر دون انتظار رده بينما فتح حسن عينيه على اتساعهما وهو يعتدل في الفراش فورًا، كتمت درة ابتسامتها رغمًا عنها وهي تحمد الله سرًا على سلامة ابنها؛ واستدارت تنظر نحوه وهي تشير له بإصبعها قائلةً: «سمعت ما قاله أبوك، هيا»..

«لماذا يا أمي أخفيتِ عنَّا أن أباكِ هو عمر الخطاف؟! إني أشعر بالفخر حقًا لكونه جدي» قالها عمر كاسرًا هدوءه المعتاد وهو ينظر إليها هو وعامرٌ الذي أخذ يلوك إفطاره في صمتٍ، ابتسمت زهرة وهي تقول في شرودٍ: «كذلك أبوك يا عمر كان عياقًا وراميًا ماهرًا؛ وإن كان فضَّل الاهتمام بمهنته أكثر»

وساد الصمت على ثلاثتهم حتى انتبهت زهرة ونهضت في سرعةٍ قائلةً: «منذ الأمس ولم تتوقفا عن الأسئلة حتى أنكما تسببتما في استيقاظنا متأخرين ولن تلحقا الدرس بهذه الصورة» نهض عامر بدوره وهو يقول أخيرًا: «أنتِ تظلميني هذه المرة يا أمي» والتفت مشيرًا إلى عمر وأكمل ممازحًا: «أنا لم أفتح فمي منذ ليلة أمس إلا لتناول تلك اللقيمات» قالها وهو يبتلع ما كان باقيًا في فمه من طعامٍ بصورةٍ مضحكةٍ؛ فلكمته أمه على كتفه وهي تضحك وتقول: «هيا أيها العابثان من هنا، هيا» خرجا مسرعين من أمامها وراقبتهما هي حتى غابا عن ناظريها عند المنعطف القريب..

ازدحمت الأفكار في رأس عمر وهو يراجع كل ما قصته عليه أمه ليلة أمس؛ ويشعر فخرًا لم يألفه من قبل بنسبه واسمه، كان يشعر أيضًا بدهشةٍ من سلوك عامرٍ الذي تحول لبعض الرزانة على غير عادته حتى همس له وهما في الطريق إلى الوكالة: «شعرت فجأة يا عمر أنني لم أعد صبيًّا، مسئولية كبيرةٌ أن تكون ابن فضل الرامي وحفيد عمر الخطاف، أليس كذلك؟!» ابتسم عمر وهو يومئ له موافقًا رغم ما علمه عن ظروف وفاة أبيه في سجنه، بدا له أن دليلة لم تكن لتكتفي إلا برأس الزيبق نفسه حتى بعد كل ما حل به وبأهله؛ وحتى بعد وفاة ابنتها الوحيدة، ففي الوقت الذي قرر فيه عليٌّ دفن أحزانه في مهام منصبه ليظل راعيًا لحقوق العامة والبسطاء من جهة وليمنع عنهم شرور من هم على شاكلة دليلة وأمثالها؛ كان لها هي مخططات أخرى، في ذلك الوقت كانت قد اختفت من بغداد تمامًا بعدما تنحت عن منصبها وقام الخليفة بتعيين أخيها زُريق خلفًا لها في ديوان الشرطة، ورغم ذلك كانت لها مخططاتٍ شيطانية أخذ ينفذها لها بكل دقة بعض الجنود الذين كانوا مازالوا يدينون بالولاء لما تدفعه لهم بسخاءٍ، هؤلاء هم من قاموا باختطاف زيادٍ

ليختفي تمامًا دون أي أثرٍ يذكر؛ ليظل مكانه خفيًا حتى على مقدم الدرك عليّ الزيبق، حينها تأكد عليٌّ أن الفاسدين متوغلون في قلب السلطة أكثر مما تخيل بكثير، وبعدما طالت غيبة زيادٍ قررت درة وأمها التناوب على العمل في الدكان لتدبير أمور معيشتهم وإنْ لم يتخلَ عليٌّ عن رعايتهم حتى ظهر زيادٌ مرةً أخرى، وأما عن زهرة فلم يكن الله قد مَنَّ عليها بعد بالذرية؛ لذلك كانت ترعى حسنًا كما لو كانت أمه وأكثر؛ إكرامًا لجدته وأبيه..

ومرت سنوات وعليّ يحارب ذلك الفساد الخفي قدر المستطاع وساعده في ذلك قبول فضلٍ أن يكون نائبًا له في ديوان الشرطة، ذلك الأمر جعله يشعر بالطمأنينة بعض الشيء، لكن يبدو أنه كان واهمًا إذ ظن أن سلسلة الثأر بينه وبين دليلة توقفت عند هذا الحد، لم يضع في حسبانه أن وقوفه في وجهها هي ومن كانوا على شاكلتها كان سببًا كافيًا لاستمرار هذا الصراع، حتى جاء اليوم الذي فوجئ فيه بفرمان من الوالي رأسًا يقضي بالقبض على فضلٍ وسجنه بتهمة قتل أحد العامة بخنجره الذي سُرق منه قبلها بليلةٍ واحدةٍ، رفض عليّ تنفيذ الأمر وعزل نفسه بنفسه حين أيقن أنه لن يستطيع إنقاذ صديقه؛ لكنه أيضًا أطلق بعض رجاله المخلصين في صفوف الجنود ليبحثوا خلف الأمر فقد كان واضحًا أن به ملعوبٌ خفي!..

حين عاد ليلتها لداره جلس يراقب ولده حسنًا - ابن الثماني سنوات - وهو يلهو مع طفلي زهرة وفضلٍ في صمتٍ، شعر أن درة انتبهت لحالته لكنه أشار لها بالصمت، لكن زهرة سألته فجأةً وهي تهدهد عامراً الذي كان لازال يحبو على أربعٍ: «أين فضل يا عليّ؛ لمَ لمْ يعد معك؟» نظر في وجهها ولم يستطع النطق فنكس رأسه وهو يحمل هم الدنيا فوق كتفيه، لقد فقدت تلك المسكينة أباها والآن قد تحرم أيضًا من زوجها لسبب يجهله وإنْ شعر أن خلفه مؤامرة

تحاك وهو يقف عاجزًا عن كشفها، حين كررت عليه زهرة سؤالها كان صوتها يحمل قلقًا أرجف قلبه هو؛ فلم يجد مفرًا من مصارحتها بكل شيءٍ، ومنذ تلك الليلة هربت من زهرة راحة البال إلى غير رجعةٍ؛ خاصةً بعدما وصلها خبر مقتل فضلٍ في سجنه بالسم!..

وقف عامر يتقصى عن سر ذلك التجمهر القريب من وكالة عليٍّ لكن عمر جذبه من ذراعه ليسرعا الخطى قائلاً: «لقد تأخرنا اليوم كثيرًا»وصلا إلى الوكالة ليقابلا حسن على بابها والدهشة تتملك ثلاثتهم متسائلين عن سر تلك الثورة التي تنتاب عليًا الواقف بالقرب من المخزن وقد تجمع عماله من حوله وبعضٌ من جنود الدرك، «ماذا يفعل جنود الدرك هنا؟!» تمتم عامرٌ بها في أذن أخيه بينما اقترب حسن من أبيه يسأله في قلق: «ماذا هناك يا أبي؟» لكنه تفاجأ بعليّ يستدير نحوه ويدفعه بقوةٍ ردته نحو باب الوكالة وإن لم تسقطه وهو يصرخ: «اسكت أنت، أتفهم؟!» وقف حسن دون أن يفهم سببًا لثورة أبيه إلي هذه الدرجة وقبل أن ينطق بحرفٍ آخر دخل أحد العمال واتجه نحو عليّ قائلًا: «ذلك الرجل حيٌ لم يصبه سوى بعض الرضوض والكدمات؛ ويبدو أنه ظل فاقدًا للوعي لكبر سنه ليس إلا» تنفس عليّ في عمقٍ وهو يعود إلى جلسته بينما صرف حسن العمال كلًا إلى عمله وهم يواسونه بنظراتهم الحميمة وهو يجيب عليهم بمثلها، التفت عليٌّ نحو الجنود وقال في حدةٍ: «أعتقد أنه لا معنى لوجودكم الآن يا سادة، الوكالة كانت مغلقة منذ أمس ولم نفتح أبوابها إلا منذ قليلٍ ورغم ذلك اقتحمتموها وفتشتموها واستجوبتم كل من فيها، أهناك شيءٌ آخر؟!» تبادل الجنود النظرات فيما بينهم وخرجوا دون أن ينطق أحدهم بحرفٍ؛ بينما عاد عليٌّ لثورته وهو يتجه نحو حسن ويجذبه من قميصه نحو المخزن صارخًا: «تعالَ معي» واختفيا بداخل المخزن ليهدأ

كل شيءٍ فجأة!..

مرت الساعات بطيئةً في ذلك النهار دون أن ينطق عليٌّ بحرفٍ واحدٍ منذ أن خرج من المخزن؛ وإنْ ظل يراقب تحركات حسن عن كثبٍ بتفرسٍ ممزوجٍ بالقلق،وظل كذلك كل فترةٍ يرسل أحد العمال لمعرفة ما وصل إليه التحقيق في الحادث الذي استيقظ الجميع على خبره ورأى عامرٌ التجمهر بسببه في الصباح، بمرور الوقت فهم الجميع أن بعض العمال قد عثروا على ذلك الكهل مغشيًا عليه وملقىً في أحد أزقة السوق، الغريب أنه حين أفاق وجد اللصوص وقد سرقوا منه كل ما يملك من نقودٍ وحليّ وتركوا بداخل ملابسه ورقةً مكتوباً عليها كلمةً واحدة «العايق» لكن الأغرب من ذلك أن ذلك الكهل لم يكن إلا المقدم زُريق السماك؛ مقدم درك بغداد!..

دليلك..

أخذت هند تدور حول نفسها في ثورةٍ وهي ترمي أباها بنظراتٍ ناريةٍ بين لحظةٍ وأخرى؛ بينما كان طبيب الوالي يباشره ودليلة تجلس قبالته في صمتٍ، «أريد أن أعرف الآن كل ما وقع منذ ليلة أمس وحتى صباح هذا اليوم» صرخت بها هند فور أن خرج الطبيب ودون أن تمنحه فرصة للراحة، كتمت دليلة ابتسامتها رغم دقة الموقف وهي تكرر سؤال ابنة أخيها في شيءٍ من الهدوء، اعتدل زُريق في فراشه مستاءً منهما لكنه تمتم في ضجرٍ ممزوجٍ بالخجل: «لقد أخبرتكما بالفعل بما حدث، اتركاني الآن لأستريح قليلا» جُنَّت هندٌ أكثر وهي تفتح عينيها على اتساعهما وتهتف باستنكارٍ: «تستريح! هل ستتمكن من الراحة تاركا الحرافيش والعامة يلوكون سيرتك ويتندرون بها؟!» لم تتمالك دليلة نفسها هذه المرة وضحكت في خفوتٍ قائلة: «يالكِ من فتاة! نطقتِ بما رغبتُ في قوله حرفيًا» تناست هندٌ غضبها للحظة وظهر الرضا والفخر على ملامحها وهي تسألها في لهفةٍ: «لدي حقٌّ إذن، أليس كذلك؟!» حولت دليلة نظرها نحو زُريق الذي أغلق عينيه هربًا منهما وهي تهز رأسها قائلة في أسفٍ: «كل الحق!» وقبل أن تقول هندٌ شيئًا آخر سمعوا طرقاتٍ على باب الغرفة فسألت دليلة بصوتٍ مرتفعٍ: «من بالباب؟!» وقبل أن يأتيها ردًا كانت هند تسرع لفتح الباب هاتفةً: «أراهنك أنه حسن» ثم تراجعت في خجلٍ حين أطل حسن من خلف الباب بابتسامته الجذابة قائلًا: «عمتِ مساء يا عزيزتي» تمتمت هند باسمه دون أن تتحرك من أمام الباب حتى ضحك هو قائلًا: «ألن تدعيني أدخل يا هند؟!» ارتبكت أكثر وهي تفسح له الطريق أمام نظرات زُريق اللائمة؛ بينما جلست دليلة في وقارٍ على الأريكة وهي تشير له مبتسمة بالاقتراب قائلة: «تعالى يا حسن» اقترب حسن ليجلس بجوارها وقبل يدها وهو يقول: «كيف حالك يا دليلة؟» ضحكت هي في خفةٍ وهي تضربه على كتفه مداعبةً وقالت: «أمازلت مصرًا على مناداتي باسمي مجردًا يا ولد؟!»

اعتدل وهو يجيبها متصنعًا الاستنكار: «وكيف يمكنني وضع أي لقبٍ يسبق اسم ست النساء؟! اسمك وحده لقبٌ يا سيدتي» وانحنى أمامها لتضحك هي وهند بينما استدار هو ينظر نحو زُريق ويسأله في اهتمامٍ مفاجئٍ: «كيف حال خالي زُريق الآن؟» أجابه زُريق في سرعة: «أنا لست خالك يا فتى!» ضحك حسن في خفةٍ وهو يقول: «أناديك خالي أفضل من أن أناديك جدي أيها المقدم، أليس كذلك» لم يجبه زُريق بينما ضحكت هندٌ مجيبةً:

- هو بخيرٍ يا حسن، طبيب الوالي جاء منذ قليلٍ لرؤيته.

- طبيب الوالي أيضًا! هذا بخلاف الطبيب الذي زاره في الصباح؟

- نعم، لقد أصر الوالي على ذلك.

- يبدو أن الوالي أراد معرفة ما لم يتناقله العامة.

أجابته دليلة هذه المرة في حزمٍ: «بالضبط، لكن أخبرني بهذا الذي يتناقله العامة» عادت هندٌ لثورتها من جديدٍ وهي تقول: «بالتأكيد صارت سيرته حديث السوق كله، لا أدري كيف تخرج مع تلك الجارية المزعومة ملبيًا دعوة سيدتها المجهولة تلك!» قالتها وهي تلتفت نحو أبيها الذي كان أغمض عينيه من جديدٍ، أمسك حسن يدها ليجلس بجوارها وقال: «اهدئي، لا أحد يعلم بأمر تلك الجارية ولا سيدتها، الناس تتحدث فقط عن المقدم زُريق الذي عثر عليه فاقدًا للوعي في السوق بعد أن سرقه اللصوص» ابتسمت من جديدٍ وسألته:

- أحقًا؟! إذن هو أمام هؤلاء الحرافيش مجرد رجلٍ تمت سرقته ليس إلا؟!

- نعم، ولكنهم يعرفون بأمر الرسالة..

- أي رسالة؟!

ارتبك حسن هذه المرة ولم يجب، اقتربت منه دليلة تسأله: «عن أي رسالة تتحدث يا حسن؟!»أسرع زُريق ينهض من فراشه في ارتباك وهو يضع عباءته

على كتفيه ويفتح باب الغرفة هاتفًا: «ألا يمكنني الراحة حتى في غرفتي! أيها الغلام، ابحث لي عن غرفة إضافية لأستريح فيها» قالها وخرج وهو لايزال ينادي على غلام الخان بينما كررت دليلة سؤالها على حسن فتنهد مجيبًا: «حين عثروا على خالي مغشيًا عليه في الصباح عثروا على رسالة بداخل ملابسه تحوي كلمةً واحدةً» صمت لثوانٍ ثم أكمل في خفوتٍ وهو ينظر في عيني دليلة مباشرةً: «العايق» ضاقت عينا دليلة في حقدٍ وتحول وجهها من الترقب للغضب في لحظةٍ؛ فأسرع حسن يقول: «أبي لم يعلم بوجودكما في المحروسة سوى مساء أمس يا جدتي» نظرت إليه للحظةٍ ثم ابتسمت ابتسامةً خفيفةً، إن الفتى يمتلك ذكاءً فطريًا لكنه لايزال ساذجًا، لقد كان أول شيء خطر ببالها حقًا أن يكون عليٌّ أو أحد عُيَّاقه وراء ذلك الملعوب، وكونه لم يعرف بوجودهما سوى بالأمس يؤكد هذا الاحتمال بنسبةٍ كبيرةٍ لا ينفيه كما يظن ابنه؛ وإلا فلماذا لم يرتكب ذلك المسمى بالعايق أية حماقةٍ مشابهةٍ إلا بالأمس وهما في المحروسة منذ عدة أسابيع؟ لذلك؛ فالإجابة المحتملة تدور حول عليّ الزيبق، «قد يكون مجرد لصٍ يريد إضفاء معنىً غير حقيقيٍّ على جريمته» قالها حسن بطريقة جعلت دليلة تلتفت نحوه لتتأمله قليلًا، وقبل أن تجيبه بحرفٍ طرقت إحدى جواري الخان باب الغرفة- الذي كان مفتوحًا- وقالت في احترامٍ: «سيدتي، السيد حسان شاهبندر التجار وبصحبته ابنته في ضيافة الطبيب داوود في ساحة الخان ويطلبان الإذن بالزيارة» ابتسمت وهي تشير إلى الجارية بالانصراف دون كلماتٍ؛ بينما ثارت هندٌ مرةً أخرى وهي تهتف مشيرةً نحو الباب: «يالها من وقحة! أتحمل حالها وتأتي بأبيها إلى هنا لتطارده حتى في مرضه؟!»رفع حسن حاجبيه في غير فهمٍ بينما خرجت دليلة من الغرفة قائلةً: «لا تحاولين خداع نفسكِ؛ رُقيّة لا تسعى خلف أبيكِ هو من يفعل ولذلك أصر على أن توافق على زواجه به في مقابل

موافقته هو على شراكته لأبيها» سألها حسن: «وهل وافقت؟» ابتسمت دليلة في سخريةٍ بينما أسرعت هندٌ تجيب: «لماذا هي هنا الآن في رأيك؟» هز رأسه متفهمًا بينما أشارت له دليلة قائلةً: «ابحث عن زُريق يا حسن ولتعد به حتى نبدل ثيابنا ونسمح لضيوفنا بالصعود إلى غرفته» وأمسكت بذراع هندٍ تجذبها خلفها في حزمٍ..

بدلت دليلة ثيابها ثم جلست تتطلع إلى مرآتها وهي تبتسم مفكرةً أنها فقط بضعة أسابيع تلك التي مرت منذ رأت حسن لأول مرة ومع هذا أصبحت تعامله كأنما تربى على يديها، لقد استطاع ببساطةٍ شديدةٍ أن يكسب حبها وجزءًا كبيرًا من ثقتها رغم أن الشك هو أساس كل علاقاتها بمن حولها، لكن حسن كان تلقائيًا بصورة يسهل معها كشف كذبه فورًا، وهو الأمر الذي لم يفعله مطلقًا حتى الآن، اللهم إلا حين سألته عما يشعر تجاه هندٍ فارتبك دون أن يعطيها ردًا واضحًا؛ مما جعلها تشجع هنداً على التقرب منه أكثر ربما تكسبه زوجًا لها وتنتزعه هي من عليّ الزيبق كما انتزع منها ابنتها فيما مضى..

منذ عدة أسابيع كانت تقف أمام تلك المرآة تستعد للخروج من غرفتها حين أتتها إحدى جواري الخان تبلغها بوجود ضيفٍ في انتظارها، سألتها من يكون فقالت إنه لم يخبرها اسمه؛ فاتجهت لتجلس على المقعد المجاور للمرآة وأشارت لها بأن تدعوه للدخول قائلةً: «ادعيه للدخول» أسرعت الجارية تلبي الأمر لتعود بعد لحظةٍ ومن وراءها شابٌ بهي الطلعة يبدو عليه التوتر بعض الشيء، سألته دليلة في هجومٍ مباغتٍ: «من أنت؟ وما حاجتك؟» توتر الشاب أكثر لكنه أجابها بثباتٍ: «ليست لي حاجة، ربما تكونين أنتِ في حاجةٍ إليّ» أرجعت دليلة رأسها للوراء لتتأمله بصورةٍ أفضل بينما اقترب هو يتأملها بدوره، اندهشت من جرأته لكنها لم تظهر ذلك وسألته مرةً أخرى:

«ماذا تقصد؟» تجاهل سؤالها وانحنى يركع على إحدى ركبتيه أمامها ونظر في عينيها مباشرةً وسألها: «ألا أشبهها بالمرة؟» وبشكل لا إرادي وجدت نفسها تدقق في ملامحه لتشعر أنها بالفعل مألوفة بالنسبة لها، سألته دون أن تحول عينيها عنه: «من تقصد؟» تجرأ أكثر وأمسك بكفها ليضعها على وجنته أمام دهشة الجارية التي أسرعت بالخروج من الغرفة، قال الشاب وهو يضغط كف دليلة على بشرته: «يقولون إن لي عيناها وسمار بشرتها وباقي ملامحي نسخة من حسن رأس الغول» انتفضت دليلة واقفةً وهي تسحب كفها من يد الشاب هاتفةً: «رأس الغول!» وقفا متقابلين أمام المرآة وكل منهما يتأمل الآخر في صمت، لحظات وبدأ الشاب يتحرك وعينا دليلة المسلطة عليه تدمع رغمًا عنها، اقترب منها كثيرًا ونظر إلى ملامحها في المرآة للحظاتٍ ثم سألها: «ماذا ورثتْ منكِ؟ قالوا إنها كانت في سماري بينما أنتِ شهباء، وعينانا أنا وأنتِ غير متشابهتين أيضًا» التفت نحوها وهمس بعينين دامعتين أيضًا: «ماذا ورثتْ أمي منكِ يا دليلة؟» قبضت على وجهه بين كفيها وتركت دموعها تسيل وهي تتمتم: «أمك! أأنت...» ولم تكمل فقط استسلمت له وهو يمسك بكفيها في قوةٍ ودموعه تبللها دون أن يشعر وهو يهمس: «أنا حسن، أنا ابن زينب يا جدتي» بكت كثيرًا وهي ترى تلك العينين لطفلتها وهي تضحك إذا منحتها قطعة حلوى وتبكي إذا نهرتها عن فعلٍ تهواه نفسها؛ بينما يحاوطها سمار بشرتها الشهي وأهدابها التي تشبه فراشةً وليدةً خرجت لتوها من شرنقتها وترف بجناحيها كلما مسها الضوء، «حسن!» همست باسمه بشفتين لم تذق الدموع في حياتها إلا حين فقدت أمه، أخذته بين ذراعيها وحدسها يخبرها أن الولد لها وليس لأبيه؛ وإلا ما كان أتاها من تلقاء نفسه باحثًا عنها وليس عن ثأر قد يكون عليّ الزيبق رباه على الإيمان به، أبعدته عن حضنها لتتأمل ملامحه أكثر ولأول مرة تحمد الله على توقفها عن محاولاتها للنيل من الزيبق؛ مكتفية

بإحراق قلبه على أصدقائه، وإلا كان دمه الآن حائلًا بينها وبين ابن زينب، «دليلة!» التفتا على صوت زُريق الذي وقف عند الباب ومن ورائه هندٌ يتطلعان نحوها هي وحسن في دهشةٍ، أسرعت تجذبه من يده في سعادةٍ وهي تهتف من بين دموعها قائلة: «زُريق، انظر له كم يشبهها» نقل زُريق نظراته بينهما دون فهم بينما سألتها هندٌ: «يشبه من يا عمتي؟» عادت دليلة تهتف: «زينب يا هند، زينب» ومنذ تلك الليلة لم يتخلف حسن عن زيارتها لليلةٍ؛ وكان هذا انتصارًا خفيًا حققته ضد الزيبق دون حتى أن يدري بذلك!..

سمعت طرقًا على باب غرفتها فنادت بصوت مرتفع: «تفضل» فُتح الباب لترى أمامها واحدة من جواري الخان فسألتها: «ما وراءك؟» أجابتها الجارية: «السيد حسن يخبركِ أنه والمقدم زُريق بانتظاركن بالأسفل بصحبة الطبيب داوود والضيفين» ابتسمت دليلة رغمًا عنها وهي تشير لها بالانصراف مع دخول هندٍ تسألها: «أبي ليس بغرفته ولا أجد حسن» خرجت وأغلقت الباب وراءها وهي تصحبها معها قائلةً: «لم يصبر زُريق وأسرع إلى ضيفيه فظل حسن بصحبته بالأسفل» قالتها دليلة وهي ترمقها بابتسامةٍ ساخرةٍ مدركةٌ تمامًا شعورها بالغيظ الذي كتمته هذه المرة؛ ربما لما شعرته من فضولها لرؤية تلك الفتاة التي ستصبح زوجة أبيها، والحق أن دليلة أيضا كانت تحمل بعض هذا الفضول، تمتمت هندٌ وهما تقتربان من مجلس أبيها وضيوفه: «ترى هل سيخبر عروسه الصبية أنه سُرق وهو في طريقه إلى دار تلك السيدة المجهولة بعد أن أسلمته جاريتها لشريكها اللص؟!»لم تجبها دليلة وهي تتقدم نحو رُقيّة تصافحها بطريقةٍ رسميةٍ وتقول: «أهلا بكِ» نهضت الفتاة تصافحها ببرودٍ بينما نهض حسن وزُريق والشاهبندر لاستقبالها هي وهندٍ التي جلست في صمت دون أن تصافح أحدًا، اقترب الشاهبندر ليصافحها باحترامٍ مبالغٍ فيه وهو

يقول: «أهلًا بكِ أنتِ يا سيدة دليلة» جلست دليلة بعد أن صافحته وأجابت: «فلتدعوني المقدم دليلة أيها الشاهبندر» أجابتها رُقيّة هذه المرة وهي ترمي حسن بنظرةٍ جانبيةٍ: «ألم تعتزلي منصبك هذا منذ سنوات يا سيدة دليلة؟!» رمقتها كل من دليلة وهندٍ بنظراتٍ حادةٍ دون ردٍ؛ في حين أسرع الشاهبندر يقول في تودٍ: «المناصب هي التي تتشرف باسمك أيتها المقدم» وجلس مرة أخرى إلى جوار زُريق وهو يستكمل حديثًا قطعاه عند دخولها.

جلست دليلة في صمت تراقب الجالسين من حولها في بعض شرودٍ، فالشاهبندر أخذه الحديث في أمور التجارة والسياسة مع زُريق الذي وافقه في كل أطماعه ونظراته نحو رُقيّة تفضح ولهه، وهندٌ كانت تلاحق حسنًا بحديثها ذي الدلال وهو صامتٌ يحمل ابتسامةً لا تشي بشيءٍ، بينما أخذت رُقيّة تبتعد بنظراتها عن الجميع كظبية اختارت الشرود عن قطيعها، لكن بعد لحظاتٍ ضبطت دليلة نفسها وهي تتأمل حسن دون أن يرمش لها جفن، في كل ليلةٍ تظل تتأمله عن كثبٍ فربما تلملم من عينيه بعض من نظرات ابنتها الراحلة؛ وبعد قليلٍ من الوقت تبدأ أفكارها في الدوران في رأسها من جديدٍ، لم يكن لديها شك في صدق حسن معها؛ لكنها لم تفهم كيف وهو الذي تربى على يدي الزيبق- ومن المؤكد أنه قص عليه تاريخ ما بينها وبينه من صراعٍ- يرتمي في أحضانها هي؟! هل ورث منها حقا حسن التدبير فقرر أن يتخلى عن أوهام أبيه الرومانسية وينشغل بنفسه عوضًا عن انشغاله بالعامة والحرافيش؟! ولم لا؟! ربما تعلم الدرس الذي لم يتعلمه الزيبق من صراعه معها طوال تلك السنوات، فكل الحوادث التي وقعت له بدايةً من مقتل رأس الغول وشمس ومرورًا بتدبيرها للخلاص من معاونيه- شومان وعمر- وحتى مقتل فضلٍ في سجنه واختطاف زيادٍ من دكانه؛ تدلل بما لا يدع مجالا للشك

أنهم- أي العُيَّاق والحرافيش والعامة- لا قبل لهم بمن هي مثلها وأنها هي الفائزة في النهاية..

«وأخيرًا تشرفنا سيادة المقدم في إحدى سهراتنا المتواضعة» هتف بها داوود الطبيب وهو يتقدم من مجلسهم ومن خلفه حضرت الجواري يحملن أطباق الطعام والفاكهة، ضحكت دليلة وهي تتأمل تلك المائدة العامرة التي بدأت الجواري في تجهيزها وقالت: «أمتاكدٌ أنك حفيد شميعة الطبيب يا داوود؟!» ضحك الجميع على دعابتها الثقيلة حتى داوود وهو يجيبها: «لولا الحرص ما تمكنت من إكرام الأكابر أمثالكم يا ست الناس» أجابه حسن ساخرًا: «إن شميعة ليس مجرد اسم رجلٍ؛ إنه فصيلٌ من البشر يتفق أفراده في كل شيءٍ مهما تبدلت الأسماء» تراجعت ابتسامة داوود بعض الشيء حين تذكر أنها كلمات عليّ الزيبق؛ بينما عادت دليلة تشرد في ملامح حسن من جديدٍ، فمنذ سنوات تفوق عمره نظرت لها زينب بعينيه تلك وهتفت من بين دموعها: «لن يمنعني شيء عن عليٍّ يا أمي، كفاكِ ما فعلتِ به وبذويه» كانت دليلة حينها في قمة ثورتها بعدما حطم عليّ مخططها ونجح في العودة بصندوق التواجيه؛ بل وأتى به إلى بغداد للزواج من ابنتها وبتوصية من والي مصر أيضًا؛ وبسببه تنحت عن منصبها هربًا من اللمز الذي قد يحيط بها بعد هزيمتها أمامه، يومها أقسمت أن تحرم عليًّا من كل من ساندوه لتكسر شوكته، وفي الوقت الذي بدأت فيه للتخطيط للخلاص من شومان وعمر علمت بحمل زينب؛ لكن هذا أيضًا لم يوقفها، كانت تخطط للخلاص من معاونيه رويدًارويدًا ثم الخلاص منه في النهاية ومن ثم تسترد ابنتها وطفلها الذي ستنجبه، في بادئ الأمر تخلص رجالها من عمر وشومان وتركوهما ذبيحين في قارعة الطريق بعدما رتبوا الأمر مع رجال المحتسب وبعض جنود الدرك

ليمر الأمر من وراء ظهر عليٍّ ومساعده فضلٍ؛ تاركين بجوار جثثهم عبارة «الموت للزيبق» لتجعله يدرك حجمه الحقيقي مقارنةً بنفوذها حتى وهي خارج منصبها، لم يخطر ببالها يوما أنها ستذوق من نفس الكأس الذي أذاقته منه مِرارًا هو وسواه!..

لن تنسى تلك الليلة ما حيت، كانت تتحضر للنوم حين جاءت وصيفتها لتخبرها أن أحد رجالها يطلب لقاءها فورًا؛ ويقول إنه يحمل أخبارًا من المحروسة تتعلق بالزيبق، كان الوقت قبل منتصف الليل بقليلٍ لكنها أسرعت ترتدي ملابسها ممنيةً نفسها بأخبار ترضيها، دقائق وكانت أمام الزائر الذي ظل صامتًا في ارتباك لبعض الوقت، جلست وهي تكتم فضولها بصعوبة وبادرته قائلة: «قالت الوصيفة أنك تحمل خبرًا عن الزيبق!» هز الرجل رأسه موافقًا وظهر على وجهه التردد قليلًا قبل أن يقول: «لقد توفيت زوجته» ظلت تتطلع إلى وجهه كأنها لم تسمع ما نطق به تؤًا أو كأنه لم ينطقه من الأساس، أطرقت قليلًا وهي تهز رأسها يمنةً ويسرةً كالذي يحاول الاستفاقة ثم رفعت رأسها حين تسلل صوت بكاء وصيفتها إلى أذنيها، تأملتها في سكونٍ مميتٍ بينما قال الرجل في خفوتٍ: «الدوام لله يا سيدتي» وخرج مسرعًا بينما اتجهت الوصيفة نحوها لتربت على كتفها في إشفاقٍ وهي تهمس: «رحمها الله يا سيدتي» هبت دليلة في تلك اللحظة صارخةً: «رحم من؟ هل أنتم مختلون؟ فيمن تعزوني؟ زينب؟ إنها فقط تركتني لتتزوج ذلك العايق لكنها بخير؛ هناك في المحروسة وأنا سامحتها، سامحتها» احتضنتها الوصيفة حين بدأت تبكي بلا شعورٍ وهي تتابع: «أنا لم أخبرها يومًا أني سامحتها؛ بل أنا لم أغضب عليها قط.. أنا لم.. ياااازينب.. آآآآه يا زينب.. آآآه»

اختلط صوت الآهات في ذاكرتها بصوت ذلك العبد الذي كان يصرخ

وداوود يضربه بالسوط على مرأى ومسمع كل من بساحة الخان، لثوانٍ ظلت دليلة غير مستوعبةٍ لما يحدث بينما نهض حسن مسرعًا نحو داوود يحاول انتزاع السوط من يده مهددًا: «ابتعد عن ذلك المسكين يا داوود» فالتفت إليه داوود وقد اشتعل غضبه أكثر حين سحب حسن منه السوط ومد يده للعبد يساعده على النهوض، «أنت على حق؛ هو مسكين فعلًا ومن جنى عليه تلاميذ أبيك من العُيَّاق والعيارين يا حسن» ران الصمت على الساحة تمامًا وكلٌ تجمد في مجلسه؛ بدايةً من ضيوف الخان وسكانه ومرورًا بمطربيه وراقصاته وحتى خُدامه وجواريه، تحدث حسن بصوتٍ ارتجف داوود من شدته فقال: «وما دخل أبي بما تذيقه لعبدك يا داوود؟» ابتلع داوود ريقه وابتعد يقف وسط الساحة هاتفًا: «ذلك الأحمق كان ينقل بعض أجولة الغلال إلى الخان حين قطع طريقه بعض الفتيان ونهبوا حمولته تاركين تلك الورقة معلقة في رقبة حماره» واتجه نحو دليلة ليضع الورقة بين يديها متابعًا: «ورقةٌ مكتوبٌ عليها: العايق» سرت الهمهمات بين الحضور وداوود لا يزال يهدر غاضبًا: «ماذا في رأيك يعني هذا يا سيد حسن؟ تلك هي المرة الثانية التي يقع فيها حادث سرقة ويترك الفاعل وراءه مثل تلك الرسالة» نهرته دليلة هاتفةً: «داوود!» أدرك داوود أن من يعلمون بأمر الرسالة التي عُثر عليها في ملابس زُريق في الصباح ليسوا كُثراً؛ لذلك آثر الصمت وهو يلقي بجسده إلى جوار زُريق الذي كان صامتًا في دهشةٍ ممزوجةٍ بالحرج، وأما دليلة فقد نهضت متوجهةً نحو غرفتها وتركت الجميع خلفها، فكرةٌ واحدةٌ ترددت في ذهنها؛ اعترفت بها لنفسها والتهمت كل أعصابها، فمنذ وطئت قدماها أرض المحروسة وعقلها يفتش عن شيءٍ يقضي تمامًا على ما تبقى من ذلك الزيبق؛ لكن يبدو أنه سبقها هذه المرة في التحرك وأخذ في ترتيب الملاعيب من حولها!..

«هذا اللعين!» تمتمت بها وهي تغلق باب غرفتها خلفها متجاهلةً طرقات هندٍ الثائرة كعادتها، لمَ تنكر على عليٍّ أن يكون البادئ هذه المرة؛ ألم تفعلها هي مرارًا من قبل؟ ألم تكن الملاعيب سجالًا بينه وبينها هي والكلبي فيما مضى؟ أليس هذا عرف العُياق؟ ومبادراته تلك ليست إلا بعض الملاعيب الساذجة لا أكثر؛ هذا لو كان هو من وراء الحادثين من الأساس، أما ما فعلته هي فيما مضى فقط فقد تخطى الملاعيب والحيل ليصبح ضرباتٍ مؤلمةً بحقٍ، من منهم- الزيبق ومن حوله- لا يحمل ألمًا أورثته إياه دليلة؟ وأي ألمٍ أشد من فقدان غواليهم؟ وأي ذنبٍ أشد على الزيبق من أن يكون المتسبب في ذلك؟ وكان هذا تحديدا هدفها الأخير؛ معاقبة الجميع لمجرد أنهم ساندوه وتحدوها ومحاولة الإيقاع بينه وبينهم لكونه السبب في ذلك..

ظلت تدور حول نفسها في بطء وهي تفكر، عليها أن تتأكد إذا ما كان هو الذي وراء حادثي اليوم أم لا، من الجائز أنه أراد ملاعبتها بالأسلوب القديم ليبعدها عن حفيدها لكنها بالتأكيد لن تسمح له؛ ليس بعد الحنين الذي شعرته من حسن، من الممكن أن تبدأ باستغلال ذلك التقارب بين حسن وهندٍ لإشعال وقيعةٍ بينه وبين أبيه؛ فوجه عليٍّ بالأمس- حين اقتحم الخان باحثًا عن ابنه- ينبئها بسهولة استفزازه، وبهذا تبعد تفكيره عما ستفعله لمعرفة الحقيقة..

عادت طرقات هندٍ على الباب من جديدٍ فنهضت تفتح لها الباب قائلةً: «لقد أصبحتِ مزعجةً جدًا يا هند» دخلت هندٌ مندهشةٌ من تبدل مزاج عمتها لتكون قادرةً على المزاح بهذه الصورة، أشارت لها دليلة نحو كتفيها وأعطتها ظهرها فاقتربت هندٌ منها لتدلك لها رقبتها وكتفيها قائلًة: «هل حسن وأبيه وراء ما يحدث حقًا يا عمتي؟» ظلت دليلة صامتةً بضع دقائق- لم تقاطعها هند خلالها- وهي مغمضة العينين تتلذذ بحركات أصابع هندٍ حول عنقها وكتفيها،

ضحكت رغمًا عنها حين تذكرت ملعوب الحمام حين انفرد الزيبق بالكلبي بعيدًا عن رجاله ليس مرة واحدة بل مرتين، وأما هندً فقد زادت دهشتها حين التفتت دليلة إليها وهي مازالت تضحك وتقول: «ربما يكون الزيبق خلف ما يحدث يا هند، لكن أتعرفين أن لملاعيب الغُيَّاق مذاقٌ اشتقت إليه كثيرًا؟» ونهضت فجأةً وهي تفتح باب غرفتها لتطلب حضور إحدى خادمات الخان، وحين حضرت الخادمة تضاعفت دهشة هندٍ من تلك الحماسة التي انتابت عمتها العجوز فجأةً؛ فكل ما طلبته من الخادمة لم يَعْدُ كونه بعض العطارة، وبعد أقل من ساعةٍ عادت الخادمة وهي تحمل صندوقًا بعرض ذراعيها لتضعه على الطاولة وتمنح دليلة مفتاحين؛ أحدهما يخص الصندوق والآخر يخص الباب الخلفي للكرار، نقدتها دليلة مبلغًا ضخمًا من المال وهي تقول: «سأترك هذا الصندوق خارج غرفتي وفي الصباح الباكر تأتين لأخذه و.....» لم تنتبه هندٌ لباقي حديث دليلة مع الخادمة وهي تقلب في محتويات الصندوق التي لم تكن بالفعل سوى بعض الأصباغ والزيوت والعطارة، فقالت مستنكرة: «إنها بعض العطارة ليس إلا!» لم تجبها دليلة في البداية حتى أنهت حديثها مع الخادمة وصرفتها؛ ثم التفتت إلى الصندوق تقلب فيه بدورها وتنتقي بعض المساحيق منه ثم تخلطها بقطراتٍ من زيتٍ ما لتضعها أسفل عينيها ببطءٍ شديدٍ- سببته حركة أناملها المرتعشة- وهي تقول: «ليس المهم ما هذا؟ المهم ماذا سنفعل به؟» وتوقفت في إرهاقٍ وهي تتطلع في المرآة وتقول في غير رضىً: «فيما مضى كنت انتهى من مساحيق العينين في خمس دقائق لا أكثر؛ أما الآن...» وصمتت ولم تكمل وهي تراقب رعشة يديها في غضبٍ مكتومٍ؛ لكن قبل أن تقترب منها هند لتربت على كتفها عادت تتابع ما تفعل، صمتت هند تراقبها للحظة ثم سألتها: «تقولين ماذا سنفعل، هل تعنين أنني سأرافقك يا عمتي؟» التفتت لها دليلة وقالت:

- لو أردتِ..

- بالطبع أريد ذلك بشدة..

- حسنًا..

- لكني لا أجيد ما تفعلينه هذا!

- لا تقلقي..

اكتفت هندٌ بما قالته عمتها وصمتت تراقب ملامح وجهها التي تبدلت رويدًا رويدًا مع كل مسحوقٍ تستخدمه من الصندوق، وحين انتصف الليل كانت دليلة قد تحولت إلى إمرأةٍ أخرى؛ لكن يبدو أن ذلك أخذ منها وقتًا أطول مما اعتادت عليه فلم تشعر هند برضاها عن النتيجة، أسرعت تهتف في انبهارٍ حقيقي: «لولا أني لم أتحرك من الغرفة لما صدقت أن تلك الملامح لكِ يا عمتي! كيف تفعلينها؟ علميني» نجحت كلمات هندٍ في التخفيف عن دليلة قليلًا فأجابتها مبتسمةً: «سأعلمك؛ لكن الآن هيا للنوم ونلتقي في الصباح الباكر لنبدأ، اتفقنا؟»أومأت هند برأسها ثم قبلتها على وجنتها وخرجت..

وفي الصباح- وقبل شروق الشمس بقليلٍ- كانت دليلة تتسلل بصحبة هندٍ نحو «الكرار» وهما تراقبان موضع خطواتهما غير المتضح مع خفوت أضواء المصابيح، في دقائق معدودةٍ كانتا خارج أسوار الخان؛ تسيران وسط ذلك العدد البسيط من المارة في هذا الوقت المبكر، انتفضت هندٌ مفزوعة حين مر السقاء بجوارهما وهو يهتف بصوته الجهوري: «يعوض الله....» أدركها الفزع فأضاعت باقي كلمات عبارته بينما ابتسمت دليلة وهمست لها: «ما بكِ أيتها الخرقاء؟ ألم تسيري في الأسواق من قبل؟» مالت عليها هندٌ وأجابتها بنفس الهمس: «بلى لكني أشعر كما لو كان الجميع يرون ما خلف تلك المساحيق التي وضعتها لي؛ خاصة هؤلاء الذين يمرون بقربنا فجأة» سارت بها دليلة

في الشوارع والأزقة ثم اتجهت بها نحو بعض بائعي الفطائر وهي تقول: «ستتناولين اليوم إفطارًا مميزًا يا آنستي» ورفعت صوتها لتقول بنبرة مغايرة لصوتها تمامًا وبلهجةٍ مصريةٍ خالصةٍ: «فطيرتين واتوصى يا ريس» وتناولت منه الفطيرتين وهي تقول لهند: «تفضلي يا سيدتي بالهناء والشفاء» وخفضت صوتها وهي تقول:

- ما بالكِ لا تنطقين هكذا؟

- لا أستطيع تبديل صوتي أو لهجتي مثلكِ!

- لا تبدليه، تحدثي بصورة طبيعية فأنتِ كما أنتِ؛ آنسة عراقية وأنا خادمتكِ المصرية، كل ما في الأمر أن ملامحكِ مختلفة بعض الشيء..

ودون أن تنتظر ردها بدأت في التهام الفطيرة بنهمٍ حقيقي، بعد دقائق كانتا تسيران بالقرب من وكالة عليّ تتأملان من بداخلها في حذرٍ حتى قالت دليلة: «يبدو أن عليًا لم يأتِ بعد» هزت هندٌ رأسها وهي تكمل: «وكذلك حسن ليس هنا» وتحركتا نحو بائعي الفاكهة والخضراوات القريبين من الوكالة دون أن تدري هندٌ سببًا لأن تحوم عمتها هكذا من حولها، أرادت أن تسألها لكنها رأت في عينيها نظرةً مخيفةً وهي تنظر من جديد نحو الوكالة وهي تهمس: «الزيبق» قالتها دليلة لتلتفت هندٌ متطلعة نحو ذلك الرجل الوسيم الذي دلف لتوه إلى الوكالة، تأملته طويلا قبل أن تقول لعمتها في همسٍ: «إنه رجلٌ بسيطٌ جدًا، لا أصدق أنه هو بنفسه ذلك الزيبق الذي تحكون عنه أساطير!» أدارت دليلة عينيها عنه وهي تقول: «بلى هو» وقبل أن تتحرك شعرت بهندٍ تجذبها من ذراعها في قوةٍ وهي تهمس: «انظري يا عمتي؛ لقد أتى حسن» ورأينه وهو يدخل إلى الوكالة متجنبًا الحديث مع أبيه بينما يلقي عليه الجميع التحية، ظل في مكانه يرنو إلى أبيه بين لحظةٍ وأخرى بينما تجاهله عليٌّ تمامًا، هنا

ابتسمت دليلة مرةً أخرى وقالت:

- يبدو أن بينهما الكثير من المشكلات..

- نعم، يبدو ذلك..

وفجأة تسمرت هندٌ في مكانها وهي تتأمل تلك الحسناء التي وقفت تتبادل الحديث مع حسن والذي بدا مرحبًا بها في شدةٍ؛ فهمست لعمتها في غيظ: «ومن تكون هذه؟!» أمسكت دليلة بيد هندٍ ومضت بها بعيدًا عن الوكالة في سرعةٍ قائلة: «حين تودين القيام بملعوبٍ يجب أن تتناسي مشاعرك الحقيقية وتتقمصي مشاعر الشخصية التي أصبحتِ عليها، هل تلك الآنسة البغدادية تعرف حسن ابن عليّ الزيبق من قبل لتهتم بمن يحادث؟!» لم تجبها هند وهي لم تزد في حديثها، لحظات وكانتا في طريقهما نحو الخان من جديدٍ فسألتها هندٌ في دهشةٍ: «هل انتهى يومنا هكذا؟» ضحكت دليلة وقالت: «بل بدأ لتوه يا فتاة» وانتبهت هندٌ لحظتها إلى أن دليلة تقترب من إحدى الدور فسألتها: «دار من هذه؟» وحين أجابتها دليلة: «دار عليّ الزيبق» توقفت هندٌ جامدةً في مكانها لثوانٍ حتى جذبتها دليلة من ذراعها لتحثها على متابعة السير؛ هنا عادت تسألها في توتر: «عمتي، ماذا تنوين؟» أوقفتها أمامها وهمست لها وهي تتطلع من حولها: «أتستطعين تمثيل دور فتاة خرساء أصابها بعض الدوار؟» تأملتها هندٌ بلا فهمٍ فكررت دليلة سؤالها بانفعال: «تستطعين أم لا؟» أومأت لها هندٌ بلا صوتٍ رغمًا عنها فأشارت لها أن تستند إلى كتفها وتفعلها الآن؛ وحين فعلت اتكأت دليلة على جدار الدار وهي تصرخ: «أدركوني، لقد فقدت سيدتي وعيها، أدركوني»وظلت تكرر صراخها بصوتٍ مغايرٍ تمامًا لصوتها الحقيقي حتى أسرعت إحدى الخادمات تفتح الباب لتنظر ما الأمر؛ ومن ورائها أطلت درة تهتف: «يا الله، ماذا بكِ يا ابنتي؟» تركت دليلة

حمل هندٍ لذراع الخادمة وهي تستند على ذراع درة متمتمةً في تأثرٍ زائفٍ: «هي فتاةٌ مسكينةٌ؛ خرساء يا سيدتي» وأخذت تشيح بذراعيها كأنها تمثل ما حدث متابعةً: «توقفت بجوار داركم فجأةً وأخذت تشير لي إشاراتٍ لم أفهم منها شيئا، ثم اتسعت حدقتاها بشدة وكادت تسقط لولا استندتُ وإياها إلى سور داركم»وجلستْ دون دعوةٍ على الدكة القريبة من باب الدار بينما أجلست الخادمة هنداً بجوارها ودرة تقول: «بعض الماء بسرعة» تنفست دليلة بصوتٍ مسموعٍ وهي تتناول الماء الذي عادت به الخادمة عوضًا عن تركه لسقاية هندٍ؛ أمام ابتسامة درة المدهوشة من خرف تلك العجوز، أشارت درة للخادمة بإحضار المزيد من الماء بينما اقتربت دليلة من هندٍ لتهتف بالقرب من أذنها: «آنسة زبيدة، يا آنستي، أفيقي يا آنستي» وصفعتها عدة صفعات مفاجئة حتى فتحت هندٌ عينيها وهي تئن متصنعة الخوف، شعرت درة بالحرج لتصرف العجوز المتهور هذا فاقتربت من هندٍ تربت على كتفيها في حنانٍ وهي تسألها: «هل أنتِ بخيرٍ يا ابنتي؟» أشاحت دليلة بذراعها وهي تجيبها: «أخبرتكِ يا سيدتي أن الفتاة خرساء فلمَ تسألينها؟» وضحكت بشكلٍ مفاجئٍ وهي تسألها: «هل لنا في بعض الشراب البارد يا سيدتي؟ إن الجو حارٌ وربما هذا ما جعل المسكينة تفقد وعيها» ابتسمت درة وهي تسند هنداً لتدخلها إلى الدار لتستريح قليلا؛ ولحقت بهما دليلة والخادمة..

قضت دليلة وهند بعض الوقت لدى درة ودليلة لا تتوقف عن اختلاق الحكايات عن زبيدة العراقية التي جاءت إلى مصر بصحبة أبويها وما كان يجب عليها الخروج بمفردها مع خادمةٍ عجوزٍ مثلها، ووسط الحديث هتفت فجأةً مخاطبةً هنداً: «حمدًا لله أننا التقينا بالسيدة الكريمة وإلا ماذا كنا فاعلين، تصوري يا آنستي لو صادفنا ذلك المسمى بالعايق ونهب ما نحمل

من أموال أو فضةٍ؟ ماذا كنا سنفعل حينها؟» واستدارت نحو درة التي ظهرت الصدمة على وجهها تسألها: «هل عاد العُيَّاق يا سيدتي للنهب والسلب مرةً أخرى؟ لا أصدق، فالزيبق أخذ عليهم جميعًا ميثاقًا مشددًا من زمنٍ بعيدٍ، ربما هم بعض المطاريد يريدون إحراج العُيَّاق، أليس كذلك؟» هزت درة رأسها في شرودٍ وأجابتها: «ربما» أحضرت الخادمة بعض الشراب فابتسمت درة من جديدٍ وقالت: «تفضلا حتى نجهز الغذاء» هزت هندٌ رأسها بالرفض دون أن تنطق؛ وفهمت دليلة أنها تخاف أن يكشفها حسن إذا رآها، لكنها تجاهلت كل هذا وقالت: «بل دعينا نبقى يا آنستي، هل نحن نصادف أهل الكرم أمثالهم كل نهار؟!»..

مرت عدة ساعات انتصف خلالها النهار، وبينما كانت هند تراقب الدور الذي تلعبه دليلة في انبهار؛ فوجئن بصوت الباب يغلق في عنف شديدٍ وحسن يندفع إلى داخل الدار مخاطبًا درة في ضيقٍ:«لقد تعبت يا أمي، إن عليّاً الزيبق لا يعترف بشيءٍ سوى منطقه الخاص وكفى!»سألته درة في صدمةٍ: «ماذا هناك الآن؟» لكن حسن لم يجبها وتراجع إلى الحديقة مشيرًا بالاعتذار للضيوف، لحقت به درة بينما انصرفت الخادمة لشئون الدار وكأن ما تراه مشهدًا تقليديًا، هذا ما فكرت به دليلة وهي تحاول التنصت على حديث درة وحسن فتسلل إلى سمعها عباراتٍ مثل: «لم تؤذني في شيء».. «هو نفسه لم يأخذ منها ثأرًا لأجل أمي فَلِمَ يمنعني عنها؟!».. «ومن يجرؤ على ذكر العُيَّاق بسوء في وجود الزيبق؟ لم لا يكون هو وراءها؟».. كانت كلها عبارات تنبئها عن وقوع خلافٍ بين حسن وأبيه كما تمنت ودون أي مجهودٍ منها؛ فحفيدها كما يبدو يحمل لها حنينًا لم يتمكن الزيبق من إيقافه..

«إلى أين؟» سألتها درة في دهشةٍ حين خرجت وهي تسند هنداً - التي تصنعت

بعض الإعياء- فأجابتها: «لقد تحسنت سيدتي قليلًا ويمكننا المغادرة الآن» أسرع حسن يقول: «دعيني أوصلكما إذن يا سيدتي» أشارت له هندٌ رفضًا ودليلة تشعر ببرودة كفها المتعلقة بذراعها تزداد فهمست بافتعال مضحك كأنها تفسر له إشاراتها: «عذرًا، فسيدتي خرساء يا سيدي» ثم أكملت وهي تشيح بيدها وتسرع الخطى: «والدار ليست بعيدة؛ تكفي ضيافتكم الكريمة لنا، طاب يومكم» وخرجت تتعلق في ذراع هندٍ ليسرعن الخطى نحو شارعٍ جانبيٍ بعيدًا عن الدار وعن الخان أيضًا..

أخذت دليلة تسير بهندٍ عبر عدة منعطفاتٍ وهي تتطلع نحوها بين لحظةٍ وأخرى كاتمةً ضحكاتها الساخرة بصعوبةٍ، لقد كانت هندٌ تسير دون أن تنطق بحرفٍ أو تتلفت يمنةً أو يسرةً وتبدو الرهبة على ملامحها المزيفة بصورةٍ جليةٍ، بعد دقائق وجدت نفسها أمام مدخل الخان الخلفي فانحلت عقدة لسانها أخيرًا وهمست بإنفعالٍ: «كدتِ تقتليني رعبًا يا عمتي» ضحكت دليلة في خفوتٍ وأجابتها: «لأنكِ غريرة يا صغيرتي» ثم طرقت باب «الكرار» طرقاتٍ خافتة وحين لم يجبها أحد فتحته ودلفت بحذرٍ ومن خلفها هندٌ حتى مرَّتا من أمام المطبخ فوقفت تنادي على الخادمة التي أحضرت لها العطارة بالأمس: «يا دلال، أين أنتِ؟»تسمرت هندٌ في مكانها مرةً أخرى وهي ترى عمتها تعود لتقمص شخصية تلك الخادمة العجوز حتى رأت دلال تتقدم نحوهما لتقودهما نحو غرفةٍ صغيرةٍ في الطابق الأرضي بالخان وناولتهما مفتاحها هامسةً: «لقد نقلت الصندوق في الصباح إلى الساحة وأخبرت الطبيب داوود أن هناك عجوزًا وابنتها جاءتا صباحًا لحجز غرفةٍ وتركتا صندوق ملابسهما، ثم وضعتُ الصندوق بالداخل بعدما أعطاني المفتاح» هزت دليلة رأسها وهي تدخل الغرفة قائلةً بصوتها الحقيقي: «حسنًا فعلتِ يادلال» ثم صرفتها وأغلقت

الباب من ورائها لتلتفت إلى هندٍ وتغرق في موجة ضحكٍ عارمةٍ أمام ملامح هندٍ المأخوذة من المفاجآت التي تضعها بها، لحظات وتوجهت نحو المرآة وهي تقول في جديةٍ: «هذه الغرفة سنعتبرها بيتنا السري الذي سنتحرك منه بشخوصٍ غير حقيقتنا ونعود إليه لنستردها مثلما سنفعل الآن» ثم التفتت تبتسم في وجهها وأكملت: «أنا لا ألوم عليكِ ما تشعرين به، ففي النهاية أنتِ لست عيّاقة ولا تهتمين بالعياقة من الأساس؛كل ما يهمكِ هو إشباع فضولكِ حول حسن، أليس كذلك؟!» تنفست هندٌ في عمقٍ وهي تهز رأسها موافقةً؛ فناولتها دليلة قطعة قماشٍ بللتها بمحلولٍ ما وهي تشير لها قائلةً: «نظفي وجهكِ»...

مر بعض الوقت حتى استعادت كل منهما ملامحها الحقيقة، لكن حين نهضت دليلة تريد العودة إلى غرفتها شعرت فجأةً بصعوبةٍ في الحركة وظهر بعض الألم على وجهها؛ مما جعل هنداً تسألها في قلقٍ: «ما بكِ يا عمتي؟» وقفت دليلة في مكانها بضع ثوانٍ قبل أن تعاود الجلوس مرةً أخرى في إرهاقٍ قائلة:

- أشعر بآلامٍ متفرقةٍ في سائر جسدي؛ لقد بذلت اليوم مجهودًا لم أعد آلفه منذ سنوات..

- سلامتكِ، دعيني أعيدكِ إلى غرفتكِ لتستريحي قليلا..

- انظري الطريق بالخارج أولا..

- حسنًا..

نهضت هندٌ لتفتح الباب في حذرٍ وتراقب ما بالخارج لبعض الوقت ثم التفتت إلى دليلة تشير إليها أن تتقدم، لحظات وكانتا قد خرجتا إلى ساحة الخان دون أن يدرك أحد أين كانتا؛ فمالت نحو دليلة تهمس لها: «أعتقد أنه

يجب علينا المحافظة على العودة إلى الخان في مثل ذلك التوقيت دائمًا كي لا يلتفت إلينا أحد» ابتسمت دليلة وهي تومئ لها موافقةً دون ردٍ، وحين وصلتا إلى غرفتها سألتها هندٌ في دهشةٍ وهي تساعدها على تبديل ملابسها والرقود في فراشها:

- ألم يلتفت أبي لعدم وجودنا كل هذا الوقت؟

- إن أباكِ منشغل بتجارته وعروسه الجديدة يا عزيزتي.

- وأنتِ منشغلةٌ بالزيبق يا عمتي؛ وإن كنت لم أفهم ما الذي استفدناه من زيارتنا اليوم لداره!

قالتها وقد عاودها الشعور بالغيظ مما مرت به فضحكت دليلة قائلةً: «الكثير، فمثلا عرفنا أن حسن يشك في علاقة الزيبق بحادثي الأمس رغم دفاعه الساذج عنه والذي ينبئ عن أنه لا علاقة له بالأمر كما ينبئ عن سلامة طويته وقلة خبرته، وإذا ما تتبعنا هذا الشك جيدًا قد نصل للحقيقة وراء الحادثين، وأيضا تأكدنا أنه أراد العثور عليّ ضد رغبة الزيبق وهذا يؤكد أنه ليس ملعوبًا متفق عليه بينهما مثلا» صمتت هندٌ قليلًا تفكر فيما تقوله دليلة قبل أن تسألها في فضولٍ: «أعلم يا عمتي أنكِ كنتِ عيّاقة ماهرةً حتى قبل أن تصلي لمقدمية الشرطة؛ لكني لا أدرك ماهية ملاعيب العُيَّاق هذه، سمعت الكثير بالطبع عنها وعن الرهان الذي كسبتِه أنتِ من المقدم أحمد الدنف لتحلي محله لكني مازلت لا أفهم كيف يسمح ولاتنا بأن تتحكم ملاعيب العُيَّاق في تعيين رؤساء شرطتهم على هذه الصورة؟!» كانت هندٌ تسألها في خفوتٍ في غير إصرارٍ كي لا ترهقها؛ لكنها فوجئت بها تجيبها فورًا قائلةً: «لا تعرفين ماهية العياقة لأن أحمد الدنف لم يكن له الكثير من الأتباع والخلفاء كحسن رأس الغول في مصر مثلًا، وأنا -بعدما توليت المنصب- قننت احترافها

كي لا يفاجئني عايق يطمع في سرقة الكرسي مني، حتى أن الخليفة العباسي في إحدى السنوات- بعد وصول أبيكِ لكرسي المقدمية- استنجد بالزيبق لإخماد الفتنة التي حدثت في بغداد بين السُنة والشيعة؛ بعدما وقعت الكثير من الحوادث المؤسفة وسالت الكثير من الدماء بعدما عدم رجال السلطة كل حيلةٍ فيها» هزت هندٌ رأسها في غير استيعاب وهي تسأل دليلة: «وهل تزعجكِ الدماء يا عمتي؟!» كانت تسأل في شيءٍ من الدهشة التي استوقفت دليلة لتتأمل ملامحها والمعنى وراء دهشتها، هي تدرك أن اسمها أصبح مرادفًا للغدر والاستهانة بدماء أعدائها؛ لكنها تستطيع تبديل تلك الصورة في عينيّ هندٍ على الأقل وإقناعها أنها مجرد أقاويل فارغةٍ تبناها الخارجون عن القانون ليس إلا، لذلك أجابتها في رويّةٍ متعمدةٍ:

- بالطبع تزعجني، لكن ماذا ستفعلين حين تحاك المؤامرات من حولكِ ويصبح الفائز في السباق هو الأسرع في التخلص من عدوه؟
- لكنكِ أنتِ التي تآمرتِ لقتل رأس الغول دون أن يبادر هو بأذيتكِ!
- من قال هذا؟! رأس الغول كان المعاون الأول لأحمد الدنف في رهانه ضد أبي وهو من سانده للفوز بمقدمية بغداد؛ ومع ذلك لم أدخل معه في صراعٍ إلا حين طلب مني الكلبي مساعدته في التخلص منه..

قالتها دليلة وهي نفسها لا تصدق كذبتها وتدرك جيدًا أنها هي من دفعت الكلبي للخلاص من رأس الغول انتقامًا لما حل بأبيها، عادت هندٌ تسألها: «ولماذا أراد الكلبي التخلص منه؟» عادت دليلة تبحث عن ترتيبٍ منطقيٍ تستطيع به كسب هند في صفها؛ لكن هند تجاهلت سؤالها السابق وسألتها مرة أخرى: «بعدها لاعبتِ أحمد الدنف؛ أليس كذلك؟» تنفست دليلة في عمق وهي تتصنع الإرهاق لتكسب بعض ثوان أخرى قبل أن تنساق وراء سؤال

هند الآخر- مبتعدة عن سيرة رأس الغول والكلبي قدر الإمكان- وتجيبها: «بلى، لاعبته بشرف حتى فزت عليه في الرهان وأخذت مكان أبي منه» ظهرت الحماسة على ملامح هند وهي تهز رأسها في جذل كالأطفال، وما هي إلا ثوان حتى عادت تسأل من جديد: «وماذا يعني الرهان؟ هل الرهان هذا شيء كملاعيب العُياق؟!» ضحكت دليلة رغما عنها من طرافة أسلوب هند وأجابتها:

- ليس بالضرورة، فتعليق الرهان قد يكون حول ملعوب يفوز من يخدع به غريمه أولًا، أو قد يكون حول فعل صعب المنال يفوز من يحققه أولا، لكن في كل الأحوال الفائز به يكون الأجدر من غريمه وبالتالي يكون الأجدر على إدارة شؤون الأمن لأنه أثبت دهاءه مسبقا..

- وأنتِ فزت به ضد الدنف لأنكِ أجدر منه؟

- نعم..

- كيف استطاع الزيبق هزيمتك أنتِ والكلبي معًا إذن؟

سألتها هند في تلقائيةٍ ثم انكمشت على نفسها خشية رد فعلها؛ لكن لدهشتها وجدت دليلة تبتسم في حزنٍ، لم تدرك هند أنه رغم اضطرار دليلة للحديث عن الزيبق ورأس الغول ومع ما يثيره هذا الحديث من ألمٍ وغضبٍ في نفسها؛ إلا أنها مع هذا كانت تجد متعة في رسم الحقائق كيفما تريد أمامها، أجابتها دليلة بعد لحظةٍ:

- لقد استعان بي صلاح الكلبي مرتان في المحروسة؛ الأولى للخلاص من رأس الغول ونجحت بها والثانية للخلاص من الزيبق الذي كان قد أرهقه بملاعيبه الشيطانية والبسيطة في الوقت نفسه..

- ولماذا لا يكون الزيبق مقدما لدرك مصر لو استطاع ملاعبة الكلبي والفوز عليه؛ أليس هذا هو العرف السائد مثلما تقولين؟ أعني لمَ أخذتِ صف

الكلبي ووافقتِ على مساعدته ضد الزيبق؟

شعرت دليلة بصداع يتسلل من رأسها إلى عينيها في وحشيةٍ؛ فأسبلت جفنيها وهي تجيب في بطء يمكنّها من وزن كل كلمةٍ قبل نطقها:

- وافقت لأنني عيّاقة قديمة وأثق في حكمي على الأمور، إن الفرق بين الكلبي والزيبق كان في هدف كل منهما من الملاعيب، وقتها لم نكن نعرف أن الزيبق هو ابن حسن رأس الغول ولكنا تأكدنا من أنه ينتهج نفس أفكاره، فلم يكن ساعيًّا للمناصب التي يمكن كسبها بالحيل والملاعيب وإثبات جدارة فيها؛ بل كان سعيه الدائم في التصدي للأكابر بزعم أن المحتسب والجابي دوما في صفهم وأن الضرائب على تلك الصورة كانت نهبًا لحقوق العامة..

- وهذا الزعم لم يكن حقيقيًّا؟!

ومرة أخرى توقفت دليلة أمام سؤالها دون رد؛ بينما صمتت هند تتطلع إليها في ترقب، ابتسمت دليلة في سخرية مخادعة وقالت: «بالطبع لا، الضرائب مشرعة في كل إمارات الخلافة والولاة يستخدمونها للإنفاق فيما يخدم هؤلاء العامة؛ لكنهم على الدوام يطمعون في المزيد ويتحايلون للتهرب مما عليهم» قالتها وهي تدقق النظر في عيني هندٍ التي شردت لثوانٍ تفكر بينما اعترفت هي لنفسها أنها في البداية كانت مجرد ببغاء تكرر الحجج التي حاكها من سبقوها تبريرًا لأطماعهم؛ وبعد ذلك تبنت تلك الحجج حين أصبح لها هي أطماعها الشخصية كغالبية رجال السلطة!..

عادت هندٌ تسألها من جديد: «إذن الخوف كان من نجاح الزيبق في انتزاع المنصب من الكلبي وتحقيقه لأطماع هؤلاء العامة؛ أليس كذلك؟» صمتت دليلة وهي ترى ابنة أخيها منخدعةً بما تضعه في رأسها من أفكارٍ

رفضتها زينب من قبل واتهمتها حينها بالخداع؛ بعدما كشف لها الزيبق كل ما تفعله هي والكلبي ومن مثلهما بين الحرافيش والعامة، لو فقط انطلت عليها تبريراتها كما انطلت على هندٍ الآن ما كانت خسرتها للأبد، وجدت دليلة نفسها تتمتم: «هو كذلك يا زينب، هو كذلك»لم تنبهها هندٌ لأنها ليست زينب حين شعرت بها تسقط في النوم تدريجيًا، أراحتها في فراشها وهي تدثرها بالأغطية وخرجت بهدوءٍ كي لا تزعجها؛ دون أن تدرك أن ما يزعج دليلة الآن سؤالٌ واحدٌ أخذ يضرب رأسها في قوةٍ وهو يعلو ويعلو لتسمع نفسها تصرخ به فجأةً: «وكيف سيخفى عليها ما وقع لحسن شومان وعمر الخطاف وفضل الرامي؟ كيف؟!» فجأة شعرت بسكون يطبق على كل شيء حولها فاستسلمت له تماما!..

فتحت عينيها بعد لحظاتٍ تدور بها في أنحاء غرفتها الخالية إلا منها وهي تعتدل بصعوبةٍ في فراشها تحاول تذكر تلك الدقائق الفائتة بعد خروج هندٍ، أخذت تتنفس بعمق وهي تفكر كيف سقط الليل سريعًا هكذا؟! لقد نامت إذن دون أن تشعر ودون أن تدرك كم مر من الوقت، تطلعت إلى كوب الماء الممتلئ عن آخره بجوارها في اشتهاءٍ لكنها حين مدت يدها لتتناوله شعرت به أخف من المتوقع؛ وحين دققت النظر إلى زجاجه شعرت بالغيظ لأنه كان فارغًا تمامًا على عكس ما ظنت، نهضت من الفراش ببطءٍ كي لا تؤلمها عضلاتها أكثر وتوجهت نحو المرآة لتسوي هندامها قبل أن تخرج؛ لكنها فوجئت بالباب يفُتح لتدخل إليها هندٌ هاتفةً: «لقد سرق العايق غرفة الطبيب داوود يا عمتي!» ظلت دليلة تتطلع في وجهها لثوانٍ بلا فهمٍ حتى أن هند اقتربت منها لتربت على كتفها في قلقٍ وتسألها: «عمتي، هل أنتِ بخيرٍ؟!» أطرقت دليلة للحظةٍ ثم رفعت رأسها تسألها: «هل سُرقت منه صكوك الدين

التي له عند العامة؟» تراجعت هندٌ في صدمةٍ دون ردٍ بينما أخذت دليلة نفسًا عميقًا ورفعت رأسها لتسبقها إلى خارج الغرفة دون أن تنتظر ردها أكثر من ذلك..

وفي ساحة الخان؛ كان نفس المشهد الذي تفرقوا عليه بالأمس- بعد سرقة عربة الغلال- يُعاد الآن والجميع ملتفون حول داوود الذي وقف يصرخ في ثورةٍ: «أريد أن أعرف ما الذي يحدث هنا؟ من في إمكانه اقتحام غرفتي وسرقة صكوك الدين وبعض النقود تحت سمعكم وأبصاركم أيها المتراخون؟» والتفت يتطلع إلى حراس الخان وخدمه وجواريه الذين اصطفوا بملامح أقل ما تشي به القلق والرهبة، ظل داوود يصرخ ويهدد ويتوعد ذلك العايق الذي نبت لهم من العدم ليقلق راحتهم وينغص كل لياليهم؛ بينما تقدمت دليلة إلى قلب الساحة وهي تتأمل الموجودين، زُريق والشاهبندر ورُقيّة ابنته -التي كانت لاهيةً عمّا يدور حولها في لامبالاةٍ- وبعض الخدم والجواري والعبيد؛ إضافة إلى بعض النزلاء ومرتادي الخان للسهر، ذكرت دليلة نفسها بضرورة معرفة ما وراء تلك البنت رُقيّة فلقد انتقل إليها شعور هندٍ بعدم الراحة لها، اقتربت دليلة من داوود لتقاطع ثورته وتسأله في برودٍ: «كل الصكوك يا داوود؟» نظر إليها داوود في ضيقٍ وأومأ برأسه دون ردٍ وهو يلقي بجسده على أقرب مقعد لديه، فعادت تسأله:

- لمَ لا أرى أحد من الجنود؟ ألم تبلغهم؟

- أبلغتهم وهم في الخارج يعاينون النافذة التي كسرها العايق ليدخل ويخرج دون أن يشعر به أحد من العاملين لدي، أهذا يعقل! يدخل ويعبئ من غرفتي ما يريد ثم يخرج معلقًا رسالته السخيفة التي تحمل اسمه على زجاج نافذتي المكسور، أهو زيبقٌ جديدٌ أم أصبح كل العُيَّاق كالزيبق؟!

تأملته دليلة للحظةٍ قبل أن تتمتم لنفسها: «بل هناك من يريد أن يذكرني أنا بملاعيب الزيبق منذ أن علم بوجودي في المحروسة» سألها داوود عما تقول فرفعت صوتها تسأله: «أين مقدم الدرك؟» أشاح داوود بيديه الاثنتين وهو يقول: «أيضًا بالخارج»وقبل أن تتحرك دليلة لمحادثته وجدته قادمًا يسير في تراخٍ ومن خلفه جنديين يبدوان كنسخٍ مطابقةٍ له في الحركة وتعبيرات المُحيا، وقفت أمامه تسأله في حزمٍ: «ماذا وجدتم يا سيادة المقدم؟» ارتبك للحظة وزالت عنه مظاهر التراخي فجأةً وهو يجيبها:

- لصٌ يا سيدتي، لصٌ لئيمٌ استطاع فتح النافذة والدخول إلى الغرفة وتمكن من سرقة ما يريد لأن الطبيب داوود لم يكن موجودًا..

- أتقصد أن هناك من أخبره أن داوود ليس موجودًا؟

- ربما يا سيدتي، ولم ينتبه أحد لما فعل بسبب الضجيج الذي يعم ساحة الخان أغلب الوقت..

صمتت دليلة تفكر قليل ثم سألته مرةً أخرى:

- تقول إن النافذة وجدت مفتوحة لكنها سليمة؟

- نعم يا سيدتي، زجاجها فقط المكسور

- وماذا عن باب الغرفة؟

- كان سليمًا أيضا يا سيدتي..

التفتت نحو داوود تسأله: «كيف اكتشفت السرقة يا داوود؟» أجابها: «كنت ذاهبًا لإحضار بعض النقود من الغرفة لكني حين دخلتها وجدت أشيائي مبعثرة وكل صكوك الدين منهوبة مع بعض أكياس الذهب» هزت دليلة رأسها وعادت تسألته: «والباب يا داوود، هل كان مغلقًا فقط أم مزلاجه أيضا مغلق؟» تجاهل سؤالها وهو يهب واقفًا ليصرخ في ثورةٍ: «كيف لم أنتبه لهذا؟!»أخذت

تدور حول نفسها مفكرةً بصوتٍ مرتفعٍ: «للوهلة الأولى يبدو أن السارق دخل من النافذة المكسورة؛ لكن النافذة مفتوحةٌ بشكلٍ طبيعي ومزلاجها سليمٌ فما الداعي لكسر زجاجها؟ وكذلك الباب مزلاجه سليم ولكنه غير مغلق، إذن...»وصمتت للحظة بدا التعجب فيها على ملامح الجميع حين بدأوا يدركون منطق حديثها، لحظات وهتف داوود يسألها: «هل هذا يعني أنه.....» قاطعته بإشارة من يدها وهي تجلس في هدوءٍ باردٍ وتغمض عينيها دون ردٍ، بعد لحظات ارتسمت ابتسامة على شفتيها وهي تفتح عينيها متمتمة: «لقد أراد السارق أن نظن أنه أتى من الخارج بعدما كسر النافذة ظنًا منه أننا لن ننتبه لأمر المزلاج السليم وحتى إذا انتبهنا قد لا ندرك الخدعة كما حدث» ونظرت إلى مقدم الدرك الذي ارتسم الإحراج والفضول معًا على وجهه، وأكملت: «ويبدو أيضًا أنه راهن على أن الفزع الذي سيصيب الطبيب بعد نهب أمواله وأوراقه سيلهيه عن ملاحظة أن باب الغرفة ليس مغلقًا بمفتاحه كما هي العادة» نكس داوود رأسه في غيظ وهي تسأل مقدم الدرك في سخرية: «لماذا سيهتم اللص بإيهامنا أنه دخل الغرفة من خارج الخان أيها المقدم إلا لأنه أتى من داخله؟!» فجأة تحول سكون الحاضرين لمزيج من همهات الاستنكار والرعب حتى أن داوود وقف في وسط الساحة يصرخ: «اصمتوا، لن يخرج أحدكم من الخان إلا بعد أن يفتشه الجنود» بدأ بعض ضيوف الخان في الاعتراض على تلك المعاملة المهينة بينما أخذت دليلة تراقب ردود أفعالهم في صمتٍ..

شردت دليلة عما حولها وهي تقارن رغمًا عنها بين تلك الحوادث التي تقع هذه الأيام وبين ما كان يفعله الزيبق في الكلبي والأكابر، فما يرتكبه ذلك العايق يشبه تمامًا ما كان يفعله الزيبق بهدف زعزعة هيبتهم واستعادة

ما كانوا ينهبون من العامة ورده إليهم، لكنها كانت ترفض تصديق ذلك وتقنع نفسها باستمرار أنه يفضل ما يستقطعه لنفسه من الأموال التي يحصل عليها بملاعيبه على أن يوافق على الاتفاق معهم- هي والكلبي والأكابر- على منحه نصيبا من الضرائب التي كانوا يجمعونها، رفضت أن تصدق وجود ميلاد رأس غول آخر يحارب من أجل البسطاء وليس طمعًا فيما هو زائل، وها قد زال وجوده هو شخصيا مخلفًا وراءه العديد ممن اعتنقوا رسالته، وهذا يؤكد حدسها عن أن ذلك العايق إن لم يكن الزيبق فهو واحدٌ ممن تتلمذوا على يديه؛ لكنه أيضًا ليس حسن الذي تأكدت أنه رغم مدافعته عن العامة والحرافيش طوال الوقت إلا أنه ليس من المغرمين بالعياقة وأهلها، تمتمت لنفسها في شرودٍ: «أيكون قد فعلها عُياقك حقًا يا زيبق؟!» انتبهت من شرودها على رؤية حسن الذي دخل توًا من باب الخان؛ وهندٍ التي أسرعت إليه في لهفةٍ وبدا أنها تقص عليه كل ما وقع طوال اليوم في كلماتٍ سريعةٍ بدت دهشته منها على ملامح وجهه وهو يقترب للجلوس بجوار دليلة قائلا: «ما الذي يحدث هنا؟» لم تجبه وتركت هند تكمل له الحكي وهي تنهض مشيرةً لدلال بأن تتبعها رغم خضوع كل الخدم والجواري والعبيد لتفتيش الشرطة، أسرعت دلال تهمس لداوود بشيءٍ فنظر نحو دليلة للحظة أومأت له خلالها ليشير بعدها إلى دلال بالذهاب إليها..

«ادخلي وأغلقي الباب من وراءك يا دلال» قالتها دليلة وهي تريح جسدها على الفراش بينما فعلت دلال ما أمرتها به قبل أن تقترب وتجلس أرضًا بجوار فراشها في صمتٍ قلقٍ، بعد لحظةٍ فتحت دليلة عينيها في تكاسلٍ وهي ترمق دلال بنظرةٍ جانبيةٍ وتسألها: «ليس لكِ دخل بما يحدث في الخان يا دلال، أليس كذلك؟» شهقت دلال وهي تنهض في فزع هاتفةً: «بلى يا سيدتي، أقسم

لكِ!» تأملتها دليلة قليلًا دون ردٍ ثم أغمضت عينيها مرةً أخرى لتتنفس دلال في توترٍ دون أن تدري ماذا تفعل، عادت دليلة تقول في برودٍ وهي مغمضة العينين: «تعرفين بالطبع أنني لا يمكنني التستر عليكِ لو كان لكِ أي دخل» ردت دلال في لهفة: «بالطبع يا سيدتي، بالطبع» ابتسمت دليلة وهي لا تزال مغمضة العينين ترتب في ذهنها كل ما يحدث، ظهور حسن المفاجئ دون أن تبحث هي عنه وتأكدها أنه لا يحمل شيئًا ضدها بعد زيارتها لبيت الزيبق، الحوادث التي بدأت منذ يومين وتعيد لأذهان الناس ملاعيب الزيبق القديمة، كل تلك الأمور تدفعها لضرورة الإلمام بكل شيء له علاقة بالزيبق وأهله وعياقيه؛ حتى ولو كانت ملاعيبه توقفت منذ زمنٍ، فوقوع مثلها الآن وبتلك الكثافة سيعيد للأذهان نغمة التمرد التي رددها العامة منذ سنوات من خلف الزيبق ولم يسكتهم عنها سوى وجوده بنفسه وسط الحكام ليكون صوتهم في بلاط الوالي، لذلك كانت على حق حين تخلصت من رفاقه ورفاق أبيه- شومان والخطاف وفضل- فقد كان هذا هو الأمر الوحيد الذي سيوقفه خوفًا على البقية الباقية من أهله، لقد راهنت نفسها على أنه سينسحب ويترك من خلفه العامة على نفس حالهم السابق خاصة وهو يعلم تمام العلم أنه لولاه ما كانوا تجرأوا على المطالبة حتى بأبسط حقوقهم؛ فما كان ليخسر أكثر مما خسر لأجلهم..

«استمعي إلي جيدا» كانت دليلة تفكر أن عليها مراقبة بعض الأمور بنفسها منذ هذه اللحظة؛ ومعنى هذا أنها ستحتاج للخروج والدخول من الخان بشخصيات أخرى بخلاف الخادمة العجوز، لذلك بدأت في ترتيب الأمر مع دلال بدقة وروية، فطلبت منها أن تحضر لها بعض الملابس والحليّ استعدادًا لذلك،كما طلبت منها أن تقوم بحجز غرفةٍ أخرى- كما حجزت غرفة

العجوز وابنتها- ولكن باسم رجل هذه المرة، وأخيرا طلبت منها أن تبحث وراء كل النزلاء الجدد بالخان؛ ليس فقط من أتوا خلال اليومين الماضيين بل من أتوا منذ وصولها هي إلى المحروسة، «ما بالكِ يا سيدتي؟!» سألتها دلال حين صمتت دليلة فجأة تفكر وطال صمتها قليلا؛ فسألتها وهي تستجمع ما كان يدور في رأسها قائلة: «هل تعرفين امراة تدعى زهرة بنت عمر؟ هي من أصول شامية وكانت متزوجة من مقدم درك يدعى فضلًا الرامي!» كانت زهرة هي الشخص الوحيد الذي لم تعرف عنه شيئًا منذ مقتل فضلٍ في سجنه؛ وهي الشخص الوحيد الذي تخشاه أكثر من الجميع، فمن ناحية كان مصابها من أفعال دليلة مصابين؛ ومن ناحية أخرى هي الوحيدة التي لن تلام لو مدت يدها إليها بالثأر لأنها امرأةٌ مثلها وليست رجلًا يلحقه عار القصاص من امرأة، «الأهم لديَّ الآن أن أعرف مصير زهرة وولديها، أفهمتي يا دلال؟» اختتمت دليلة حديثها بذلك السؤال وهي تنهض متجهةً نحو صندوق ملابسها لتعبث فيه قليلًا ثم تخرج كيسًا ضخمًا من النقود وتلقيه إلى دلال التي تلقفته بنشاطٍ مفاجئ بعدما كانت مستكينةً أرضًا وهتفت: «سيكون أول شيء أفعله في الغد يا سيدتي» هزت دليلة رأسها في رضاً وهي تتثاءب قائلةً: «اذهبي الآن واستدعي سيدتكِ هنداً» فأسرعت تنفذ أمرها، وريثما بدلت دليلة ملابسها استعدادًا للنوم كانت هند تطرق بابها في دهشةٍ قائلةً: «لقد ظننت أنكِ نمتِ!»تثاءبت دليلة مرةً أخرى وهي تتمدد على الفراش وتسألها: «هل مازال حسن هنا؟» ولم يمهلها وعيها للاستماع إلى رد هندٍ؛ فذهبت في نومٍ عميقٍ!..

في صباح اليوم التالي ظلت ممددةً في فراشها حتى بعد استيقاظها وهي تلعن تلك الآلام التي مازالت تنخر عظامها؛ وتتمتم في ضيقٍ: «عليكِ

في المرة القادمة يا دليلة أن تذكري نفسك أن جسدكِ أصبح عجوزًا لا يقوى على مجاراة عقلك أبدًا» وقبل أن تضحك ساخرةً من نفسها انتبهت في قلقٍ على صوت طرقاتٍ مكتومةٍ على باب غرفتها، نهضت في بطءٍ لتفتح الباب في حذرٍ وهي تمسك بالشمعدان المعدني في يدها الأخرى وترفعه لأعلى قليلًا ثم..... «عمتي عمتي، هذا نحن!» فوجئت بهندٍ ودلال تحملان صندوقًا ضخمًا وتقفان به خارج الغرفة لذلك كانت هندٌ تطرق الباب بقدمها بصعوبةٍ، فتحت لهما الباب على اتساعه وهي تسقط في موجة ضحكٍ عارمةٍ شاركتها فيها بلا إرادةٍ وقد وقفت كل منهن تتطلع للأخرى دون أن تقدر على النطق، أخيرًا تمالكت هندٌ نفسها وقالت: «لقد أفزعتِنا يا عمتي!» أغلقت دلال الباب بينما توجهت دليلة نحو الصندوق تقلب في محتوياته وهي لاتزال تفلت منها ضحكات متقطعة حتى هدأت بعض الشيء وقالت: «من يفزعكِ هو في الحقيقة مفزوعٌ منكِ يا عزيزتي» لاحظت دليلة ذلك البريق الذي التمع في عيني دلال بعد كلماتها تلك؛ بينما كان اهتمام هندٍ في تلك اللحظة منصبًا على ما تخرجه هي من ذلك الصندوق الذي لا تدري متى وكيف جهزته دلال بكل ما تراه، «ما كل هذا يا عمتي؟!» وأمسكت عمامةً داكنة اللون ووضعتها على رأسها وهي تضحك وتسأل من جديدٍ: «هل سنخرج في زي الرجال يا عمتي؟!» تجاهلتها دليلة وهي تسأل دلال في اهتمامٍ: «هل فهمتِ مقصدي مما قلته الآن يا فتاة؟!» أسرعت دلال تجيبها: «بالتأكيد يا سيدتي، إذا خشيت شخصًا فلأنني أجهله وهو بدوره يخشاني لأنه يجهلني ولا يدري هل سيتمكن من هزيمتي أم لا، لذلك يبادر بإخافتي ليخفي خوفه مني» ابتسمت دليلة في رضاً كبيرٍ وهي تتأمل دلال في إعجابٍ وتناولت العمامة من يد هندٍ لتضعها بداخل الصندوق مرةً أخرى ثم قالت: «اذهبي إلى داوود يا دلال وأخبريه أني أريدكِ أن تخرجي معي إلى السوق» ظهر الغيظ على وجه هندٍ بينما أسرعت

دلال بالخروج لتنفذ الأمر متمتمةً: «أمركِ يا سيدتي»..

وبينما أخذت دليلة تستعد للخروج كانت هند تذرع الغرفة جيئة وذهابا في ضيقٍ دون أن تنطق بحرفٍ حتى سألتها دليلة متسليةً بحالها: «ما بكِ تشبهين الدابة الدؤوبة على حرثها يا بنت؟!» وكما لو كانت تنتظر الإذن بالنطق أجابتها منفعلة:«كيف تأخذين تلك الخادمة معكِ بدلًا مني؟ ألم تعديني بمشاركتكِ فيما تفعلين؟» التفتت إليها دليلة وقالت في هدوء: «تلك الخادمة يبدو أنها تملك ذكاء قد يفيدني الأيام القادمة، هذا إلى جانب أن لكِ دور لن تستطيع هي القيام به» ارتدت ملامح هند إلى الفرحة في ثوانٍ وهي تسألها: «أي دورٍ هذا؟» لم تلحظ هندٌ بالطبع ارتباك دليلة اللحظي؛ خاصة حين سمعتا طرقًا على الباب فرفعت دليلة صوتها تقول: «تفضل» دخلت دلال وقد بدلت ملابسها وهي تقول: «في خدمتكِ يا سيدتي» خرجت دليلة من الغرفة وهي تسأل دلال التي لحقت بها فورا: «هل علمتِ شيئا عن نزلاء الخان الجدد أو مرتاديه؟» لحقت بهما هندٌ في سرعةٍ كي لا تفوت ما تقولانه بينما أجابت دلال في سرعةٍ: «ليس بدقةٍ يا سيدتي، لكني علمت أن كل من نزل بالخان منذ وصولكِ إلى المحروسة قد غادر فيما عدا رجلاً واحداً؛ أتى منذ يومين تقريبًا ولم يغادر بعد» توقفت دليلة بعد أن دخلن إلى ساحة الخان والتفتت نحو دلال تسألها:

- وماذا تعرفين عنه؟

- اسمه ريحان، عطارٌ جائلٌ أتى من المنصورة بحثًا عن الرزق بعدما خسر دكانه هناك بسبب الديون التي تراكمت عليه، وهو يخرج مبكرًا كل صباحٍ ولا يعود إلى الخان إلا في المساء ولا أراه إلا مع الطبيب داوود أوالسيد زُريق ..

- حقًّا؟! هل كان هنا وقت اكتشاف السرقة بالأمس إذن؟

- نعم، والسيد زُريق هو الذي منع الشرطة من تفتيش غرفته وقال إنه لا يظن أن له يدٌ فيما جرى وإلا فلم سيبقى في الخان بعد ذلك!..

فكرت دليلة قليلًا ثم توجهت لخارج الخان وهي تقول لهند: «فليكن هذا الرجل هو مهمتكِ يا هند، فور أن يأتي أريد أن أعرف كل تفصيلةٍ عنه وعن علاقته بأبيكِ، أفهمتِ؟!» هزت لها هندٌ رأسها في صدمةٍ لم تدهش دليلة التي كانت تعلم أنها لا يمكنها الاعتماد على هندٍ في شيءٍ حقيقي، لم تلتفت كثيرًا للأمر وركزت في مهمتها التي بدأتها فورًا؛ البحث عمن يكون ذلك العايق!..

منذ ذلك اليوم ودليلة تخرج بصورة شبه يومية مع دلال تتجول في الأسواق وترتاد الوكالات والخانات؛ فربما تعرف من أحاديث العامة والحرافيش شيئًا عنه، وفي كل مرة كانت تخرج بوجه مختلف، فمرة تحافظ على وجه الخادمة العجوز لتتمكن من ارتياد الأسواق المتواضعة، ومرة تخرج في هيئة واحدةٍ من نساء الأكابر لترتاد الخانات الفخمة وسوق الصاغة، وهكذا كل يوم تبعًا للمكان الذي تريد التفتيش فيه عن أي سيرة لذلك العايق، كل ما خرجت به من معلومات لم يتجاوز تأكدها من أن ذلك العايق قد أعاد صكوك الدين لأصحابها لتسقط ديونهم لدى داوود؛ ومنحهم بعض من غلاله ونقوده التي سبق وسرقها منه..

مرت عدة أيام وهي على سعيها الدؤوب خلف أي معلومة تدلها على حقيقة العايق؛ مطمئنة إلى أنه ليس حسنًا الذي أصبح يأتي لزيارتها كل مساء بعد انتهائه من عمله في الوكالة صباحًا ولا يعود لداره إلا للنوم، لكنها بعد فترة شعرت أنها تبحث بلا جدوىً أو هدفٍ؛ فحتى الملاعيب توقفت ولم تعد هناك أمورٌ تزعج الأكابر أو تقلقهم!..

«سيدتي!» همست بها دلال في تردد ذات مساء وهي تقدم الشراب البارد لدليلة الجالسة في ساحة الخان بصحبة زُريق ونسيبه الشاهبندر وابنته رُقيّة؛ بالإضافة إلى حسن وهند بالطبع اللذين جلسا بمعزل عن الجميع كالعادة، أومأت لها أن تتابع ما تريد قوله فقالت دلال في بعض الخوف: «إلى متى سيتكرر خروجنا للأسواق والخانات و....» وصمتت دون أن تتمكن من إكمال حديثها؛ فنظرت إليها دليلة لثوانٍ وهي تفكر أن لابد وأن الفتاة قد ملت خروجها معها بصورةٍ شبه يومية وأن المال وحده لم يعد كافيًا لإغرائها أكثر من ذلك، سألتها بعد لحظةٍ بنفس الهمس: «هل مللتِ؟» هزت دلال رأسها بشكلٍ أكد كذبها فابتسمت دليلة ودلال تجيب: «لا لا.. أنا فقط أخشى أن ينال الإرهاق منكِ يا سيدتي، هذا كل ما في الأمر!» هزت دليلة رأسها وهي تنصت قليلًا لغناء ذلك العوّاد الذي أخذ يشدو بموشحٍ قديمٍ لزرياب(*) وفجأة ضحكت وهي تتناول قطعة زريابية(**) من طبقٍ وضعته دلال أمامها مع الشراب منذ قليلٍ وقالت: «روح زرياب تحاوطنا هذه الليلة يا فتاة!» ابتسمت دلال في ترددٍ وهي متوجسة من ردة فعل دليلة على ما قالته منذ قليلٍ؛ لكن دليلة ظلت على ابتسامتها وهي تنظر نحوها وتقول: «فلنسترح قليلًا يا دلال ولا داعي للخروج في الغد» تنهدت دلال في راحةٍ وهي تجيبها فورًا: «أمركِ يا سيدتي، كما ترين» لكنها ظلت واقفةً بجوار دليلة وهي تفكر قليلًا حتى أنها سألتها: «ما بالكِ واقفةٌ هكذا؟! إما أن تجلسي أو تنصرفي» مالت نحوها دلال وهي تقول في

(*) **زرياب**: موسيقي ومطرب عذب الصوت من بلاد الرافدين، عاش في العصر العباسي أيام الخليفة هارون الرشيد وله إسهامات كبيرة في الموسيقى العربية والشرقية، لقب بزرياب لعذوبة صوته وفصاحة لسانه ولون بشرته القاتم الداكن نسبةً لاسم طائرٍ أسود اللون عذب الصوت يعرف بالشحرور.

(**) **الزريابية**: يُقال إنها نوعٌ من الحلوى ابتكرها زرياب وانتشرت ككثير من الأطعمة التي أدخلها إلى المطبخ الشرقي فنسبت إليه وحُرف اسمها بمرور الوقت إلى «زلابية».

حماسٍ: «ما رأيكِ يا سيدتي لو نذهب في الصباح إلى حمام السيدات؟» تأملتها دليلة قليلًا كأنها تزن الاقتراح في عقلها، بدا لها جيدًا بل ومريحًا أيضًا؛ فهي في حاجة إلى الاسترخاء قليلًا والتفكير بشكلٍ أهدأ، ودون أن تجيب دلال شعرت أن الفتاة ستفهمها من نظرتها إليها وهي تبتسم وكأنها تقول: «افعلي في أقرب وقت» الذي لم تتوقعه أن تفعل الفتاة هذا في أقرب وقتٍ حرفيًا، ففي الصباح استيقظت على صوت طرقات دلال على باب غرفتها لتخبرها أنها أعدت كل شيءٍ مع صاحبة الحمام واستأجرت لها أمهر المُدلكات، نظرت لها دليلة في صمتٍ تحاول استيعاب ماقالته تؤًا ثم هزت رأسها وهي تنهض استعدادًا للخروج، لكن فور نهوضها اندفعت هندٌ إلى غرفتها تصرخ: «أدركينا يا عمتي!» واندفعت نحو غرفة زُريق ومن خلفها دليلة ودلال، فور أن دخلت دليلة الغرفة فهمت ما يحدث، فقد كان زُريق ممددًا في فراشها عاري الصدر ولا يرتدي سوى سروال فضفاض وجسده كله مغطى بالبثور، تطلع نحوها في لهفة هاتفًا باسمها فاقتربت منه تفحص جسده عن قرب قائلة: «كيف حدث هذا؟»أجابها وهو يكاد يبكي: «اللعين ريحان؛ إنه مخادعٌ من أتباع ذلك العايق» وقبل أن تسأله عما يقصد مدت لها هندٌ يدها بورقةٍ صغيرةٍ وقالت:»لقد عثرنا على تلك الرسالة في غرفة ريحان حاولنا العثور عليه لنجدة أبي، تناولت دليلة الورقة دون أن تقرأها وقالت لدلال: «اذهبي واستدعي الطبيب في سريةٍ تاااامة، أتفهمين؟!» هزت دلال رأسها وخرجت بينما أغلقت هندٌ الباب خلفها، فضَّت الورقة لتقرأ «إذا أردت ترياقًا لمرضك هذا فلتجعل دليلة تبحث عن العايق» أغلقت الرسالة في شرود وهي تحاول الربط بينها وبين كل الملاعيب الفائتة للعايق لكنها لم تستطع التركيز؛ خاصةً وقد استيقظت هي الأخرى على كابوسٍ مفزعٍ ظل يتكرر طوال نومها في الليلة الماضية..

حين وصل الطبيب وكشف على زُريق أخبرهم أن تلك البثور نوع من الطفح الجلدي الذي ينتج عن تلوث البشرة بمركباتٍ كيميائيةٍ صعبةٍ وقد يحتاج بعض الوقت ليصل إلى علاج له، لكنه سيصف له علاجًا يخفف من الألم الذي يشعر به، هنا أخذ زُريق يصرخ: «ذلك اللعين خدعني، أخبرني أن ذلك الدهان الذي أحضره لي يفيد العظام والعضلات ويجدد الشباب و.....» قاطعته دليلة في غيظٍ وهي تسأله: «وهل تظن أن هناك علاجًا قد يُصلح كل ما أفسده الدهر في جسدك يا زُريق دفعةً واحدة؟!» وصمت الجميع وخرجت هي مندفعة نحو غرفتها في غضبٍ ممزوجٍ بالشرود..

ظلت دليلة ساهمةً طوال الطريق إلى الحمام الذي أصرت رغم ما حدث على الذهاب إليه، لقد كانت في حاجة للاختلاء بنفسها بعيدًا عن كل ما يحدث، ورغمًا عنها وجدت نفسها غارقةً في استعادة تفاصيل ذلك الكابوس الذي ظل يطاردها طوال المساء، استقلت العربة بصحبة دلال - التي أخذت تتأملها في استغرابٍ دون أن تجرؤ على سؤالها عن سبب شرودها- بينما كانت هي ترى زهرة شاخصةً أمامها كما لو كانت تجلس معهما بداخل العربة، لم تكن قد رأت زهرة من قبل لكنها كانت تدرك أنها هي تلك المرأة التي أخذت تجدل حبلًا غليظًا بين يديها وهي تنظر نحوها بابتسامة متشفية، عادت ضربات قلب دليلة تعلو كما حدث لها في نومها دون أن تقوى على إبعاد نظرها عن زهرة، ارتفع في رأسها صوت احتكاك الحبال ببعضها وزهرة تعقدها بشكلٍ محكمٍ أكثر فأكثر؛ حتى أحالتها إلى مشنقة حاولت أن تلبسها لدليلة وهي تبتسم قائلة: «هي لكِ يا دليلة» شهقت دليلة في قوةٍ وهي ترتد للخلف فاصطدمت بمقعد العربة ودلال تربت على كتفها في خوفٍ هاتفةً: «سيدتي، ما بكِ؟!» مع كلمات دلال اكتشفت دليلة أن ما تراه ليس إلا بقايا ذلك الكابوس

اللعين؛ فأخذت تتنفس بصوتٍ مسموعٍ كأنها تحاول تمديد رئتيها لاستيعاب كمية أكبر من الهواء، لم تعد عليها دلال سؤالها وإن ظلت تربت على كتفها في إشفاقٍ، أغمضت دليلة عينيها واستمرت تتنفس في عمقٍ حتى هدأت قليلًا؛ ثم فتحت عينيها تقول لدلال: «أخبري السائق أن يعيدنا إلى الخان» ارتبكت دلال وهي تنظر من نافذة العربة إلى الخارج وهي تقول: «لكننا وصلنا بالفعل يا سيدتي!» انتبهت دليلة في هذه اللحظة إلى توقف العربة فمالت تنظر بدورها من النافذة في صمتٍ، ظلت تتأمل الشارع بالخارج للحظةٍ قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا وتشير نحو باب العربة قائلة: «هيا بنا إذن».

شعرت دليلة ببرودةٍ تسري في عروقها مع كل خطوةٍ كانت تخطوها نحو الحمام؛ ظنت أنها بسبب رطوبة الجدران في الداخل، لم تنتبه في بادئ الأمر إلى أنهما كانتا وحيدتين في الحمام تقريبًا بسبب تشوش تفكيرها المتأرجح بين اليقظة وبقايا كابوس الأمس؛ لكنها بدأت تنتبه لذلك بعد أن خلعت ملابسها ونزلت إلى حوض الاستحمام مع دلال، بدأ القلق يساورها بعض الشيء وازدادت ارتعاشة جسدها رغم الدفء الذي سرى فيه مع الماء الساخن، حاولت أن تضفي على نبرة صوتها قوةً وهي تسأل الحمامية:«هل تواجهون ركودًا أو شيئًا من هذا القبيل يا امرأة؟!» كانت المرأة تقف قربهما وهي ترتب المناشف التي سيحتاجونها بعد الحمام؛ فأسرعت إليها- ودقات قبقابها تزيد من توتر دليلة- وقالت: «لا يا سيدتي على العكس؛ نحن أفضل حمام في الناحية» صمتت دليلة تفكر أن سؤالها السابق في غير محله فجوابه على الأغلب سيكون كذبةً؛ إما خوفًا أو غشًا أو ادعاءً، عادت دليلة تسألها وهي تستسلم ليدي دلال التي بدأت تغسل كتفيها بالصابون: «لمَ الحمام خالٍ إلا مِنَّا إذن؟!» جاوبتها دلال هذه المرة بينما كانت هي تراقب علامات البلاهة على

وجه الحمامية: «أنا يا سيدتي من طلبت إخلاء الحمام لاستقبالكِ» التفتت دليلة تتطلع إلى دلال في توجس هي نفسها لا تدري سببه فقررت الصمت..

أرادت دليلة أن تغمض عينيها وتستسلم لسخونة الماء لكنها لم تستطع؛ وما هي إلا دقائق حتى خرجت من حوض الاستحمام وهي تتناول إحدى المناشف في عصبية، لحقت بها دلال فورًا وهي تسألها: «هل أستدعي المدلكة يا سيدتي؟» نظرت لها دليلة قليلًا ثم هزت رأسها وهي تحكم المنشفة حول جسدها وتذهب للاستلقاء على الطاولة الرخامية محملقةً في سقف الحمام الضبابي، أعجبتها روائح البخور الممزوجة بأبخرة الماء وبعض من رائحة المكان ذاته ودفعتها لإسبال جفنيها أخيرًا، استنشقت المزيد من تلك الروائح رغما عنها في تلذذٍ وهي تشعر ببعض الراحة أخيرًا، لحظات وسمعت دلال تقول بصوتٍ خافتٍ: «المدلكة يا سيدتي» شعرت ببرودة لذيذة هذه المرة ونقاط الزيت تمس ظهرها بعدما عدلت وضعية جسدها ونامت على وجهها، تداخلت رائحة المسك والكافور مع الروائح التي كانت تستنشقها مسبقًا فبدأت تشعر بالاسترخاء؛ خاصةً مع حركات يدي المدلكة التي بدت ماهرةً جدًا فيما تفعل، بعد قليل شعرت من حركات يدي المدلكة أنها تريدها أن تنام على ظهرها ففعلت دون أن تفتح عينيها وهي تحاول ترتيب أفكارها، أخذت تفكر في تلك الرسالة التي وجدوها في غرفة ريحان «إذا أردت ترياقًا لمرضك هذا فلتجعل دليلة تبحث عن العايق»، إذن فالعايق يستهدف مواجهتها منذ البداية والآن يعلنها بشكلٍ صريحٍ، استعادت أيضًا تفاصيل ذلك الكابوس الذي ظل يطاردها في الليلة السابقة لكن دون أن تتوتر وحاولت أن تجد له تفسيرًا، هل له تفسيرٌ من الأساس أم هو واحدٌ من ملاعيب الشيطان برأسها؟! ضحكت في نفسها بسخرية وهي تفكر أن ملاعيبه ليست جديدةً عليها؛ حتى أنهم

كانوا يسمونها العيّاقة الشيطانية، شعرت بكفيّ المدلكة وهما تدوران على كتفيها وحول عنقها في رويّة بينما يلاحقها ذهنها بالأسئلة، ما هي دلالة هذا الكابوس؟ هل هو رد فعل طبيعي لأنها تسعى لمعرفة أي شيءٍ عن زهرة؛ أم قد تكون زهرة نفسها تسعى إليها؟! ارتجفت رغما عنها مع ذلك الخاطر وفتحت عينيها فجأةً لترى آخر وجه تتوقعه في هذه اللحظة؛ وجه زهرة تماما كما رأته في كابوسها، صرخت وهي تهب واقفة: «من أنتِ؟! أنتِ زهرة، أليس كذلك؟! أنتِ هي!» ظهرت ملامح الفزع على وجه المدلكة دون أن تجيب بينما قبضت دليلة على ذراعيها وهي تكمل في هيستيريا: «ماذا تريدين مني؟ تريدين الانتقام مني، أليس كذلك؟» سمعت دليلة أصداء خطوات تقرع أرضية الحمام في سرعةٍ وصوت دلال يقترب في فزعٍ: «سيدتي دليلة، ماذا هناك يا سيدتي؟!» التفتت دليلة نحوها وهي تفلت إحدى ذراعي المدلكة وقالت: «إنها زهرة، أقسم إنها زهرة يا دلال» فجأةً انتزعت المدلكة ذراعها من قبضة دليلة وهي تبتعد عنها وتقول في حقدٍ: «نعم يا دليلة أنا هي» وساد الصمت بعد كلمات زهرة تمامًا؛ حتى لم يعد مسموعًا في الحمام سوى خرير المياه وطقطقة الفحم في المباخر، ظلت دليلة لثوانٍ تتأمل ملامح زهرة الجامدة دون أن تنطق بينما اقتربت منها دلال وهي تربت على كتفها مهدئةً: «لا تخافي، نحن لن نؤذيكِ» التفتت إليها دليلة في حركة عنيفة فزلت قدمها وسقطت أرضًا لتصطدم رأسها بحافة الطاولة الرخامية، أسرعت دلال نحوها في خوفٍ حقيقي حين رأت الدماء تغطي وجهها وهي تتمتم في وهنٍ: «أنتِ يا دلال!.تـ.....» نطقت دليلة ببعض الكلمات التي لم تستطع هي نفسها سماعها وذلك الضباب الكثيف يحيط بها ويشوش رؤيتها تماما، لكن رغم هذا شعرت بيد زهرة تحيط عنقها بذلك الحبل الخشن وتجذبه في قوةٍ دون أدنى مقاومة منها!

رُقيّة..

«يا إله العالمين، هل بين عيني الصبية وعيون المها نسبٌ؟!» بدأ كل شيء حين قالها حسن في ذلك اليوم بعدما ظل يتأملها طوال فترة وجودها في الوكالة مع وصيفتها فجر، كانت على الدوام تشعر بالملل والوحدة من بقائها طوال الوقت في الدار وهي بلا أخوة أو أخوات قد تمضي الوقت معهم؛ وأبوها قد منعها منذ زمن من الاختلاط بأبناء العامة لأنه أمرٌ لا يليق بها - كما يقول- بعدما أصبح هو شاهبندر لتجار المحروسة، لكنها في ذلك النهار استيقظت برغبةٍ ملحةٍ في الخروج إلى السوق دون أن تدري لها سببًا، انتظرت حتى غادر والدها إلى وكالته وأسرعت تسأل أمها الخروج والعودة قبل مجيئه، «هل جننتِ يا رُقيّة؟! وماذا لو علم أو رآكِ أحدهم في أروقة السوق وأبلغه؟» هتفت بها أمها في همسٍ كي لا تلتقط إحدى الخادمات ما تقوله ابنتها وتشي بها؛ فأسرعت رُقيّة تقول: «سأرتدي لثامًا فلا يعرفني أحد» هزت الأم رأسها دون كلماتٍ وهي تحاول تجاهل إلحاح ابنتها متصنعة الانشغال بأمور الدار؛ فأخذت تدور بين غرفه وهي تملي على الخادمات أشياء ليست ذات أهميةٍ لتهرب منها لكن دون جدوى، «اسمعيني يا أمي» وقفت رُقيّة أمامها وهي تمنعها عن المشي في استجداءٍ وتابعت:

- أريد أن أذهب إلى سوق الحرافيش كما كنا نفعل سويًا، أشتري بعض التوابل والعطور، أشاهد جديد الأقمشة والحليّ، شيءٌ من هذا القبيل!

- قلت لا، فلو علم أبوكِ لن تكون العاقبة خيرًا أبدًا..

- لن يعلم صدقيني.

تأملتها أمها في إشفاق لأنها تدرك ما تعانيه، رُقيّة كانت تعلم أن أمها أيضا تعاني بعدما أصبح أبوها من ذوي السلطة التي أبعدته عن الناس كثيرًا حتى أصبح يخشى مخالطتهم، فرغم أنه بينهم طوال الوقت إلا أن ولاءه كان

دائما للأمراء والأكابر؛ يمدهم بالوشايات عما يجري في السوق بين التجار وعن حقيقة دخولهم التي أصبح أغلبهم يزيفها هربًا من الضرائب المبالغ فيها، وقد يعاون المحتسب في غش الكيلات والموازين أحيانًا، كل هذا علمت به بعدما وضعوه شاهبندر للتجار؛ فلولا أنه من نفس طينتهم ما كانوا استعانوا به، كانت تعلم أنه يخشى الناس لأنه يؤذيهم ولو بشكلٍ غير مباشرٍ ويخشى عليها أن يؤذوها في المقابل؛ لذلك أصر على إخفائها عن العيون، لكنه سطرٌ جديدٌ كُتب في دفاتر القدر وما كان إلحاحها على أمها في ذلك الصباح إلا خطوةً في سبيله!..

خرجت في ذلك اليوم وبصحبتها وصيفتها وهي تشعر بسعادةٍ كبيرةٍ، فقد نزلت للسوق سيرًا على قدميها كي لا تلفت الأنظار وارتدت شيئًا من ملابسها القديمة ولثاماً حريرياً أخفى ملامحها وإن لم يخفي عينيها البندقيتين اللتان جذبتا حسناً فور دخولها إلى الوكالة وشعرت هي بذلك، كانت تعرفه منذ طفولتها وكثيرًا ما تشاركا اللعب سويًا لكنها لا تظنه سيعرفها الآن حتى لو كشفت وجهها، أخذت تدور داخل الوكالة تنتقي البهارات والتوابل وهي تغالي في تلكُّئِها أمامه سعيدةً بمتابعته لها، وكلما كانت تلتقي عيناهما كانت تشعر بعينيه مثبتتين في عينيها مباشرةً وبدقات قلبها تتماشى مع نقرات يديه على الطاولة التي أمامه، حتى حملت ما ابتاعت من عمها عليّ- الذي لم تكشف له عن شخصيتها أيضًا- وخرجت ومن خلفها فجر تلاحقهما كلمات الغزل التي همس بها حسن لتصل إلى قلبها قبل سمعها..

ومنذ ذلك اليوم أصبحت تنتهز أي فرصةٍ للخروج إلى السوق لرؤيته وإن لم تعترف بهذا لنفسها في البداية؛ لكن بمرور الوقت أدركت هذا مع تنامي رغبتها في أن تكشف له عن شخصيتها رغم وعدها لأمها أن تخرج وتعود دون

معرفة أبيها أو أي أحدٍ؛ لذلك لم تدع تلك الفرصة التي منحها لها القدر في ذلك النهار، فبعدما دارت قليلًا في السوق وابتاعت بعض العطور والأقمشة لاحظت أن هناك شابين يلاحقانها هي وفجر؛ يتوقفان كلما توقفتا أمام أحد الدكاكين ثم يتابعان سيرهما حين يعاودانه، وظلا هكذا حتى اقتربتا من وكالة عليّ فلمعت في رأسها فكرة مفاجئة التفتت تنفذها في الحال، ففوجئ الشابين بها تستدير نحوهما أمام باب الوكالة وهي تهتف بصوتٍ مسموعٍ: «إلى متى ستظلان تلاحقانا بتلك الطريقة؟ إن لم تبتعدا عنا فورًا سنشكوكما لجنود الدرك» تراجع الشابان في صدمةٍ شلت خطواتهما وهما يتلفتان حولهما في قلقٍ؛ خاصةً وقد تجمع حولهم بعض المارة، وكما توقعت هي انتبه حسن على صوتها وقبل أن يفكر أحد الشابين في التحرك وجداه يقبض بيده على كتف أحدهما- والذي ظنه يتبع رُقيّة- وهو يسألها: «هل هناك ما يزعجك يا آنستي؟» تطلعت نحوه بابتسامةٍ لم تدركها سوى عينيه حين دقق في نظراتها كعادته؛ وكتم ابتسامته وهي تجيبه: «يلاحقانا منذ مدةٍ يا سيد حسن وكنت سأشكوهما لجنود الدرك» اتسعت عيناه حين استمع لصوتها عن قربٍ ثم أخفى ابتسامةً في طرفيهما وهو يشدد على كتف الشاب ويقبض بيده الأخرى على ذراع الآخر هاتفًا: «ولم نزعج جنود الدرك يا آنستي، دعيهما لنا!» هنا اقترب بعض عمال الوكالة لمعاونة حسن لكن الشابين اندفعا يجريان في الاتجاه المعاكس فجأةً، تصنعت رُقيّة أنها تراقب ابتعادهما لتهرب من نظرات حسن المثبتة عليها في لهفة، لكنها بعد لحظةٍ شعرت به يدنو منها هامسًا: «أنتِ رُقيّة، أليس كذلك؟!» التفتت تترك عينيها في مرمى نظراته أخيرًا وهي تبتسم تهز رأسها بالإيجاب فعاد يسألها: «إنها أنتِ التي تأتي للوكالة كل بضعة أيام؟!» هزت رأسها من جديدٍ وابتسامتها تتسع أكثر فاقترب منها أكثر وقال: «أتعرفين أني أصبحت أنتظر مجيئكِ؟!» أطرقت في خجلٍ فأشاح بيديه

لتنظر إليه مرةً أخرى وهو يقترب منها في جرأةٍ أكبر قائلًا: «أريد أن أراكِ!» تأملته دون أن تقوى على الرد على كلماته - أو حتى الاستجابة لرجاء فجر بسرعة الذهاب- حتى سمع نداء أبيه من داخل الوكالة يستعجله فانتفض كمن يفيق من حلمٍ وهمس لها: «سآتيكِ في المساء» واختفى من أمامها في لحظةٍ، ظلت ساهمةً في مكانها لثوانٍ حتى جذبتها فجر من يدها نحو طريق العودة هامسةً: «هيا يا آنستي قبل أن يرانا أحدٌ» وسارت هي خلفها وهي تتلفت نحو الوكالة بين الحين والآخر.

قبل حلول المساء كانت رُقيّة ترابض خلف مشربيتها في توترٍ وتسأل نفسها ألف سؤالٍ، ما هذا الذي حدث؟! وماذا أصابها اليوم؟! بل منذ غازلها أول مرةٍ في الوكالة؟! كانت سعيدةً أنه انجذب إليها دون أن يعرف من هي وحزينةً في نفس الوقت لأنها ظنَّت أنه كان معجبًا بها في صباهما؛ فكيف به الآن يعجب بفتاةٍ أخرى تكون بالمصادفة هي ذاتها؟! نهضت مبتعدةً عن المشربية لتدور في غرفتها في غيظٍ للحظاتٍ؛ ثم عادت كالمجذوبة تسير بجوارها ذهابًا وإيابًا، ذهبت في خطوتين إلى يسار المشربية ثم تسمرت مكانها وهي تضع يدها على قلبها الذي أخذ يخفق بشدة دون سبب، التفتت عائدة إلى المشربية من جديد لتراه واقفا في توترٍ مماثلٍ لما تعانيه؛ يتلفت يمنةً ويسرةً خشية أن يلمحه أحدٌ وهو معلِقٌ نظره بمشربيتها، ابتسمت له حين أدركت أنها شعرت به قبل أن تراه؛ وابتسم لها حين اقتربت فرأى وجهها لأول مرةٍ منذ سنواتٍ وهي تجلس على الأريكة المجاورة للمشربية لتتأمله في صمتٍ، تأملها كثيرًا قبل أن يشير لها أن عليه الذهاب فنهضت واقفة في لهفةٍ كأنها تستبقيه فتسمر مكانه بلا إرادةٍ، لحظات وأدركت أن عليه الذهاب بالفعل قبل أن يراه أحدٌ؛ فأشارت له أن ينتظر وأسرعت تقتطع قصاصةً صغيرةً من الورق

وأدمت الريشة بالحبر وكتبت له «سآتيك في الصباح» ابتسمت حين تذكرت أن الريشة والمحبرة كانتا هديةً منه في صباهما حين علم أنها ستتوقف عن الحضور إلى الكُتاب، يومها وضع الهدية في صندوقٍ وأرفق معها رسالةً تقول: «الإنسان صديق النسيان وهذه هديةٌ لكي لا تنسي»، اتجهت من جديدٍ نحو المشربية وهي تحيط رسالتها بخيطٍ صغيرٍ وتلقيها له ليتلقفها قبل أن تسقط، فض الخيط وهو ينقل بصره كل ثانية بينها وبين عيني رُقيّة؛ ثم رفع وجهه إليها مبتسمًا بعد أن قرأ المكتوب وأومأ لها أنه في الانتظار ورحل وهو يلتفت نحوها كل خطوة!..

تعددت اللقاءات بينهما منذ ذلك اليوم، هي تذهب للسوق لمقابلته في الصباح كلما تسنى لها ذلك؛ وهو يمر كل مساء من أسفل مشربيتها لتكون عيناها آخر ما يراه قبل عودته إلى داره، تحدثا كثيرًا دون كلماتٍ تُذكر في لقاءاتهما العابرة دائمًا؛ حتى جاء نهار قابلته فيه لدى أحد دكاكين الحليّ وهي تتصنع مشاهدة ما يعرض، اقترب منها وهمس: «اشتقت إليكِ» لاحظ ابتسامتها رغم اختفائها خلف اللثام فأكمل وهو يدس ورقة في يدها قائلًا: «أنتظر ردكِ» وأسرع يختفي من أمامها كي لا يلفت الأنظار إليه، أسرعت بدورها تريد العودة إلى المنزل لتنفرد بنفسها وتقرأ رسالته؛ وفجر المسكينة تهرول من خلفها وهي تدعو ربها ألا ينكشف أمرهما أمام سيدها الشاهبندر، وفي غرفتها نزعت رُقيّة اللثام عن وجهها وفضت الرسالة في لهفة لتقرأها: «هل تتزوجيني؟!»تذوقت الرسالة حرفًا حرفًا وهي لا تزال واقفة في مكانها دون أن تقوى على الحراك؛ حتى أن فجر اقتربت منها في قلقٍ تسألها: «ماذا هناك؟» لم تستمع إليها وهي تعيد هجاء الحروف في سرها برويّةٍ: «هل تتـ زو جـ يني؟!» ثم رفعت عينيها عن الرسالة وهمست لفجر في سعادةٍ: «هل

تتزوجيني؟! هل تتزوجيني؟! حسن يريد الزواج بي يا فجر» اختتمت عبارتها بهتافٍ سعيدٍ وهي تحتضن فجراً وتدور بها في أرجاء الغرفة لعدة لحظاتٍ قبل أن تتوقف وهما تضحكان في سعادةٍ، ربتت فجرٌ على كتف سيدتها وقالت: «مباركٌ يا آنستي» وقبل أن تجيبها رُقيّة فُتح باب غرفتها ودخلت أمها تتأملهما في تشكك للحظةٍ ثم قالت:»ما بكما؟!» نظرت كلتاهما إلى الأخرى وهي تحاول كتم ضحكها ثم قالت رُقيّة وهي تذهب وتحتضن أمها وتقول مداعبةً: «أتعرفين ما بنا يا أمي الحبيبة، إننا جائعتان جدًاااا جدًا، فهل تمنين علينا يا سيدتي بما نسد به جوعنا؟» ثم ابتعدت عنها وهي تقلد صوت الشحاذين هاتفة في مرح: «ومن قدم شيئًا بيديه التقاه» وضحكن جميعًا بعدها ثم قالت أمها في بعض القلق: «تعدد خروجكِ يا رُقيّة وأخشى من العاقبة!» قبلتها رُقيّة مرةً أخرى وهي تودعها إلى الباب قائلةً: «لا تخشي شيئا يا أمي، فقط أطعميني يطعمكِ الله من فضله» فضحكت أمها وذهبت لتتفقد ما أعده الطباخون للغداء؛ دون أن تدري أي منهن أن قلقها في تلك اللحظة كان إشارةٍ لم تعيها إحداهن!..

وفي المساء رأت حسناً ينتظرها أسفل مشربيتها في سعادةٍ ممزوجةٍ بالقلق بعدما تأخرت عليه بعض الوقت، ظلت تراقبه من خلف المشربية وهو يراقب ظلها بدوره ودهشته من احتجابها عنه جليةً على ملامحه، استجمعت نفسها بعد دقائق ليست بالقليلة وفتحت مشربيتها في حذرٍ وهي تتلفت حولها وارتجافة جسدها واضحة على ملامحها، تأملها طويلًا في خوفٍ تقاسماه سويًا دون أن يدري هو سببًا لخوفها ولا حتى ردًا على سؤاله في رسالته الأخيرة، سالت دموعها رغمًا عنها ورآها هو فاقترب أكثر من المشربية وملامح الحيرة والألم ترتسم على وجهه دون فهم، اقتربت بدورها وهي

تتناول الرسالة- التي خطتها له منذ قليلٍ- لتلقيها نحوه ويتلقفها هو قبل أن تسقط كعادته، فض الرسالة يقرأ سطورها في لهفة تحولت لصدمةً وغضبٍ كسيا وجهه في ثوانٍ؛ ثم رفع عينيه إليها وهو يقول في تمهلٍ لتقرأ كلماته على شفتيه: «لا تخافي» ثم تأملها قليلًا وذهب، ظلت تتابعه وهو يبتعد عن الدار وبكاؤها لا ينقطع؛ فالفارق بين السعادة التي كانت تشعرها منذ سويعاتٍ قليلةٍ وما تشعره الآن من همٍ وكمدٍ لا يمكنها قياسه بعرض السموات والأرض، أغلقت مشربيتها وعقلها يعذبها بأسئلةٍ عديدةٍ أرَّقتها حتى الصباح، كيف لأبيها أن يكون بتلك القسوة؟ كيف يدفعه طمعه للمقايضة بها أمام أي مالٍ أو تجارةٍ مهما كانا؟! كيف يرضى لابنته زوجًا مثل ذلك الكهل زُريق السماك مهما كان منصبه أو نفوذه؟!

ورغمًا عنها؛ وجدت رُقيّة نفسها تستعيد ما جرى على طاولة الغذاء في ذلك اليوم، كانت متوجهةً لمشاركة أبويها الطعام حين سمعتهما يتجادلان كالمعتاد؛ وتصورت أنها حين تنضم إليهما سينتهي الأمر الذي يدور غالبًا حول تجاهل أبيها لأي أمرٍ آخر بخلاف تجارته ومصالحه وضيق أمها بذلك على الدوام، لكنها قبل أن تقترب أكثر سمعته يقول: «المقدم زُريق السماك مقدم درك بغداد؛ وزواج ابنتكِ منه صفقةٌ رابحةٌ بكل المقاييس» كتمت شهقتها لكي لا تشعرهما بوجودها وتابعت الحديث لآخره، فوجدت أمها ثائرةً ترفض اقتراحه تمامًا لأن زُريق هذا شيخٌ قد يكبره هو سنًا بينما هي صبيةٌ في مقتبل العمر، وكان رده أنه اتفق مع زُريق وانتهى الأمر؛ فبنت الأكابر تتزوج من يختاره أهلها طالما كان قادرًا ومناسبًا لمركز عائلتها حتى ولو كان كهلًا، اختبأت رُقيّة لكي لا يراها أبوها الذي اندفع إلى الخارج منهيًا حديثه؛ بينما وصلها صوت بكاء أمها اليائس، سالت دموعها هي الأخرى وهي تتجه نحو

أمها لتربت على رأسها في ألم وتسألها: «لماذا يفعل بي ذلك يا أمي؟!» تطلعت إليها أمها في عجزٍ ثم احتضنتها لتبكيان سويًا في صمت!..

تركت أمها في ذلك النهار لتحبس نفسها في غرفتها حتى المساء ولا يشغل بالها أحدًا سوى حسن، ماذا ستقول له وهو الذي يمني نفسه بموافقتها على طلبه؟! كيف يكون القدر قاسيًا عليهما فيؤجج مشاعرهما إلى هذه الدرجة ثم يحكم عليهما بالحرمان؟! عشرات الأسئلة والمشاعر والآلام أخذت تنخر في قلبها حتى لمحته يسير أسفل مشربيتها، تمالكت نفسها لتقوم وتخط له رسالة قالت فيها «أبي يريد تزويجي من مقدم درك بغداد زُريق السماك، أنا خائفة!» استرجعت كل هذا عشرات المرات وهي على نفس جلستها بجوار المشربية منذ المساء وحتى بزوغ الفجر، لم تستجب لطرقات أمها أو فجر على باب غرفتها التي تعددت للاطمئنان عليها أو حتى لتناول بعض الطعام؛ وظلت تخبرهما في كل مرة أنها لا تريد رؤية أحد، بقيت على تلك الحال حتى حلول مساء اليوم التالي وهي لا ترغب في مفارقة المشربية رغم شعورها بالإرهاق الشديد إذ لم تذق للنوم طعمًا منذ الأمس، أخيرًا ظهر ظل حسن يسير نحو دارها فنهضت في لهفةٍ لتستقبله لكنها شعرت بدوارٍ مفاجئٍ وسقطت!..

فتحت عينيها فجأةً حين مست بعض قطرات الماء وجهها لتستوعب بعدها أن تلك دموع أمها التي ضمتها وهي تبكي في حرقةٍ، كان ضوء النهار يملؤ الغرفة وهذا يعني أنها فوتت موعد حسن بالأمس فانتزعت نفسها من بين ذراعي أمها وهبَّت من الفراش تصرخ: «لن أتزوج ذلك الكهل يا أمي، لن أتزوجه» نكست أمها رأسها في عجزٍ فتلفتت حولها في ثورةٍ لا تدري عمَّ تبحث؛ حتى وقعت عيناها على مشربيتها فعادت تكرر وهي تبكي هذه المرة: «لن أتزوجه» ثم ألقت جسدها على الأريكة المجاورة للمشربية في حزنٍ،

اقتربت منها فجرٌ تربت على كتفها في إشفاقٍ وهمست وهي تدس شيئًا في كفها: «هوني عليكِ يا آنستي» قبضت رُقيّة على ذلك الشيء الذي في كفها وهي تتطلع إلى فجر التي ابتسمت مشجعة، كانت رسالةً من حسن لا تدري كيف أوصلها إلى فجر؛ لكن المهم الآن كيف ستقرؤها وأمها مازالت جالسةً على فراشها لا تريد الخروج وتركها على هذه الحالة، أدركت فجر ما تفكر فيه سيدتها فأسرعت تقول وهي تجلس بجوارها: «لا يمكنكِ أن تبقي على هذه الحال يا آنستي، اهدئي الآن وسوف أحضر لكِ الحمام ريثما تتناولين إفطاركِ» فأسرعت الأم تقول وهي تتجه نحوهما: «وسوف أحضر لكِ أنا الطعام، هيا يا ابنتي» تصنعت الرضوخ أخيرًا لتخرج أمها ومن ورائها فجر التي أشارت لها بالإسراع في قراءة الرسالة هامسة: «إذا شئتِ سأوصل للسيد حسن أي رسالة تشائين» أومأت لها رُقيّة وهي تغلق الباب خلفها في إحكام وتفض الرسالة أخيرا لتقرأ ما بها «لا تخافي أنا لن أتركك، لكن لا تخبري أهلكِ بشأننا الآن وأرسلي لي ما يستجد أولا بأول مع فجر فأنا أعرف أنكِ قد لا تستطيعين الخروج كثيرًا في الأيام المقبلة» شعرت بمرارة وهي تعيد قراءة الرسالة مراتٍ عدة، صحيح أنه قال لها ألا تخاف لكنه أيضًا حذرها من أن تخبر أهلها بشأنهما الآن، فماذا تفعل لو تفاجأت بذلك الكهل الخرف يدق بابهم كما سيفعل أي خاطبٍ؟! لو رفضته لن يستمع إليها أحدٌ؛ أبوها مُصِرٌّ وأمها عديمة الحيلة، ولو قبلت ولو من باب كسب الوقت تكون قد وضعت نفسها في مأزقٍ لو فشل حسن في حل الموقف، ماذا عليها أن تفعل؟!

بعد لحظاتٍ سمعت طرقاتٍ على باب الغرفة لتجدها فجراً قد عادت بعدما جهزت لها حمامها، فأغلقت خلفها الباب وهمست لها: «كيف وصلتكِ تلك الرسالة؟» حملت فجر بعض المناشف وهي تجيبها: «مساء أمس وقف السيد

حسن طويلًا أسفل مشربيتك فنزلت له لأخبره بمرضك وأعطاني الرسالة وأوصاني أن أنقل له رسائلكِ أولًا بأول» وخفضت صوتها أكثر ثم أكملت:«لا يجب أن يعرف أبوكِ بأمركما يا آنستي، هذا ما فهمته من السيد حسن» وقفت رُقيّة تفكر فيما قالت فجر وهي تتمتم: «لماذا؟!» لكن فجر لم تمهلها أكثر وجذبتها من يدها نحو الحمام هامسة: «هيا إلى الحمام» ابتلعت رُقيّة منذ تلك اللحظة كل تساؤلاتها دون أن تهمس بها حتى لنفسها، وظلت على صمتها هذا طوال النهار والخوف ينهش قلبها من أن يكون حسن قد تخلى عنها بالفعل ويتظاهر بغير ذلك حفظًا لماء وجهه، فكرت أن الأيام القادمة وحدها ستضع حدًا لحيرتها تلك!..

وعلى طاولة الغذاء اجتمعت بأبيها لأول مرة بعدما سمعته بالأمس، جلست في برودٍ تقلب طعامها دون أن تتذوقه وهو يراقبها في غير اكتراث حتى أنهى طعامه ونهض قائلًا: «جهزي نفسك لأن المقدم زُريق سيأتي لزيارتنا مساء الغد» وخرج، لم تجد أمها ما تقوله فحملت حالها هي الأخرى وخرجت دون تعليق وحسنًا فعلت؛ فعلى الأقل لن تكون مجبرة على الكذب كي تخفي عنها حقيقة ما تعيشه، نهضت بعد لحظات إلى غرفتها وهي تفكر أن عليها رؤية حسن بنفسها؛ فلم تعد الرسائل كافية للرد على عشرات الأسئلة التي تميتها في صمتٍ ولا ستساعدها أيضًا في مواجهة ذلك الكهل الهرم،كانت تتمتم لنفسها ببعض الكلمات حين دخلت عليها فجر فجأةً فرفعت حاجبيها في دهشةٍ وهي تنظر لها بترقب جعلها تبتسم رغمًا عنها، أشارت بعد لحظةٍ نحو المشربية وقالت: «لو أتى هذا المساء في موعده سأخبره أنني أريد مقابلته» شهقت فجر وهي تسألها في همسٍ:

- في مثل هذه الظروف يا آنستي؟!

- بل لأجل هذه الظروف يا فجر..

كانت رُقيّة تريد أن تتأكد من صدق حسن في تمسكه بها قبل أي شيء؛ وفكرت أنه لو وافق على مقابلتها - في مثل هذه الظروف كما تقول فجر- سيجعلها هذا تصبر حتى تتخلص من ذلك الخرف زُريق!..

وفي المساء كانت تنتظره برسالةٍ خطت بها سطرين ليس إلا «زُريق سيأتي لزيارتنا مساء الغد، أريد مقابلتك» كتبتها ثم أخذت تنظف الريشة جيدا من الحبر عوضًا عن تركها في المحبرة كعادتها ثم وضعتهما سويا بداخل صندوقهما القديم؛ كأنها تهيئ نفسها لطي هذه الصفحة من حياتها إذا ما ذيلها حسن بخيبة الأمل، قبضت على الرسالة في رفقٍ وهي تغلقها بخيط أحمر اللون؛ رفت أهدابها بالدموع لرؤيته كأنما هو بعض دمها، توجهت بعدها للجلوس على الأريكة المجاورة للمشربية وهي تنقل بصرها كل لحظةٍ وأخرى بين رسالتها وقطع الأرابيسك التي تتألف منها المشربية، وصلن لمائتي قطعة أخذت تحصيهن في صبرٍ لا تدري هل تحمل مثله لعبور ذلك المصاب أم لا، سألت نفسها فجأةً: «إلى متى سأنتظر؟!» وقبل أن تفكر في إجابة لسؤالها لمحت ظله يسابق خطواته نحو دارها، وقف أسفل المشربية يتأملها في صمت وكذلك فعلت هي، لقد أتى؛ لم يبتعد عنها أو يهرب، كانت عيناه تترقرقان بلمعانٍ غريبٍ شعرت به رغم بُعد المسافة؛ لمعانٌ يمتزج فيه الغضب مع اللهفة والشوق، اقتربت أكثر من المشربية وانسابت دموعها وهي تتمتم باسمه كأنها تختزنه في قلبها لأوانٍ قد تفقده فيه، بكت أكثر في حرقةٍ حين اقترب هو أيضًا من المشربية وأخذ يقبض على فروع اللبلاب المحيطة بمشربيتِها ويهزها في رفقٍ كأنه يرسل لها عبرها شيئًا ما، حاولت أن تفعل مثله فيكون كلا منهما ممسكًا بالوريقات من جهةٍ؛ لكنها تذكرت الرسالة

التي في كفها منذ حين، أشارت له بها فتراجع للخلف كي يتلقفها ثم نكس رأسه للحظاتٍ وهو يفضها ويقرؤها، تطلع نحوها بعد لحظةٍ وهو يهز رأسه بالإيجاب وهمس: «فجر» وأشار لها أن ترسلها إليه، فهمت أنه يريد أن يخبرها بشيءٍ فأسرعت تبحث عنها حتى وجدتها مشغولة في المطبخ ببعض الأمور، اقتربت منها وقالت في توترٍ: «فجر، تعالي أريدكِ في أمرٍ» وخرجت مسرعةً ومن خلفها فجر التي توقعت ما تريده منها فقالت هامسةً: «هل السيد حسن هنا؟» أومأت لها رُقيّة مجيبة:

- ينتظركِ بالخارج..

- حسنًا..

واتجهت نحو باب الخدم بينما عادت رُقيّة لغرفتها، لحظات وظهر حسن أمامها أسفل المشربية من جديد وسمعت في نفس الوقت طرقًا على باب الغرفة فقالت بصوتٍ مرتفعٍ: «تعالي يا فجر» لكنها فوجئت بأمها تدخل إلى الغرفة وعلى وجهها يبدو الخوف والقلق، وبشكل لا إرادي أسرعت تغلق المشربية وجلست بجوارها على الأريكة بينما أمها تسألها: «كيف حالكِ الآن يا ابنتي؟» أومأت هي دون ردٍ وأمها تجلس بجوارها وتربت على كتفها في حنان، دخلت فجر في هذه اللحظة تحمل كوبًا من العصير وهي تقول: «آنستى في خير حال يا سيدتي لا تقلقي، إنها هي التي طلبت مني أن أحضر لها بعض العصير» تهلل وجه الأم أخيرًا وهي تسأل ابنتها: «أحقا يا رُقيّة؟!» فنظرت رُقيّة في تساؤلٍ نحو فجر التي ناولتها العصير وهي تقول: «صدقيني يا سيدتي، لقد طلبت مني منذ قليل أيضًا الخروج معها صباحًا لشراء ثوبٍ جديدٍ لتقابل به المقدم زُريق حين يأتي في الغد» لم تكن دهشة رُقيّة بأقل من دهشة أمها التي هتفت: «أحقًا؟!» أخفت رُقيّة اندهاشها وهي تجيب أمها

في توتر: «فكرت أن أراه أولًا يا أمي، هذا كل ما في الأمر» قالتها ونظرت لفجر فأومأت لها في تشجيع؛ بينما قالت أمها في راحةٍ وهي تنهض خارجة: «لديكِ كل الحق يا ابنتي؛ وربما هذا يجعلنا لا نتصادم مع أبيكِ بلا داعٍ، سأذهب لأحضر لكِ بعض المال» وخرجت في لهفة لتحضر المال وبالطبع لتخبر زوجها بقرار ابنتها، فور خروجها فتحت رُقيّة المشربية من جديد فوجدت حسن لازال هناك فابتسمت له، «لقد قال لي السيد حسن أنه في انتظاركِ صباحًا في السوق، وقال لي أيضًا أن عليك مقابلة زُريق هذا دون إبداء رفضٍ أو موافقةٍ لبعض الوقت؛ لذلك قلت ما قلته منذ قليل» أشار لها حسن أن عليه الذهاب فأشارت له وهي تتمتم: «إلى الغد» هز رأسه كأنه فهم ما قالت وذهب؛ بينما عادت أمها تحمل صُرةً من المال وابتسامةً ضخمةً على وجهها وهي تقول: «لقد سعد أباكِ كثيرا بموافقتكِ» التفتت نحوها رُقيّة وقالت: «أنا لم أوافقك يا أمي، أنا قبلت برؤيته فقط» تراجعت ابتسامة الأم قليلًا وهي تعطيها المال فربتت هي على كتفها وقالت: «لا تقلقي يا أمي، فقط ادعِ لي» ضمتها أمها في قوة وهمست: «حفظكِ الله يا ابنتي» وخرجت، وبعد قليل خرجت فجر بدورها لتتركا رُقيّة لأشد لياليها قسوة على نفسها!..

لم يشغلها فقط أن أباها قد يفرقها عن حبيبها؛ بل شغلها أيضا كيف من اليسير عليه التضحية بها في مقابل المزيد من الأموال وبعض النفوذ؟! ألهذه الدرجة لم يعد يكترث لشيءٍ سوى مصالحه؟! وأمها المغلوبة على أمرها دومًا؛ ألم يكسبها خوفها على ابنتها بعض الشجاعة لمواجهته؟! لقد فرحت لمجرد أنها أخبرتها بالموافقة على مقابلة زُريق وكأنها تخلصت من أكبر همومها بالفعل! وأما حسن؛ فكانت لا تثق في موقفه منذ سويعات وهذا أورثها بعض الشعور بالذنب تجاهه ممزوجًا بالكثير من الشوق واللهفة والامتنان، لكنها لا

تدري لماذا لا يتقدم لها حسن بدوره فتخبر أباها بقبولها به ورفضها لزُريق؛ ولا تدري لماذا لم يخطر هذا الحل ببال حسن وهو على يقين من قبولها به زوجًا حتى ولو لم تتمكن من إخباره بذلك حتى الآن! قد يكون خائفًا من رفض أبيها مثلًا؛ فزُريق يمتلك من المال والنفوذ ما يرجح كفته من وجهة نظر أبيها بالطبع وحسن يعلم هذا!..

ظلت هكذا تتأرجح بين الشك واليقين طوال الليل ولم يغمض لها جفن حتى خرجت هي وفجر إلى السوق في الصباح، أصرت على النزول متخفية كالعادة ودون عربةٍ بحجة أنها تريد مشاهدة كل المعروضات وليس فقط المتاح في الوكالات الكبيرة؛ وكذلك لا تريد أي معاملة خاصة لكونها ابنة الشاهبندر، فوافقت أمها لكنها أرسلت معهما صبي من الخدم ليحمل ما ستشتريانه، ظلت تسير بلا تركيزٍ في أي من المعروضات حتى مالت نحوها فجر هامسة: «علينا أن نشتري بعض الأشياء في طريقنا يا آنستي» أومأت لها رُقيّة دون كلمات وتوقفت عند إحدى وكالات العطور، ظلت تقلب قنينات العطور بين يديها في غير اكتراث حتى جذبها التماع إحداها في أشعة الشمس بلون عسلي، ابتسمت رغما عنها وهي تفتحها لتستنشق ما بداخلها فملأ صدرها رائحتها القوية، رفعت رأسها نحو البائع تسأله: «زكية جدًا هذه الرائحة، مِمَّ تتكون؟!»أجابها البائع فورا: «من زيوت الخشب والعود يا آنستي» أشارت لفجر أن تدفع له وهي تقول: «سآخذها» فعاد البائع يقول: «هناك ما يناسبكِ أكثر يا آنستي؛ كزيوت الورد والياسمين والـ....» قاطعته مكررة: «سآخذها» والتفتت ذاهبة بلا كلمة أزيد ومن خلفها الخادم ثم لحقت بهما فجر، استوقفها صبيٌ- يبدو أنه دلّال- يرتدي ملابس فاقعة الألوان ويحمل بعض المناديل المطرزة بين يديه وسألها في بشاشة: «ألا تريد الحلوة منديلًا بلون الورد؟» هزت رُقيّة

رأسها نافية وهي تقول بأدب: «شكرًا لك» حاولت أن تتابع سيرها نحو وكالة عمها عليّ لكن الصبي استوقفها مرة أخرى وهو يقترب منها هامسًا بصوت مغاير لكنه مألوف لها: «حتى ولو كان منديلًا بلون شوقي إليكِ؟!» شهقت في خفوت حين تعرفت صوت حسن الهامس وصمتت لثوانٍ تتأمل هيئته التي تنكر فيها دون أن تنطق بحرفٍ، فعاجلها قائلًا بصوت الصبي وبنبرةٍ مرتفعةٍ أكثر: «تفضلي يا آنستي لتشاهدي ما لدينا في الدكان» فالتفتت نحو فجر تهمس: «علينا الذهاب مع هذا الصبي يا فجر، تخلصي من الخادم بأي طريقة» صدمت فجر للحظة لكنها تلفتت حولها بحثًا عن حجة لتنفيذ ما تطلبه سيدتها، لمحت بعد لحظة دكانًا لبيع الحلوى في نهاية السوق فأسرعت إلى الخادم تعطيه بعض النقود وهي تبتسم في وجهه قائلة: «تقول لك الآنسة: اذهب واحصل على بعض الحلوى إن شئت، ستجدنا في هذه الوكالة حين تعود!» وأشارت إلى الوكالة التي أمامهما تماما، تهلل وجه الخادم في سعادةٍ وهو يختطف منها النقود ويسرع للذهاب لدكان الحلوى؛ بينماالتفتت فجر نحو رُقيّة لتلمح طرف ثوبها يختفى في ذلك المنعطف القريب، أسرعت خلفها فرأتها تدلف مع ذلك الدلّال إلى أحد البيوت الصغيرة المتناثرة على جانبي الطريق؛ فتابعت سيرها حتى لحقت بها إلى الداخل، تسمرت مكانها حين وجدت رُقيّة مرتمية بين ذراعي الدلّال وهي تبكي قائلة: «ظننت أنني لن أراك مجددًا يا حسن» ولم تصدق أذنيها حين سمعت صوت حسن يخرج من بين شفتي الدلّال وهو يجيبها في حنانٍ: «ما كنت لأفقدكِ أبدًا يا حبيبتي» ثم رفع رأسها إليه وسألها ممازحًا: «لكن أيعني هذا موافقتكِ على طلبي؟!» نظرت له بلا فهم للحظة ثم ضربته على كتفه حين فهمت مقصده وهي تضحك من بين دموعها قائلة: «كفاك عبثًا!» ثم أخرجت قنينة العطر وناولتها له هامسة: «لا أدري لمَ ذكرتني بك!» أمسك بيدها دون أن يأخذ العطر منها وظل يتأملها

في شوق وهو يجاهد لكي لا يضمها مرة أخرى؛ بينما نكست هي رأسها في خجلٍ حتى استطاعت بعد لحظة الانسحاب من بين ذراعيه برفقٍ،دارت حول نفسها وهي تتأمل الدار التي يقفون فيها ثم التفتت تسأله في فضولٍ: «دار من هذه؟» وقبل أن يجيبها خرج إليهم رجلٌ أشيب الشعر؛ يتكئ على عصاه -التي لم تخفِ عرجة خفيفة في خطواته- وهو يبتسم لها قائلا: «إنها داري يا رُقيّة» كست الدهشة ملامح رُقيّة وهي تهتف في سعادةٍ: «عمي زياد!»

تذكرت رُقيّة كل هذا وهي تجلس بصحبة أمها وبعض النسوة في دار عمها عليّ، فتلك هي الخالة زهرة التي كانت أول مرة تراها بعد ظهورها من جديد، وهذه بالطبع الخالة درة أم حسن، وتلك هي دلال فتاة الخان، لكن الغريب والمثير للضيق بالنسبة لها أن تجلس هندٌ بينهم بتلك البساطة، صحيح أنها كانت تبكي في ذهولٍ لكنها لم تثر أي شعورٍ بالتعاطف لديها؛ خاصة وحسن يتأملها بكل ذلك الإشفاق عبر النافذة المطلة من مجلس السيدات بداخل الدار على الحديقة، تململت في جلستها كثيرًا وهي ترمقه بين لحظة وأخرى ربما ينتبه إلى أنه يثير ضيقها بما يفعل لكن دون جدوى، تنهدت في عمقٍ وهي تحاول السيطرة على غيظها؛ ورغما عنها لانت قليلًا وهي تراه يجلس حزينًا- وسط أبيه والعم زياد وابني الخالة زهرة- في شرود وصمت تامَّيْن، إنه حتى لم يعترض أو يبدي أي انزعاج حين فوجئوا بزُريق يدخل إلى حديقة الدار وهو يتأملهم في حزنٍ شديدٍ أيضًا ثم يجلس بينهم في صمتٍ!..

هل لأنه رغم كل ما ارتكبته دليلة من جرائم يحمل بعضًا من دمها، أم لأن ما حدث كان صادمًا وغير متوقع على الإطلاق؟! لم تعد تدري حقًا، فلا هي ولا حسن كانا يريدان أن يحدث كل هذا؛ بل لم يخطر ببال أحدهما من الأساس!..

زیاد..

ذات ليلة منذ سنوات بعيدة فوجئ زياد بمجموعةٍ من الرجال الملثمين يقتحمون عليه دكانه ويحملوه معهم بعدما أوسعوه ضربًا حتى غاب عن وعيه، وحين أفاق لم يستطع تبين المكان الذي حُبس فيه؛ لكنه تذكر ذلك الهاجس الذي ظل يحمله منذ مقتل أبيه وعمر من أن دوره هو الآخر آتٍ لا محالة، فيبدو أن دليلة قررت الإجهاز على رفاق الزيبق واحدًا واحدًا، ظل في محبسه لأيام فقد قدرته على إحصائها بعدما عاش طوالها على كسرات الخبز الجافة وشربات الماء القليلة جدًا، وذات ليلة اقتحموا عليه محبسه وانهالوا عليه ضربًا بعصيهم في وحشية، وبينما كان يصرخ من آلام ساقه التي كُسرت للتو؛ عاجله أحدهم بطعنة خنجر أتت على رجولته وهو يهتف في تشفٍ: «لقد أقسمت المقدم دليلة ألا تبقي على رجلٍ يمكنه مساندة الزيبق بعد اليوم» ثم حملوه فألقوه في أحد الأزقة وقد غاب عن وعيه من جديدٍ؛ ليفيق في اليوم التالي على حقيقة أنه أصبح أعرجًا وعاجزًا لبقية عمره!..

هذا ما لم يستطع أن يخبر به أحدا طوال تلك السنوات؛ فعاد إلى أهله صامتًا منعزلًا لا يرغب في الاختلاط بأحدٍ، بماذا كان سيخبرهم؟ هل سيفضح عجزه أمامهم ويعيش ما تبقى من حياته أسير شفقتهم؟! لقد أوصل لهم الرسالة التي أملاها عليه رجل دليلة؛ وترك عليًا يظن أن ربما تلك الرسالة هي السبب الوحيد الذي جعلهم يتركوه حيًا ولم يقتلوه كما فعلوا في شومان وعمر من قبله وفضل من بعده، فلن يفيد أحد معرفة الحقيقة وكذلك لن يفيدوه في استرداد ما خسره!..

لكن بعد بضع سنوات وجد أن عزلته وتقوقعه يؤديان به إلى نفس التعاطف والإشفاق اللذين أخفى حقيقة ما حدث له هربًا منهما؛ فبدل حاله من جديد إلى صورة لم يتوقعها أحد، ترك متابعة دروسه في الأزهر وأصبح

يقضي كل لياليه- بعد ساعات عمله في الدكان- في الحانات والخانات وبرفقة بنات الهوى؛ حتى صدق الجميع- بمن فيهم أخته وعليّ والفتاة التي كان يرغب في الزواج بها- أنه تحول بالفعل إلى ذلك الماجن اللاهي، وظل على تلك الحالة عمرًا طويلًا؛ حمل خلاله صيت الرجل الخليع الذي أصبحت داره وكرًا للغواني وعشاق اللهو والفسوق؛ بعدما هجرتها أمه لتعيش مع أخته درة في دار عليّ الزيبق، لكن رغم هذا كله كان قلبه معلقًا بأبناء عليّ وفضل وتلك الفتاة الصغير رُقيّة ابنه حسان تاجر الفضة؛ والتي كانت تحب مشاركتهم اللعب، كان يعلم من داخله أنه لن يشعر بأبوته لأي طفل ما بقي له من عمر؛ فكان كثيًرا ما يذهب للهو معهم في ساحة الشطار دون علم أهلهم، لكن حتى تلك المتعة الصغيرة حُرم منها بعدما قُتل فضل واختفت زهرة بولديها ولم يعد حسن ورُقيّة يذهبان كثيرًا إلى الساحة..

وبدأت الوحدة تنشب مخالبها في قلبه منذ ذلك الحين رغم كل ما كان يحيط به نفسه من صخبٍ، مرات كثيرة كان يقف أمام مرآته وهو يتحدث إلى نفسه ساخرًا فيقول: «كنت تُلح على الزيبق أن يعلمك فنون التنكر والتخفي يا ابن شومان؛ ها أنت قد فقته مهارةً وتنكرت لسنواتٍ طويلةٍ خلف قناع من ملامحك أنت التي لم تعد ملامحك!» ومرت السنوات ولم يعد الحال كما الحال ولا أصبح لديه القدرة على الاستمرار في خداع من حوله أكثر من ذلك؛ فقل خروجه للناس بعدما مل من خدعته التي صدقها الناس طويلًا، لذلك أصبح يعتمد على بعض صبيانه في إدارة دكانه- الذي نمّاه طوال السنوات الماضية ليحوي تجارةً معقولةً تقيه شر الزمن- وآثر هو الانعزال والوحدة هامسًا لنفسه في كل مرة يشتاق فيها للاختلاط بالناس أن كفاني خداعًا!..

وطوال تلك السنوات لم يكن يزوره ويطمئن عليه أحد من أهله قدر ما

كان يفعل حسن، هذا الشاب شعر بما لم يشعر به أبوه وأمه رغم أنهما أقرب الناس إلى زياد، ولذلك كان هو صديقه الوحيد رغم فارق العمر بينهما؛ وكان هو الوحيد أيضا الذي قص عليه حقيقة الحادث الذي تعرض له في شبابه، يذكر جيدًا أن حسنًا هتف يومها متأثرًا: «وتركت الناس جميعا يتهمونك بالفسق والمجون وأنت بريء من كل هذا؟!» ابتسم له ساعتها وسمح لنفسه أخيرًا أن يبكي حزنًا على نفسه وعلى حياته الضائعة وأمه التي رحلت وهي غاضبة عليه ولا تريد رؤيته رغم محاولاته الكثيرة لذلك، ويوم وفاتها كان هو اليوم الذي قرر فيه الانسحاب إلى عزلته من جديد، وكانت تلك آخر مرة يرى فيها درة وعليّ؛ وإن ظلت صلته بهما قائمة من خلال زيارات حسن له؛ التي كانت سرية في البداية وأعلم بها أبويه فيما بعد حين شعر أنهما سيقبلان بها مع تبدل حال زياد وابتعاده عن لهوه السابق، لذلك كله لم يندهش حين لجأ إليه حسن وقص عليه ما كان من أمر حبه لرُقيّة - رفيقة طفولته- ورغبته في الزواج بها التي لم تتمكن حتى من إجابته عليها حين علمت بأمر طلب زُريق السماك لها، في تلك اللحظة التي نطق فيها حسن اسم زُريق انتفض زياد في حدة وهتف: «تقول من؟ زُريق؟ سبحانك يا إلهي لك التدابير في قدرك!» اندهش حسن وقتها من ردة فعل زياد وسأله في فضول لم يستطع كتمانه رغم ما يحمل من هم: «من زُريق هذا يا خالي؟!» دار زياد حول نفسه في غضب حتى شعر أن ساقه السليمة لن تتحمل ثقله فألقى بنفسه جالسا على المصطبة في حديقة داره صامتًا دون رد، اقترب منه حسن يسأله في قلق: «أأنت بخير يا خالي؟!» رفع زياد وجهه نحو حسن وقد امتلأت عينيه بدموع مكتومة وقال له متنهدًا: «إنه هو خالك يا ولدي، زُريق السماك شقيق دليلة جدتك يا حسن» وهنا لم يتحمل حسن بدوره فسقط جالسًا بجوار زياد في صمت..

في تلك الليلة كان حسن قد عرف لتوه بطلب زُريق لرُقيّة وعلم من وصيفتها فجر بسقوطها مريضة؛ فأرسل لها مع فجر يحاول طمأنتها حتى يذهب إليها في اليوم التالي، وأوصاها أن ترسل له ما يستجد معها، وسار ليلتها على غير هدىً لا يدري ماذا يفعل، هل يذهب ويتقدم لأبيها الشاهبندر بطلبه الزواج منها؟ صحيح أنه ابن عليّ الزيبق ذي الشأن والصيت والمال أيضا؛ لكن الشاهبندر حسان كان من هؤلاء الطامعين في الأثمن دائما وقد يرفضه بمجرد إجراء مقارنة صغيرة جدًا بينه وبين زُريق، لذلك حمل حاله وذهب إلى زياد يستشيره في الأمر؛ لكن الذي لم يتوقعه أبدا أن يكون بينه وبين ذلك الكهل المتصابي صلة دم!

ظل زياد مسهدًا في تلك الليلة؛ يفكر في أمر حسن المهدد بخسارة حبيبته كما أُجبر هو على التخلي عن حبيبته، إنه يذكر جيدا كيف استطاع خداعها وإيهامها أنه تخلى عنها وعما بينهما من عهود عذبة وحالمة؛ وتركها تتهمه بالغدر وقلة الضمير كما اعتاد الجميع على الظن به فيما بعد، وجد زياد نفسه بعد كل تلك السنوات في موقف مشابه وكأن القدر يمنحه فرصة لتصرف آخر غير كسر عهد الهوى بين قلبين متحابين، آن الأوان لمواجهة دليلة- التي علم أنها في المحروسة مع أخيها- كي لا يذوق حسن ما تذوقه هو مرارًا أذاب روحه طوال السنوات الماضية، لذلك مع حلول الصباح أرسل في طلب حسن ليخبره أن عليهم بدء اللعبة، «لعبة؟!» سألها حسن في اندهاش فابتسم زياد قائلا:

- أمثال جدتك دليلة يا حسن لا يمكنك أن تأخذ منها شيئا رغم إرادتها سوى بالحيلة..

-لست أفهم ما علاقة دليلة بالأمر؟!

- علمت أن دليلة هنا في المحروسة بصحبة زُريق وينزلان في خان الطبيب داوود..

- لازالت لا أفهم ما دخلها بما بيني وبين زُريق هذا؟

- وهل تظنها ستقف بلا حيلة لو وقفت أنت في وجه أخيها؟

- ولكني ابن بنتها! هل ستنصره علي؟

- زينب أمك كانت ابنتها ومع ذلك لم ترحم حزنها على أبيك ورفاقه يا بني..

صمت حسن مفكرًا في صدق منطقه ثم سأله: «وماذا علينا أن نفعل؟» تنهد زياد وهو يقول: «ليس لدي فكرة محددة الآن، لكن بالطبع علينا اللعب للضغط على زُريق بشيء يجبره على التخلي عن فكرة زواجه من رُقيّة» هز حسن رأسه مؤمنًا على حديثه بينما أكمل زياد: «أهم شيء الآن أن تطمئن رُقيّة وتجعلها لا تعلن رفضها لأهلها هكذا كي لا تكسب معاداتهم، الأمر يحتاج للحيلة» هز حسن رأسه موافقًا وتمتم بأنه فعل ذلك مسبقًا ويخشى أن تظنه يتخلى عنها بطلبه هذا، لذلك نصحه زياد أن يذهب إليها بنفسه ولا يقطع الصلة بينهما على الإطلاق، وحين خرج ليلتها من عنده كان يعلم أنه سيسعى لرؤيتها في أقرب فرصة ربما تطمئن قليلًا؛ لكنه لم يتوقع- هو أو حسن- أن تطلب هي رؤيته في نفس الليلة، علم زياد بهذا كله حين فوجئ بحسن يعود إلى داره بعد قليل ليخبره أنه سيقابل رُقيّة في السوق صباحًا قبل أن يأتي زُريق لزيارتهم في الدار؛ ولأنه يريد محادثتها منفردين فسيأتي بها إلى هنا، فوافق زياد متمتمًا: «زُريق لا يضيع وقته على الإطلاق!» نظر له حسن وعيناه تحملان كل قلق الدنيا لكنه مع ذلك خرج صامتًا!..

وفي الصباح استيقظ على طرقات متعجلة على باب داره فهب مفزوعا ليرى

الأمر، فوجده فتى يبدو- من ملابسه فاقعة الألوان وتلك المناديل المطرزة التي يحملها بين يديه- أنه دلّال لأحد دكاكين الأقمشة أو الملابس، فهب في وجهه صارخًا في انزعاج: «هل هذا وقت مناسب للدلالة أيها البائع المعتوه؟!» دخل الدلّال إلى قلب الدار دون استئذان وهو يقول: «هذا أنا يا خالي» تطلع إليه زياد للحظة ثم انطلق ضاحكًا حتى دمعت عيناه وهو يغلق الباب خلفه قائلًا: «أيها الشيطان الصغير، هذا الشبل من ذاك الأسد حقًا» وفهم منه سريعًا أنه سيخرج لانتظار رُقيّة في السوق؛ بالقرب من المنعطف المؤدي نحو داره ليحضرها إلى هنا دون أن يلحظ أحد، وخرج حسن مرة أخرى وهو ينادي بصوت رفيع بعض الشيء؛ كأنه لفتى دون السادسة عشر وهو يقول: «مناديل الحسان.. مطرزة بأبهج الألوان.. المنااااااااااديل»لم يغلق زياد الباب خلفه وتركه له مواربًا وهو مستمر في الضحك؛ متذكرا كيف كان هو وعليّ يلهوان بالتخفي ومفاجأة بعضهما البعض في شبابهما..

بعد قليل سمع باب الدار يُفتح في هدوء فعلم أنه حسن قد عاد ومعه رُقيّة، تمهل قليلًا في الخروج إليهما حين لمحهما يتعانقان، وحين قرر الخروج أخيرًا سمع رُقيّة تسأل حسن في فضول: «دار من هذه؟» وقبل أن يجيبها حسن كان قد خرج إليهم وهو يبتسم قائلًا: «إنها داري يا رُقيّة» كست الدهشة ملامح رُقيّة وهي تهتف في سعادة: «عمي زياد!» بعد ابتسامة تلك الصبية وجد ذهنه يتفتق فجأةً عن الخطوة الأولى لبداية ملعوبهم على زُريق ودليلة فهتف بنبرة أصبى من كلاهما: «ابتسامة تلك الحسناء الصغيرة جعلتني أُمسك بطرف الخيط لملعوبنا القادم» سأله حسن في لهفة: «وما هو؟» لكن قبل أن يجيبه زياد سألتهما رُقيّة في عدم فهمٍ: «أي خيط وأي ملعوب؟! أنا لا أفهم شيئا!» وبدأ زياد يشرح لها ما تحدث هو وحسن بشأنه في الأمس واختتم

حديثه قائلًا: «كل ما عليكِ الآن يا ابنتي أن تتظاهري بالرضوخ لرأي أبيكِ ودورنا نحن أن نجبر زُريق على التخلي عن فكرة زواجه بكِ» فكرت رُقيّة في شك وتمتمت: «وهل هذا معقول؟!» أمسك حسن بكفيها وقال في إخلاصٍ: «لا تخافي يا حبيبتي، لن أتخلى عنكِ سوى بموتي» دمعت عيناها فأسرع زياد يقول: «كفاكما الآن وأسرعا بالخروج إلى السوق كي لا يلحظ أحدهم شيئًا» أومأت رُقيّة وخرجت ومن خلفها فجر على عجلٍ؛ بينما وقف حسن يراقبهما حتى اختفتا خارج المنعطف، ظل ساهمًا لثوانٍ حتى شعر بيد زياد تربت على كتفه فسعل ليخفي تأثره وسأله: «ما هي تلك الخطوة الأولى التي توصلت إليها يا خالي؟» ابتسم زياد وقال: «دليلة» نظر له حسن في تساؤل فبدأ يشرح له فكرته، كان يعتمد على إلهائها عن التركيز فيما يفعل زُريق ليتمكنوا من الانفراد به، لذلك طلب من حسن أن يذهب إليها ويعرفها بنفسه ويتودد إليها؛ ويفهمها أنه حين علم بوجودها في المحروسة أراد أن يتعرف بأحد من دم أمه، وحذره من التطرق إلى الحديث عن العُيَّاق وأعرافهم؛ فحينها قد تشك في أنه جاءها طلبًا للثأر، بالطبع ستحاول هي معرفة خبايا نفسه؛ حينها يخبرها ما يردده دائما على مسامع أمه درة من أنه لا يهتم باحتراف العياقة ولا هو من المدافعين عن أعرافها هو فقط ينصر المظلوم إذا استطاع، وصمت زياد لحظة مفكرًا ثم سأله: «أحقًا ما تقوله لدرة يا حسن؟!» ابتسم حسن للحظة قبل أن يقول: «أصبح لدي يقين أن أبناء العايق يتوارثون العياقة حتى ولو ظلت كامنة أسفل جلودهم، فقد يبدو الابن مختلف عن أبيه لكنه في الحقيقة كمن ورث عنه النظرة دون شكل العيون أو طريقة التحدث دون نبرة الصوت» والتفت نحو زياد يسأله: «أليس هذا صحيحًا؟!» شرد زياد يفكر في أبيه الراحل وكيف كان يظن نفسه مختلفًا عنه؛ لكن بعض الأوقات- التي تشبه لحظتهما تلك- يشعر بحسن شومان يطل له من خلف أفكاره ليتحدث بلسانه

ويفكر بعقله، تمتم: «صحيحٌ يا حسن، صحيحٌ» جاء حسن ليجلس إلى جواره وفي عينيه بعض حديثٍ لم يستطع النطق به، فابتسم مرة أخرى وقال: «لن تمتد يد أحدنا للثأر من امرأة يا ابن عليّ، لا أنا ولا أبوك ولا أي عايق يحمل شرف هذا الفن» نكس رأسه في هم وقال: «دليلة تضعني في موقف أقف فيه على حافة جبل شاهق يفصل بين سهلين؛ لو اخترت أيهما لخسرت الآخر ما حييت» هز زياد رأسه نافيًا وقال: «لست مضطراً لمثل تلك المواجهة لو تصرفت بحكمةٍ كما أفهمتك، هيا اذهب الآن لترى ماذا ستفعل» نهض حسن وسار بضع خطوات باتجاه الباب ثم تسمر مكانه هاتفا: «يا الله!» نظر له زياد في دهشةٍ وسأله: «ما بك الآن؟!» سأله حسن في توترٍ: «أتظن أبي سيوافق على ما نفعل؟»صمت زياد مفكرًا للحظةٍ ثم هز رأسه نفيًا في بطءٍ قائلًا: «لا أعتقد أن الوقت مناسب لإخباره، دع أمر أبيك الآن وركز كل تفكيرك في كسب دليلة» أومأ له حسن في شيءٍ من الراحة وذهب؛ بينما اعترف زياد لنفسه أن معرفة عليّ الآن قد تعني التطرق لما حدث له على يد رجال دليلة فيما مضى وهذا أمر هو غير مستعد له الآن!..

وتوالت الأيام وحسن يتردد على الخان بانتظامٍ وينقل لزيادٍ كل ليلةٍ ما يستجد، فعرف منه أن دليلة تقبلته بشكلٍ كبيرٍ؛ وتحاول الابتعاد عن ذكر الماضي أمامه كي لا تخسره، وحكى له عن هندٍ - ابنة زُريق- التي منذ رأته لأول مرة وهي تحوم حوله باستمرار بشكلٍ لا يريحه؛ ويشعر أن جدته تشجعها على ذلك، قال له ذات يومٍ في نفاذ صبر: «لم أعد أدري ماذا أفعل؛ لا يمكنني خداع هندٍ بشيءٍ ليس حقيقيًا وأيضًا لا أستطيع صدها بشكل قد يحفز دليلة ضدي!» ضحك زياد يومها وقال له: «تجاهلها يا بني في غير إهمالٍ» ضحك حسن حينها وهو يقص عليه كيف تهرب من الحديث مع أبيه في تلك الليلة

التي ضبطه فيها عائدًا من جهة الخان؛ ويبدو أنه رأى هندًا وهي تودعه من المشربية، تصنع زياد اللؤم حينها وهو يسأله ضاحكًا:«حسن! هل فسدت أخلاقك يا حسن؟!» أجابه حسن في مسكنة: «بريء يا سيدي أقسم لك»..

أخبره حسن كذلك عن دلال؛ إحدى العاملات في الخان والتي أصبح يستعين بها في معرفة تفاصيل أكثر عن تحركات دليلة وزُريق وحتى الطبيب داوود، تشكك ساعتها زياد بعض الشيء بخصوص ثقة حسن بها لكن حسن طمأنه إلى أنه حتى الآن لم يستغل أي معلومة وصلته من دلال؛ وإن كانت لديه معلومة منها ربما تكون مدخلًا لأول ملاعيبه مع زُريق، وقص عليه كيف أنه رغم إتيانه إلى المحروسة لمباشرة تجارته مع الشاهبندر وإتمام زواجه من رُقيّة- كما يتمنى- إلا أن أكثر سهراته في الخان لم تكن بريئة تماما ودوما ما يرتبها له داوود لتصحبه فيها جارية أو أكثر، نهض زياد يفكر بعض الشيء وحسن يقول: «نحن نبحث عن شيءٍ نجبره به على التخلي عن فكرة زواجه برُقيّة والرحيل عن المحروسة كلها إن أمكن، أليس كذلك؟!» هز زياد رأسه دون رد وظل صامتًا لبعض الوقت ثم قال في بطء:

- ماذا لو وصلت إلى زُريق رسالة من سيدة مجهولة مع جاريتها الحسناء تخبره فيها أنه مدعو عندها على إحدى السهرات؛ أهو من التهور ليقبل عرضًا كهذا؟!

- هو ليس متهورًا فقط بل ومغرورًا بمنصبه ونفوذه أيضًا؛ للدرجة التي يظن معها أنه قادرٌ على نيل من يريد وقتما يريد، هذا بالإضافة إلى أنه رجلٌ مزواج..

- رائع، فلنجرب استخدام معلومة دلال إذن..

وجلسا في تلك الليلة يخططان لملعوب السرقة، أخبره أنه سيتولى أمر

تلك التي سيرسلونها إلى زُريق وسوف يقابله بها هنا في داره ليتفقا على ما سيفعلان ليلتها؛ وإن نصحه أن يقابلها متخفيًا فلا تعرف من هو، ورتبا بدقة كيف ستستدرجه وماذا ستقول له تحديدًا؛ وإلى أين ستوصله حتى ينقض عليه حسن ويسرقه، أومأ له موافقًا لكنه سأله في قلق:

- وما الذي يضمن لنا ألا تدل الجنود علينا؟»

- وكيف سيصل الجنود إليها؟

- حين يبلغهم زُريق أنه سُرق!

- ستكون فتاة ذات ملامح غير مميزةٍ فلا يستطيع زُريق إعطاء الجنود وصفًا واضحًا لها..

ثم ابتسم وأكمل: «ثم إن سمعتي كزير نساءٍ نبيل تجعل الكثيرات مستعدات لتقديم بعض الخدمات لي» ضحك حسن في قوة وهو يسأله: «زير نساءٍ نبيل! ما الذي يعنيه هذا؟» تنهد زياد في بطء وقال: «ليس كل من حاد عن صوابه آثمًا قلبه يا بني، قد يكون آثمًا في أعينكم لكنه لازال يحمل في قلبه بعضًا من إنسانيته التي تمنع أذاه عمن حوله، وهؤلاء اللاتي عرفتهن في حياتي وجدن بعض الأمان في صحبتي، هذا كل ما في الأمر» تأمله حسن في إعجابٍ صامتٍ فابتسم زيادٌ وسأله مازحًا: «أستظل متطلعًا إليّ هكذا يا ابن عليّ؟!» نهض حسن وقبله على كتفه ثم تنحنح في حرج وقال: «خالي!» ضحك زياد وهو يشير له أن يكمل ما يريد قوله لكن حسنًا لم يستطع وهو يضحك بدوره، فسأله زياد من بين ضحكاته: «متى ستأتي بها؟» كان حسن يرغب في مقابلة رُقيّة في دار زياد مرةً أخرى وكان يعرف أنه يفهم ذلك لكنه تظاهر بالدهشة وهو ويسأله:»من أين علمت أنها ستأتي يا زياد؟ ها! أخبرني؟!» تبادلا المزاح للحظات ثم نهض زياد ليدفع حسن بعصاه نحو باب

الدار وهو يقول: «هيا من هنا، حان موعد ذهابك إلى الخان» وبعدما أصبح حسن خارج الدار سأله هامسا: «لم تخبرني متى ستأتيان؟!» أشار له حسن وهو يبتعد هاتفا: «في الصباح» واختفى في نهاية المنعطف..

ظل زياد في تلك الليلة شاردًا يفكر في تلك الروح التي دبت في قلبه منذ علم بالمأزق الواقع فيه حسن ورُقيّة، صحيح أن أمثال زُريق ودليلة ومن يشبهونهما يستحقون التصدى لما يرتكبونه في حق البسطاء؛ لكن هؤلاء البسطاء أنفسهم أصبحوا غير مكترثين لرفض ما يحدث لهم، الذي وقر في قلبه حقًا ذلك الألم والخوف الذي رآه في عينيّ حسن ورُقيّة؛ وخوفهما على ذبول تلك النبتة الوليدة فيما بينهما، أراد أن يجنبهما اللوعة التي عاشها مجبرًا منذ سنوات حين خسر حبيبته، أكثر ما آلمه حينها أنه اضطر لخداعها لكي تبتعد عنه، فبعدما كانت تصر على التمسك رغم انعزاله عن الناس؛ دفعها بمرور الوقت للهروب منه بعدما ألف صحبة الغانيات وبائعات الهوى، يذكر جيدا حين استوقفته ذات صباح وهو عائدٌ إلى داره وقد تلاعبت الخمر برأسه، هتف في فرحٍ: «حبيبتي» واقترب منها يريد ضمها- لاهيًا عن الدور الذي يلعبه منذ فترة- لكنها استوقفته في حدة وهي تهمس له في حسرة: «لا تتحدث عن الحب فأمثالك لا يقيمون قدرًا لمشاعر الناس» أعادته كلماتها لتذكر ما عليه فعله؛ فابتسم في وجهها ساخرًا وهو يصفق قائلًا: «أحسنتِ! فما الذي أتى بكِ الآن إذن؟!» وقفت تتأمله طويلًا دون ردٍ وخيل إليه بعد لحظة أن وجنتها تلتمع بدمعةٍ فرت رغمًا عنها، وقبل أن يفقد السيطرة على مشاعره مرة أخرى استدار مشيحًا بيده وهتف: «اذهبي لشأنكِ! اذهبي» وأسرع يختفي من أمامها وضربات عصاه تخفي شهقات بكائه الذي ارتفع صوته رغمًا عنه!..

في اليوم التالي استيقظ ينادي باسمها لكنه اكتشف بعد لحظة أنه على

فراشه وحيدًا كما العادة، لحظات وسمع طرقًا على باب الدار فنهض في بطءٍ ليجده حسن الذي حياه ودخل مسرعًا، أغلق زياد الباب غير مكترثٍ لذلك الفتى الواقف على مقربةٍ من الدار؛ بينما اتجه حسن من فوره نحو الصندوق الذي تركه سابقًا في الساحة وهو يقول: «لم أستطع الخروج من الوكالة قبل الآن وأخشى ألا ألحق موعد وصول رُقيّة» وبدأ يخرج ثياب الفتى الدلّال ليبدلها بثيابه وزياد مازال واقفًا بجوار الباب يتأمله بعينين مازال النعاس يراودهما، لحظات وأنهى حسن ما يفعل ثم حمل بين يديه مجموعة المناديل الملونة وأسرع خارجًا، هذه المرة انتبه زياد لذلك الفتى الذي بدا وكأنه يراقب داره؛ فترك الباب مواربا وذهب ليغسل وجهه وعاد بسرعة ليجلس على المصطبة القريبة من باب الدار بحيث يرى من في الخارج دون أن يراه، لحظات ورأى حسنًا قادمًا ومن ورائه رُقيّة وفجر فأسرع يفتح لهم الباب لتدخل الفتاتان بينما استوقف حسن وهمس له مشيرًا نحو الفتى الواقف عند بداية المنعطف: «هذا الفتى خلفك منذ جئت في المرة السابقة لكن يبدو أنه لم يدرك أنك والفتى الدلّال شخص واحد فبقي هنا ينتظرك» نظر حسن بطرف عينه نحو الفتى ثم هتف هامسًا: «إنه عامر!» وقبل أن ينطق زياد اندفع نحوه حسن وجذبه من ذراعه نحو الدار وهو يغلق فمه بكفه في قوةٍ، صرخ عامر- بعد أن حرره حسن- قائلًا: «ماذا تريد مني يا هذا؟!» تأمله زياد في ترقبٍ والفتاتان في فزعٍ؛ بينما ابتسم حسن وهو يخلع الشعر المستعار والشارب الرفيع عن وجهه ويسأل عامر: «بل ما الذي أتى بك إلى هنا أيها الشقي؟!» ضج عامر ضاحكًا وهو يعانق حسن مهللًا: «سيد حسن! يا الله! لم أستطع التعرف عليك!» هز حسن رأسه وابتسم بينما سأله زياد في استنكار: «من يكون هذا الفتى؟!»أجابه حسن وهو يدفع عامر إلى خارج الدار قائلًا: «هذا مشروع عايق صغير يا خالي ويعمل معنا في الوكالة، وعليه الآن أن يسبقني إلى هناك كي

لا يلاحظ الحاج عليّ غيابنا كلينا، أليس كذلك يا سيد عامر؟!» هرش عامر في رأسه بحرج وهو يسرع إلى الخارج هاتفًا: «حسنًا، سأنتظرك» هنا فقط ضحك زياد وهو يذهب ليسلم على رُقيّة التي كشفت وجهها مبتسمة بعدما هدأ قلقها، تسمر حسن يتطلع نحوها بينما صافحها زياد قائلا: «أكثري من زياراتك لنا يا رُقيّة فهذا المسكين مُصاب في قلبه؛ لو غبتِ عنه كثيرًا قد يصاب عقله بلوثةٍ تتركه هائمًا في الطرقات كالمجاذيب» قالها وهو ينسحب إلى داخل الدار وهو يشير إلى حسن قائلا: «قد يفيدنا ذلك الفتى» قالها زياد دون أن يكون على علمٍ بالخطوة التالية التي عليهما -هو وحسن- القيام بها؛ لكن أحداث ذلك اليوم الكثيرة والمتلاحقة دفعتهما لاختياراتٍ محددةٍ ونهايةٍ سريعةٍ لم يردها أو يخطط لها أحدهما!..

في المساء كان في انتظار حسن ليقابله بالفتاة التي ستستدرج زُريق لكنه تأخر كثيرًا عن موعد إغلاق الوكالة، وقبل أن تمل الفتاة ببرهة سمع طرقاته على باب الدار فأسرع يفتح له في لهفة هاتفًا: «ما الذي أخرك؟!» لم يجب حسن وهو يعدل لثامه على وجهه ليذكره أن هناك غريبة حاضرة بينهما؛ فتدارك زياد الموقف والتفت إليها قائلا: «تلك هي أنهار، ستذهب إلى الخان حاملة الرسالة التي سنكتبها الآن وتسأل عن دلال» واستدار يسأل حسن: «هل أفهمت دلال ماذا ستفعل؟» أومأ حسن وقال: «لا تقلق» وبعد أن راجع مع أنهار كل المطلوب منها أسرعت هي نحو الخان بينما أغلق هو الباب خلفها وهو يتأكد من عدم وجود من يتبع حسنًا كما حدث في الصباح، بادره قائلًا: «ما حدث في الصباح لو تكرر قد تؤدي بنفسك للهلاك» شرد حسن قليلًا وهو يجيب: «عندك حق؛ كنت على عجلة وخشيت ألا ألحق بموعد رُقيّة» لم يشأ زياد أن يثقل عليه وهو يرى علامات التوتر على وجهه؛ التي خمن أنها

بسبب ما سيقوم به الليلة، فاقترب منه مهدئًا وقال: «ستمر على خير، لا تقلق» نظر له حسن متجاهلًا قوله وقال فجأة: «عامر الذي رأيته في الصباح ابن الخالة زهرة» تراجع زياد دون فهم فأكمل حسن بكلمات ممطوطة: «عامر وعمر أخوه اللذان يعملان معنا في الوكالة منذ فترة قريبة ابنا الخالة زهرة التي ظهرت اليوم في دارنا فجأةً يا خالي، أتعرف لماذا عادت؟! عادت لأنها علمت أن دليلة في المحروسة ويبدو أن ذلك الخبر أجج بداخلها ثأرها القديم!» قالها حسن ونهض في صمتٍ متجهًا نحو الباب ليقف بضع ثوانٍ بجواره ثم يقول: «سأذهب الآن للحاق بزُريق وأنهار» لكن زياد استوقفه قبل ذهابه بثوانٍ قائلًا: «حسن، قابلني بهذين الفتيين في الصباح» فأومأ له في صمتٍ وذهب!..

«أجج بداخلها ثأرها القديم» ظلت تلك العبارة تتردد في رأس زياد طوال الليل وهو يستعيد شريط حياته بالكامل، منذ أن كان يعيش في الإسكندرية مع أسرته؛ وحتى مقتل أبيه وعمر وفضل وما حدث له هو، كلها أحداث جعلت هواجسه تتسلى به طيلة الساعات الماضية؛ فتارةً يلوم نفسه على الدفع بالفتى لمواجهةٍ كهذه مع زُريق، وتارةً أخرى يلوم نفسه على ذلك اللوم ويعتبره ضعفًا وجُبنًا، وظل هكذا حتى سمع على الباب طرقًا خفيفًا لكنه مسموع في هدأة الليل بوضوح، تنهد حين فتح الباب ليجده حسنًا الذي أزال اللثام عن وجهه ليبتسم له وهو يدس كيسًا ضخمًا من النقود بين يديه قائلا: «عمت مساءً يا خالي العزيز» وأعاد لثامه على وجهه متابعًا: «أراك في الصباح» وانطلق عائدًا لبيته؛ بينما حمل زياد كيس النقود ليتوسده وهو يسمح لنفسه أخيرًا بإرخاء جفنيه!..

في الصباح استيقظ زياد متأخرًا على غير العادة وأتاه أحد العاملين في دكانه ليخبره أن الجنود يسألون كل من في السوق حول حادث وقع قرب

الفجر وقد يطلبون سؤاله، ابتسم زياد في غير اكتراث وقال له: «حسنًا» وصرف العامل وهو يستعد لاستقبال حسن والفتيين ورأسه تحمل فكرة وحيدة؛ آن الأوان التخلي عن بعض الأنانية ونحاول تقديم شيء لغيرنا فربما هذا يكون الحل المستحيل الذي سيرضي جميع الأطراف، وقبل أن يحاول ربط الفكرة بما تحمل تلافيف مخه من تفاصيل سمعها من حسن الذي سمعها بدوره من دلال؛ أتته الطرقات المعهودة على باب الدار فأسرع يفتح في ترحاب وهو يهتف: «أبناء الغوالي» وفتح ذراعيه ليستقبل عمر وعامر الذي كان يبتسم في سعادة، فخاطبه زياد وقال: «بالأمس أردت دس أنفك هذا بما يفعل حسن واليوم تتحقق أمنيتك بأسرع ما تتوقع أيها العايق الشقي» وضحك الجميع بينما ابتسم عمر في هدوء؛ فالتفت إليه زياد يتأمله: «تشبه جدك وأباك معًا يا فتى» وأخيرا التفت نحو حسن وسأله:

- ما الذي أخركم؟

- عدت للدار قرب الفجر ورُحت في سبات عميق حتى أيقظتني درة وعليّ يهتف بي أن ألحق به إلى الوكالة، وحين وصلت كانت الوكالة والسوق كله يمتلئان بالجنود الذين استجوبوا الجميع وفتشوا كل مكان بلا استثناء؛ بينما كان أبي في قمة ثورته حتى أنه صرخ في وجهي ودفعني بعيدًا عنه حين حاولت أن أفهم منه ماذا يحدث، وبعد أن هدأ كل شيء فوجئت به يجذبني نحو المخزن ليقوم هو هذه المرة باستجوابي..

- عن ماذا؟

- اتضح أنه هو وأمي يعلمان بترددي على الخان في الآونة الأخيرة وأصابهما القلق من ذلك، لكن الذي أفزعهما بالأمس بعد زيارة الخالة زهرة أن يكون ترددي على الخان بسبب دليلة..

صمت زياد مفكرًا للحظات ثم تمتم في خفوت: «إذن قد آن الأوان حقا» تكلم عمر في تلك اللحظة وقال: «كنت في السابق أشعر بالألم حين أسمع حديث الناس عن أبطال كرأس الغول وشومان وعمر الخطاف وفضل الرامي؛ لكن أن يكونوا ذوى قرابة لي إلى هذه الدرجة وأن تحمل أمي طوال تلك السنوات في قلبها كل هذا الهم بسبب دليلة؛ أمر يجعلني أخاف عليها مما قد تفكر به» هز زياد رأسه في إعجاب بكلمات عمر وقال: «هذا ما كنت أفكر فيه طوال المساء يا بني، إن لأمك ولنا جميعًا ثأر لدى دليلة لكنّنا رجالٌ لا يصح أن تمتد أيدينا للثأر من امرأة خاصةً مع ما يحمله حسن من دمائها» نكس حسن رأسه في صمتٍ فأكمل زياد محدثًا الفتيين: «أمكما الوحيدة التي لو قررت الثأر من دليلة ما منعها شرف أو عُرف؛ لها كامل الحق في ذلك، لكننا لا نريد ذلك أيضًا وفي نفس الوقت مازالت دليلة وأخوها وداوود ومن هم على شاكلتهم يؤذوننا ويؤذون من حولنا من البسطاء والحرافيش، فماذا نفعل؟» ابتسم حسن وهو يراهن نفسه على أن ما فهمه صحيحٌ فقال متسائلًا: «نلاعبهم؟» أشار له زياد بالموافقة وقال: «نعم» وعاد ينظر إلى الفتيين وقال: «والخطوة التالية عندكما، أمستعدان؟» أعلن عامر موافقته فورًا بينما فكر عمر قليلًا ثم قال: «أعتقد أن ذلك قد يرضي أمي بعض الشيء ويجعلها تنسى فكرة ثأرها من دليلة» هز زياد رأسه وقال: «هذا بالفعل ما أريده من تلك الخطوة، بل وسوف تساعدنا أمكما ودرة وعليّ نفسه لو لزم الأمر» وهنا فوجئ الجميع بعليّ يقف على باب الدار الذي نسوه مواربًا وهو يقول في غضبٍ: «ماذا تريد من عليّ وأهله بعد كل تلك السنوات يا زياد؟!» ارتجف الفتيان بينما حاول حسن التدخل قائلًا: «سأخبرك بكل شيءٍ يا أبي» أوقفه زياد بإشارة من يده وهو يقول: «لا تتدخل بيني وبين أبيك يا حسن» وتنحى به جانبا للحظاتٍ أخذ يناقشه فيها حول ما عرفاه عن عربات الغلال التي

تصل الخان كل مساء وطلب منه أن يرتب الأمر مع دلال والفتيين بحيث يهجما على سائق عربة الغلال فور وصوله إلى الخان لينقلا حملها بأكمله إلى عربة أخرى ويتركان رسالة جديدة باسم العايق، كل هذا أمام نظرات عليّ التي كادت تفتك بزياد؛ خاصةً عندما رأى حسن والفتيين يستعدون للمغادرة، حاول اللحاق بهم وهو يهتف: «انتظروا» تسمر ثلاثتهم لكن زياد أشار لهم بالانصراف قائلا: «بل انصرفوا الآن إلى عملكم» واستدار نحو عليّ وجذبه إلى الداخل وهو يغلق خلفهم الباب قائلًا: «أما أنت فقد حان وقت حديثنا المؤجل منذ سنوات عديدة» وانطلق زياد يروي كل شيء منذ الحادث الذي وقع له وحتى اللحظة الراهنة؛ وعليّ يستمع له وكل منهما يحمل مشاعر كانت مزيجًا من الألم والحسرة والحزن، لكن ما سيطر عليه في النهاية شعورٌ بالخوف على حسن وعمر وعامر، حاول عليّ أن يثنيه عما يريد فعله لكن زياد قال مستنكرا: «أما آن الآوان أن نقتل شبح دليلة الذي طاردنا طوال عمرنا يا عليّ؟! نحن حتى لن نؤذيها في شيء سنلحق بها وبأخيها بعض الهزائم المعتادة بين العُيَّاق ونساعد ابنك في تخليص حبيبته من ذلك المتصابي ونمنح البسطاء بعض حقوقهم المسلوبة التي أصبح من الصعب عليهم حتى المحاربة لأجلها» ولم يجد عليّ ما يقوله فصمت في حيرة متذكرًا أمه فاطمة وكاد يقسم أنه يحمل الآن قلبها وبعض نظراتها الملهوفة عليه!..

تذكر زياد كل هذا وهو يجلس بين عليّ وحسن وابني فضل في حديقة بيت عليّ، أخذ يتأملهم واحدًا واحدًا وهو يسترجع ما قام به كل منهم محافظين على ألا يؤذى أحدًا من جراء ملاعيبهم، فعمر وعامر استطاعا سرقة الغلال دون أن يؤذوا سائق العربة وحسن هو الذي أنقذه من بين يدي داوود، ودرة التي استقبلت دليلة وهند المتخفيتين لم تحاول أن تؤذيهما حين أتى

حسن وأفهمها سرًا من تكونان؛ بل واستطاعت تمثيل دورها في الحوار الذي دار بينها وبين حسن في إتقانٍ، وحتى زهرة التي واجهها زياد بسؤالٍ مباشرٍ: «هل تريدين قتل دليلة؟» وجدت نفسها مصدومة تتطلع إلى كفيها بلا ردٍ ثم تبكي في حرقةٍ، لذلك كان من السهل عليه إقناعها في المشاركة في الملعوب لإخافتها ليس إلا، هو الوحيد الذي ألحق الأذى بزُريق حين انتحل شخصية العطار ريحان وأوهمه أن تلك الأعشاب والزيوت ستعيد له شبابه بما أنه يوشك على الزواج من صبيةٍ جميلةٍ، بعدها كان حسن سيساومه بشكلٍ علني أن يمنحه العلاج في مقابل تخليه عن فكرة الزواج من حبيبته رُقيّة؛ لكن ما حدث بعد ذلك كان قدرًا لا حيلة لأحدهم فيه!..

مر كل ذلك في ذهنه وهو يتطلع نحو زُريق الذي جلس منزويًا أمامهم، كان الألم المرتسم على وجهه- مع مرضه الجلدي الذي أصابه مؤخرًا- قدأحاله إلى لوحةٍ بشعةٍ بلا ملامح تقريبًا، من كان يتصور أن تكون أفعاله الصبيانية تلك سببًا في انتهاء أسطورة دليلة التي ظلت تؤرقهم طوال عمرهم!..

دلال..

بكت دلال كثيرًا وهي تجلس بين هؤلاء النسوة الكريمات، صحيح أن ما عرفته عن دليلة لا يجعلها تحمل لها أي نوع من الشفقة لكنها في النهاية كانت امرأة عجوز لا حول لها ولا قوة؛ أو هكذا ظنت، فمنذ اليوم الأول الذي أتت فيه إلى الخان وهي تسمع عنها الكثير من الأمور المخيفة دون أن يحدث منها شيءٌ يدل على ذلك، صحيح أنها كانت امرأة قوية حد القسوة أحيانًا ومتعالية بعض الشيء؛ لكن كلما كانت تنظر إليها وإلى معاملتها لابنة أخيها أو لحفيدها كانت تشعر بالأمومة الكامنة بداخلها، وهي على وجه الخصوص تحمل حنينًا لأي أم تراها لفقدانها أمها وهي في سنٍ صغيرةٍ جدًا، لذلك كان من الصعب عليها الاستجابة لما طلبه منها السيد حسن في البداية وشعرت أنه خيانة لتلك المرأة التي أصبحت تعتمد عليها في كل شيءٍ تحتاجه، لكن بعد أن شرح لها بعض الأمور وبعد أن رأت حبيبته رُقيّة لأول مرة وافقت؛ خاصة بعدما منحها مبلغًا كبيرًا من المال- ساعدها كثيرًا في إعالة أبيها المريض- وأكد لها أنه لن يقع لأي أحدٍ أي مكروه، وبالفعل لم تساعد حسن في أمر ما تسبب في مكروهٍ لأحد على العكس، فحسن هو الذي أنقذ العبد سائق عربة الغلال من يد داوود، وصكوك الدين التي سرقتها وأعطتها لحسن ردها كلها لأصحابها؛ الذين توافدوا من اليوم التالي مباشرة ليسددوا ديونهم وهم يخبرون الجميع كيف أن كل منهم وجد صك دينه مرفقا به بعض المال ورسالة موقعة من العايق تطلب منهم سداد الدين لداوود؛ بشرط سدادهم للدين الأصلي فقط دون ربا، حتى ما حدث لدليلة كان أمرا قدريًا لا يد لأحدهم فيه، لقد حدث كل شيء أمام عينيها ولكنها لم تتصور أن سقطة دليلة هذه المرة بلا عودة!..

كانت قد رتبت لخروجهما إلى الحمام في صباح ذلك اليوم وهي تعلم أن الخالة زهرة ستدخل إلى الحمام في لحظة معينة لتخيف دليلة وتهددها

ليس إلا؛ بعدما يكون الجميع قد اكتشفوا ما فعله العطار ريحان بزُريق، لكنها لا تدري ماذا حل بدليلة في ذلك النهار، كانت شريدة كأنما ترى ما لا تراه إحداهن؛ وأغلب ظنها أنها لولا ذلك ما فزعت كل ذلك الفزع حين رأت زهرة أمامها، الأمر الذي حيّرها بشدة؛ كيف تعرفت دليلة على زهرة وهي لم ترها في حياتها قبل ذلك النهار في الحمام؟!..

نظرت نحو هندٍ في حزنٍ ممزوجٍ بشعورٍ بذنبٍ لا تدري هل ارتكبته حقًا أم لا، نهضت مقتربة منها وجلست بجوارها تربت على كتفها قائلة: «هوني على نفسكِ يا آنستي» انتفضت هند وهي تصرخ في وجهها باكية: «ابتعدي عني، أنتِ من فعلتِ بها هذا» واستدارت تدور بين الباقيات وهي تصرخ أكثر: «جميعكن كنتن سببًا في خسارتي لها، جميعكن.....» واتسعت عيناها فجأة لتسقط بعدها مغشيًا عليها!..

هند..

شعرت هند برائحة نفاذة تغزو أنفاسها ففتحت عينيها فجأةً وهي تشهق مناديةً دليلة، ظلت لثوانٍ تتأمل من حولها في غير فهمٍ ونظراتها تتحول من الراحة إلى الفزع ثم إلى الحزن والغضب وهي تنهض من ذلك الفراش الغريب الذي وجدت نفسها مستلقيةً عليه، أبعدت يد درة عنها في ضعف وهتفت في ألمٍ: «ابتعدن عني، لا أريد أحدًا بجواري، أردتها هي فقط وأخذتموها مني!» وسقطت على طرف الفراش وهي تبكي في حرقة..

لا تدري هند كم ظلت على جلستها تلك؛ لكنها حين رفعت رأسها كان ضوء النهار يملؤ الغرفة، تلفتت حولها فرأت زهرة ودلال ناعستين على الأريكة المقابلة للفراش الذي تجلس عليه؛ بينما كانت درة بجوارها مغمضة العينين ولا تدري أهي نائمة أم لا، لمحت حسن يمر أمام النافذة المطلة على حديقة الدار فالتفتت تتأمله في حزن، كيف كان بارعًا في التمثيل إلى هذا الحد؟ دليلة كانت تقول دائمًا:«قلبكِ هو أخطر الأعداء عليكِ» وأغلب ظنها أن حسن ما كان سيتمكن من خداعها طوال تلك المدة- حتى أفقدها حذرها وحنكتها المعهودة- إلا لأنه ابن زينب، لقد كانت على حق وها هو قلبها يقضي عليها!..

نهضت تطل من النافذة على الحديقة لتجد حسنًا جالسًا وسط أبيه وخاله وهذين الصبيين تمامًا كالأمس، وحتى زُريق كان مايزال جامدًا في مكانه كصنم، اندفعت فجأةً إلى الحديقة وهتفت في وجه حسن باكية: «لماذا كذبت علي؟ ماذا اقترفت في حقك لتخدعني؟ لماذا لم تصارحني منذ البداية بحبك لتلك الفتاة؟ لماذا؟» أمسك حسن بيديها وهو يقول في هدوءٍ: «أنا لم أكذب عليكِ في شيء يا هند؛ ولم أعدكِ بشيء أيضًا» نظرت له لثوانٍ في صدمةٍ ثم هزت رأسها متمتمةً: «أنت على حقك» وصمتت للحظاتٍ قبل أن تسأله في حرقةٍ: «ودليلة؟ ماذا فعلت بك لتجعلهم يفعلون بها ما فعلوا؟ لقد

كانت تحبك» استدار يبتعد عنها وهو يجيب: «لقد فعلت دليلة الكثير لكنكِ لا تعلمين عنها سوى الجانب الذي تربيتِ عليه» عادت تبكي في صمتٍ فقال زُريق حينها: «هيا من هنا يا هند» صرخت في وجهه: «لا أريد رؤيتك، لماذا فعلت بها هذا؟ لماذا فعلت بناااا هذا؟ لقد حرمتني من أمي التي فرت منك ومن خياناتك المتكررة دون أن أعرف لها أرضًا أسير إليها فكانت دليلة أمي، أتحرمني الآن منها أيضًا؟» وتنفست بعمقٍ وهي تكمل: «أنا سأظل إلى جوار دليلة حتى مماتي، أسمعتني؟!»..

كان الوقت يمر على هند دون أن تعي ما يدور حولها تماما، لكنها فجأة شعرت بطعم الأتربة التي أثارتها خطواتهم الثقيلة وهي تتبعهم، توقفوا ليلتفوا حول مصطبة من الطوب وأخذوا يتمتمون ببعض الآيات ففعلت مثلهم وهي تسترد بعض تركيزها، لم ترفض ضمة درة هذه المرة بل اعتمدت على ذراعها وهي تنحني نحو المصطبة لتفترش الرمال بقربها، أراحت رأسها على جدار المصطبة وأخذت تسوي الرمال من حولها في رفقٍ مبتسمة من بين دموعها ومتمتمة بكلمات غير مفهومة!

العايق..

افترش حسن الرمال بجوار هند وهو يتأملها في صمت مستعيدًا ما حدث بالأمس، هو لم يخطط أبدًا لما وصل إليه الأمر حين بدأ ملعوبه؛ لكنه كان على يقين من أنه قصاصٌ عادلٌ في النهاية!..

لقد كان خارج الحمام مع سائق عربة دليلة ينتظران الخالة زهرة ودلال لتأتيا بها إليه ليكشف لها ملعوبه عليها ويساومها بين إعلان هزيمتها وبين الضغط علي أخيها ليتخلى عن فكرة زواجه من رُقيّة، وهذا بعدما تقابلها زهرة وتعرفها من تكون وفي نفس اللحظة تخبرها أنها تخلت عن ثأرها منها؛ لقد وعدته الخالة زهرة بذلك، لم يتحمل البقاء في العربة طويلًا فنزل يذرع مدخل الحمام ذهابًا وإيابًا في توتر، كانت تتنازعه مشاعر مختلطة نحو دليلة وإن لم يكن من بينها أي رغبة في إيذائها رغم كل شيءٍ، لحظات وسمع ضوضاء وصراخًا مكتومًا وصوت دلال تهتف باسم دليلة في فزعٍ، لم يدرِ لحظتها ماذا يفعل وهو عاجز عن الدخول إلى الحمام، لذا لم يجد مفرًا من محاولة مناداة دلال بصوت مرتفع فربما تسمعه، فعل ذلك مرارًا ولكنها لم تجبه أبدًا؛ لكن فجأة خرجت الحمامية وخطوات قبقابها تقرع أرضية الحمام بصوت يطغى على صوتها وهي تصرخ: «قتيل.. قتيل» وبينما تجمهر الناس حول الحمامية لاستبيان الأمر اندفع حسن إلى الداخل ليشاهد دليلة ممددة بين ذراعي دلال غارقة في دمائها وزهرة تقف بجوارهما في تأثر، هتف بدلال وهو يحمل دليلة إلى صدره:

- ماذا حدث لها يا دلال؟

- لقد فزعت حين رأت الخالة زهرة وزلت قدمها فاصطدمت رأسها في الطاولة الرخامية..

أخذ حسن يحاول إفاقتها متمتمًا: «جدتي، افيقي أرجوكِ!» كررها كثيرًا وهو يحاول إيقاف النزيف بالمناشف المبللة بالماء البارد التي كانت تحضرها دلال؛ دون جدوى، صرخ فيها: «أحضري بعض الثلج واستدعي طبيبًا بسرعة» هرولت دلال مبتعدة بينما عاونته زهرة في تمديد دليلة على طاولة التدليك

في رفقٍ وهي تتمتم: «لم أمسسها بسوء يا ولدي» هز حسن رأسه في تفهم وهو يقترب من دليلة ويحادثها مرةً أخرى قائلًا: «أفيقي يا دليلة إنه أنا حسن» وأخيرًا رفت عينيها في وهنٍ وهي تقول:

- أنت يا حسن؟!

- أنا ماذا يا جدتي؟

أغمضت عينيها قائلةً: «أنت العايق الوحيد الذي هزمني يا ابن زينب!» دمعت عيناه رغمًا عنه وأجابها: «أنا لست العايق يا جدتي، ليس أحدنا العايق» فتحت عينيها هذه المرة على اتساعها وهي تبتسم أكثر متمسكةً به في قوةٍ ثم قالت: «نعم ليس أنت وليس أحدكم، كلكم العايق يا ابن زينب؛ كلكم!» وذهبت!..

حتى هذه اللحظة لا يصدق أنها ذهبت هكذا، شعر بيد هندٍ تتمسك بكفه فرفع وجهه نحوها ليجدها تبتسم في مرارةٍ وهي تتمتم: «لقد اعتادت دليلة أن تحكي لي عن المحروسة ودفئها وجمالها، ودائمًا كانت تختتم حديثها بأنها كانت تحبها حتى سرقت منها زينب؛ فأصبحت تكرهها ولا ترغب حتى في تنسم هوائها، لا أدري لمَ قررت فجأة أن تصحب أبي في زيارته هذه المرة إلى محروستكم وتصحبني معها أيضًا، كأنها أرادت أن تودعني قبل أن تستريح أخيرًا إلى جوار زينب!» لم يستطع الرد ولا هي انتظرت أن يفعل، فمن كان يصدق أن تظل دليلة هاربة طوال تلك السنوات من أشباح ضحاياها لتحل نهايتها هنا على أرضهم ويكون مثواها الأخير بين رفاتهم!..

تمت بحمد الله

حلوان في ١٣ نوفمبر ٢٠١٩

المراجع:

- **الشطار والعيارين** (دراسة) - د. محمد رجب النجار
- **سيرة علي الزيبق** – المخطوطة الأصلية (دراسة) - د. محمد سيد عبدالتواب
- **السيرة الشعبية الأصلية علي الزيبق المصري** (دراسة) - خيري عبدالجواد

شكر خاص:

- الأديب الراحل/ فاروق خورشيد
- السيناريست/ يسري الجندي
- السيناريست/ هوزان عكو
- الكاتب والباحث / وليد راشد

صدر للكاتبة

إصدارات ورقية:

- **حُلم الجواد الأبيض** (قصص قصيرة) - 2007
- **قُبلة حارة الألوان** (قصص قصيرة) - 2010
- **مِسك أبيض** (رواية) – الطبعة الأولى 2012
- **عُهر مقدس** (رواية) – الطبعة الأولى 2013
- **وأشارت إليه** (مجموعة أدبية) – الطبعة الأولى 2016
- **لازال هناك غد** (رواية) – الطبعة الأولى 2018

حلقات إلكترونية:

- **يوميات ستيتة ومرزوق** (ج1) 2009
- **ليالي شهريار** (ج1 – حكاية بدور) 2010
- **يوميات ستيتة ومرزوق** (ج2) 2011
- **ليالي شهريار** (ج2 – حكاية شمس) 2012

SOCIAL MEDIA

Facebook: https://www.facebook.com/Amira.ezz.eldeen

Twitter: https://twitter.com/Amira_Ezzeldeen

Instagram: https://www.instagram.com/amira.ezzeldeen

E. mail: amira.ezz.eldeen@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007